أنيس منصور

البقية في حياتي!

لوحات تذكارية على جدران الطفولة

دار الشروق

كلمة أولى !

من الخوف من أمي والخوف عليها ، عرفت أبى ..

ومن القلق على أبى والشوق إلى صوته الجميل يرتل القرآن ، ويتغنى بالشعر ، ويقلب الكتب بأصابعى ، عرفت نفسى ..

هذه ـ إذن ـ ينابيعُ الشعور ، ووميضُ الفكر فى طفولة كانت الماضى الذى لا يمضى ، والحاضر الذى لا يغيب ،

وكانت الطريق الذى إذا التوى كان علامة استفهام ، وإذا استقام كان علامةَ تعجب ..

والطريق لم ينته بعد ولا علامات الدهشة على جانبيه .. فلا حدود للاستفهام والفهم ، والتعجب والاعجاب ..

هذه ـ إذن ـ صور تذكارية لشلالات القلق ، وجنادل الأرق ، ووديان الفزع .. أعرفها .. تعرفنى .. بغير نهاية ..

فالبقيةُ ما تزال فى حياتى ! ..

القاهرة ١٨ أغسطس سنة ١٩٩٠

يارب إنى خـائـفٌ ، كما ترى
والقلب منى حـائرٌ ، كما ترى
وقبـلتى ضـائعـةٌ ، كما ترى
فما ترى يا رَبنا ، فيما ترى ؟!

« . . . »

وضاقت الأرضُ حتى كادَ خائفهُم
إذا رأى غيرَ شـيءٍ ظنـه رجـلا !

« **المتنبى** »

ما هذا الإنسان ؟ إنه عود من القش .. إنـه أضعف المخلوقات .. ولكنه عود قش عاقل . والكون أقـوى منه . والكون ليس فى حاجة إلى سلاح لكـى يقتل هذا الكائن العاقل .. قطـرة ماء تقف فى حلقه كافيـة لقتله .. ولو سحق الكـون هذا الإنسان ، سوف يبقـى القتيل أعظم مـن القاتل . لأن القتيـل يعرف انه أضعـف ويعرف أن الكون أعظم .. بينما الكون لا يعرف لا يفهم لا يعقل شيئاً من قوته أو من ضعف الإنسان .. فعظمة الإنسان فى فكره . ولذلك فالإنسان يجب أن يسمو بفكره وليس بالزمان الذى يستغرقه والمكان الذى يشغله .. فلنحاول أن نفكر وأن نفكر فهذا هو الأساس الأول لحضارة الإنسان ! .

« **باسكال** »

١

جلست أمى إلى جوار النافذة . وفنجان القهوة فى يدها مثل كل يوم . ولكنها هذه المرة تبكى فى صمت .. وقد امتدت فروع الأشجار إلى داخل الغرفة .. وكأنها تفعل ذلك لأول مرة . وكأن لها وظيفة أخرى هى أن تؤكد لأمى أنها ليست وحدها .. فأوراق الأشجار أكف صغيرة تواسيها أو تسبقها إلى دموعها .. ولم ألاحظ قبل اليوم أن الأشجار قريبة من النافذة . وأن فروعها قد تمددت إلى داخلها .. الأوراق شديدة الخضرة . وملابس أمى شديدة السواد .. وجه أمى أبيض .. وشعرها طويل ذهبى .. وفى كف أمى بقايا الحناء .. ونظرت إلى كفى فوجدت بعض الحناء أيضًا . فمن عادة أهل الريف أن يضعوا الحناء على أكف وأقدام الصغار والنساء .. حتى المنديل الصغير فى يد أمى له أطراف سوداء . وقد تسللت أشعة الشمس من بين الأوراق وازداد وجهها اشراقًا . ولأول مرة أنظر فى عينيها . بينما امتدت ذراعها ومسحت دمعة على خدى ..

وقالت لى . لن أتركك وحدك يا حبيبى .. عيب ! كيف تبكى وأنا أقول لكل الناس عنك إنك رجل .. أنت رجل البيت .. أنت عارف أنى لا أحب أحدًا أكثر منك .. لا أحب أحدًا غيرك..

وسحبت يد أمى إلى شفتى وقبلتها . وكانت يدها ناعمة وأصابعها طويلة وأظافرها وردية .. ثم نظرت إلى وجه أمى .. مستدير أبيض .. وإلى عينى أمى فوجدتهما عسليتين وكنت أظنهما سوداوين .. وإلى الرموش فوجدتها طويلة ..

وضحكت أمى وهى تقول · هل نسيت أننى أستطيع أن أرى النجوم فى الظهر ؟!.

فقد كـانت تتباهـى بأن نظـرها أقوى نظـر فى العائلة كلهـا .. ولا تفوقهـا إلا إحدى قريباتها ..وكانـت البنات يتبارين من التى تستطيع أن ترى القمـر والشمس طالعة .. أو ترى إحـدى النجوم فى السماء رغم وجـود الشمس.. وكانت أمـى هى التى تفـوز فى كل مرة..

وتضحـك وتقول : مـاذا أعمـل .. أبوك هـو الـذى نظره ضعيـف .. ولـذلك فنظـرك ضعيف.. وهو .. (ثم تبكى) ..

وتضع الفنجان الذى فى يدها إلى جوارها ..

ولم أستطع أن أفهم هذا الذى حدث فى ذلك اليـوم .. أمى جالسة ، وهى عادة لا تكف عن الحركـة . وملابسـها سـوداء . وتبكى .. ولم أكن أتصـور أن أمى تبكى أيضًـا . فقد أعتادت أن تبكينى .. أن تضربنى لأتفه الأسباب .. ولكن هذه المرة هى التى تبكى .. وهذه المرة تلف ذراعيها حولى .. وأرى وجهها وعينيهـا وأشعر بحضنها وأنها أمى .. وإن كان من الممكن أن أكـون فى أحضانها أى وقت وكل يـوم لولا أننى أضطرهـا إلى ضربى.. ولم أعرف السبب الحقيقى الذى يجعلها تضربنى .. مثلاً أنا أصعد النخلة.. حاولت ذلك.. فقد رأيت الثعلـب يصعد النخلـة بظهره لكى يـرى الأرض ومن عليها وحتـى لا يفاجـأ بأى خطـر.. وككل الأطفـال حاولـت أن أقلد الثعلـب فسقطت على الأرض.. وسـال الدم مـن رأسى..

وفى مرة أخرى حـاولت أن أقلد طبيب العيـون فكنت أمسك الأطفال الصغـار بالقوة وأضع التراب فى عيونهم ..

وفى مرة وجدتنـى أضع يدى فى جيب جـاكتة والدى .. وكنت أرى والـدى يخرج من جيبه قطعًا من الأوراق الصغيرة . هذه الأوراق عليها آيات قرآنية وكان يعطيها لمن يشكو الصداع .. وكان النـاس يشكرون والدى على ذلك .. فقد زال الألم .. حاولـت أن أعرف ما هذه الأوراق ! .

وفى إحدى المرات وجدت إحدى قريباتنا تصرخ وتبكى . وقالوا إنها سوف تلد حالاً .. وتكاثـرت النساء . وجاءت الـداية .. ومعها طشـت وبعض الـزجاجات .. وبعـض أعواد

البخـور .. ودخلن جميعـًا إحدى الغـرف .. وأجلسوا السيـدة التى سـوف تلد على أحـد المقاعد.. وتسللت أنا تحت السرير .. لأرى .. وعنـدما رأيت لحمًا ودمًا وسمعت صراخًا .. صرخت أنا أيضًا ! .

ولم تقل أمى شيئًا عن هذا الذى حاولت أن أعرفه ..

واعتدت على أن تمتد يد أمى إلى أى شىء وتضربنى به فى كل مرة أحاول أن أعرف ..

مرة أخرى نزلت إلى النيل مع الأطفال . وغرقت . فأنا لا أعرف العوم . ولا أعرف كيف أخرجونى . ولا كيف أننى ملفوف بالأغطية على سرير . وكيف أننى لم أكن وحدى .. ففى سخونة الحمى كنت أرى أناسًا كثيرين فى سريرى .. وكنت أرى حيوانات وطيورًا . وكنت أغمض عينى وأخفيهما تحت اللحاف .. وكنت اندهش كيـف أننى عائم فى البحر .. أحيانًا فوق الماء وأحيـانًا تحت الماء .. وأن أمى تحاول اغـراقى بينما خـالتى ـ أجمل مـن رأيت وألطف وأحـب من عـرفت ـــ كانت هـى التى تحاول انقـاذى .. وكيف انها تمد شعـرها الأسود الطويل ناحيتى .. وكيف اننى كنت أتحول إلى فراشة أتعلق بشعرها وعندما أصل إلى قرب خـديها تمتد رجل أمـى تدوسنى إلى القاع .. وأحيـانًا أرانى عصفـورة تقف على كتفى خالتى وتمتد يدها وتلصقنى بخديها قريبًا من عينيها الجميلتين .. عندما تخطفنى أمى وتحبسنى فى قفص مع الفئران تحت السرير ..

واعتدت أن أبكى من الوحدة ومن السخونة ومن الألم . وأحسست بيد وذراع وحضن فقلت   خالتى أنا تعبان .

وسمعت أمى تقـول . أنا أمك يا حبيبى أنـا لا أريد أن أضربك أبدًا .. ابدًا .. أنـا تعبانة ياابنى .. تعبانة وأنت صغير لا تعرف !

ورفعت رأسى لأرى دموع أمى ..

وتقـول : أريدك أن تكـون أحسن النـاس . أنت تعـرف . لا أريدك أن تلعـب فى الطين وتغرق فى النيل . أريـدك أن تتعلم وأن تذهب للمـدرسة وأن تكون وزيرًا . حتـى يقال إن أمك عرفت تعلم أولادها ! .

وتمسح العرق والدموع من وجهى .. وتقبلنى فى كل وجهى . وبكيت : ماما .. ماما ..

أين أنت ؟ كل الأطفال يقولون لى أن أمك تكرهك .. وإلا لماذا هى تضربك .. بينما أمهاتنا لا تضربنا .. أمك هى التـى أغرقتك فى النيل .. أمك هى التى أسقطتك مـن النخلة .. أمك هى التى حبستك تحت السرير ..

وحاولت أن أجلس إلى جوارها فلم أستطع . ونظـرت أمى والدموع فى عينيها : شايف أنت سـريض لاية درجة .. أنـت السبب يا ابنـى . لماذا تضطرنى أن أضربك .. فى كـل مرة أفعل ذلك أظـل أبكى .. أنا أحبك .. أنهم يقولـون إننى لن أنجح فى تـربية أولادى .. قل لى ياصـلاح ـ وهذا هـو اسمى ـ مـا الذى جعلك تـذهب إلى ضريح جـدك بالليل .. والـدنيا مظلمة.. وهناك ذئاب وثعالب.. وفى الضريح ثعابين وعفاريت ..

وأحنيت رأسى خوفًا من أن تضربنى . فأكدت لى أنها لن تفعل . فقلت لها: وجدت كل الناس يذهبـون ويبكون وكل واحد يشكـو لجدى من أمه ومن أبيـه .. ويطلبون إليه أن يساعدهم . فـأنا ذهبت وانتظرت حتى يمشى كل الناس . ودخلـت وأقفلت الباب ورحت أبكى وأطلب منه أن يأخذنى ..

قاطعتنى أمى : لا تقل يا ابنى . لا تقل .. حرام عليك .. أنا غلبانة ..

وأكملت كلامى :يأخذنى عنده مثل خالى.. حتى لا يضربنى أحد ! .

واحتضنتنى أمى . وهـى تبكى وتقول آخر مرة يـا ابنى .. آخر مرة وحيـاتك أنت.. آخرمرة ..

ومرة وجدت فناجين القهـوة على المناضد . وذهبت وغسلتها مساعـدة لأمى . وكانت مريضة .. ونـادتنى أمى . وأمسكت أذنى وقرصتها .. وصرخت.. وعرفت أن هذه الفناجين لجاراتنا وقد بعثن بها لكى تقرأها أمى!.

* * *

أمى كانت عصبيـة المزاج .. ومن السهل أن تغضب ومن السهل أن تـرضى . وفى كل الحالات تبكى بسهولة . ولكن لم أفهم العـلاقة بين حبها الشديد لى ، وضربها لى .. بيديها وبأى شىء قريب منها .. أنا فقط دون بقية اخوتى ..

ولم أجد أحـدًا من اخـوتى يحبهـا مثلى . ويحرص على إرضائهـا . ويحزن لحزنها . ويبكى لبكائها . فـإذا هى مرضت تسللت إلى فراشـهـا .. وإذا لم توافق نمت على الأرض أمام سريرها . وعلى الرغم من اننى لا أستطيع أن أسـاعدها فى شىء فقط أن أكون قريبًا منها.. مع انها لا تطلب منى شيئًا . وأحيانًا تنزل من السرير وتضع الغطاء على جسمى .. ولا تحاول إيقاظى ..

وعندما جاءت إحدى خالاتى . سمعت هذا الحوار ·

خالتى · الولد مريض . ماله ؟

أمى لا أعرف . ولكن عندما أمرض فإنه يمرض . وأنا أحاول أن أخفى مرضى عنه ولكنه يلاحظ ذلك بسرعة .

خالتى : دعيه يسافر معى .

أمى · لن يرضى .

خالتى . سأحاول .

وبسرعة ذهبت إلى أحد الدواليب ووضعت كـل ملابسى فى الماء .. وحاولت أن أتظاهر بأننى أغسلها حتى لا أسافر مع خالتى وأترك أمى ..

وفجأة دخلت غرفة والدتى . وقلت لها : يا ماما .. شوف لى الفنجان ! .

فضحكت أمـى لأول مرة . وخالتى أيضًـا . ووجدت وجه أمـى يشرق وأرى أسنانها البيضاء الجميلة . واقتربـت منها . ثم أصعد إلى جوارها على السريـر . وأضع رأسى على صدرها .

وقالت لى أمى : حاضر يا حبيبى ..

وقامـت خالتى وأتـت بفنجان قهوة وطلبـت منى أن أشربه . وأن أرجـه . وأن أقلبه . وانتظر حتى يجف . ثم نـاولتها الفنجان . وراحت تديره بين أصـابعها .. واشرق وجهها وقالت لى . فنجالك حلو قوى يا ابنى .. كله سكك مفتوحة .. وفى وسط الفنجان كلمة الله .. وهنا كلمة محمـد .. الله نور ... ومحمد رجل جميـل الوجه وحولـه اناس كثيرون .. وهنا كرسـى كبير .. وفوق الكرسى نجمـة .. نجمك أنت يا ابنـى .. فوق .. ربنا يدينـى طول

العمر لكى اراك فى الحقيقة كما اراك فى الفنجان ..يارب سايقة عليك النبى .. لكن يا ابنى.. أعداؤك من دمك .. القريب منك هو الذى يحسدك .. ولكن ربنا سوف ينجيك يا ابنى .. ربنا يكرمك .. أنا شايفة إن ربنا سوف يكرمنى بك .. ألف سلامة لك من كل عين .. هذا كل ما فى الفنجان .. مبسوط ! .

لابد أن أمرض لتكون أمى قريبة منى .. ولابد أن تمرض هى لأكون عند قدميها وبعد ذلك فى حضنها ..

* * *

ـ صلاح .

ـ نعم يا ماما ..

ـ أخرج .. لا يصح أن تجلس مع الستات .. أخرج .. أنت رجل ..

وتقول لقريباتها . والله ابنى صلاح زى البنت . لا يرفع صوته ولا عينيه... ولا نسمع له صوتًا ..

وترد صاحبتها الحقيقة كده .. الولد فى غاية الأدب .. ربنا يكمله بعقله.. ألن يذهب إلى المدرسة ؟

أمى تقول · سوف يحضر أبوه اليوم . لابد أن يذهب . فلا أبوه فلاح ولا جده فلاح .. ولابد أن يكون أفنديًا يذهب إلى المدرسة ويكون محاميًا أو دكتورًا . هذا ما نذرته لله .. وربنا سوف يعوضنى خيرًا ..

* * *

ولما عرفت أن والدى قادم من السفر ، غيرت ملابسى .. الجلباب الجديد .. والقباب الخشبى . والطاقية .. وكان الجلباب مشقوقًا من الجانبين .. لا أعرف السبب .. وربما كان الغرض هو أن يكون واسعًا .. وكانت هذه الفتحة يسمونها « الفراجية » أى الفرجة الصغيرة .. وكان والدى يبدو عادة أنه قادم من بعيد .. فهو يجىء راكبًا حصانًا وعلى

رأسه شمسية . ويمشى وراءه عدد مـن الفلاحين على أقدامهم أو راكبين الحمير .. وكان من عادة والدى إذا رآنـى أن يرفعنى بذراع واحدة إلى حيث هو وأجلس أمـامه .. فقد كان قويًا .. وكانـوا يقولون إنه أحيانًا كان يحتضن الحصـان الصغير بذراع واحدة ويمشى به.. ولم أر ذلك .. ولكن هذه المرة عندما ناديته صارخًا : بابا.. بابا .. لم يتوقف عن الكلام ولا مد ذراعه .. وإنما اكتفى بالنظرة ناحيتى قائلاً : احترس حتى لا يدوسك الحصان ! .

ونـزل أبى مـن فوق الحصـان .. واتجه إلى البيت . وأنـا الذى مـددت يدى إلى يـده . وضغطت عليها بأصابعى . كأننى احتضنه فأنا لم اره منذ وقت طويل .. فكان من عادته أن يغيب عنا أسبـوعًا ، ولكن هذه المرة غاب شهـرًا أو دهراً .. وفى كل مرة أسـأل أمى عن موعد عودته فإنها لا تقول شيئًا .. أو تبكى .. ثم لا تقول شيئًا فأبكى أنا أيضًا .

ودخـل والدى البيـت . وظللت واقفـًا أمام البـاب . وتعالى الحديـث بين أبى وأمـى . وسمعت أبى يقول · لا داعى لهذا الكلام . الولد يسمع . الولد حساس جدًا . لا داعى ..

ولم أسمـع ما الـذى تقولـه أمى . ولا مـا الذى يقـوله أبـى . واقتربت مـن النافـذة . وسمعت. ولكن لم أفهم . وكـانت أمى هى التى تتكلم أكثر . وأبى لا يـرد . وأحيانًا يقول عبارات لا أعرف لها معنـى .. مثل : الله وحكمته .. اصبرى سوف نترك هـذا البيت .. هذه آخر مـرة .. هانت .. طبعـًا الولـد لابد أن يدخـل الكتاب يتعلم القـراءة والكتابـة ويحفظ القرآن.. وبعد ذلك يحلها ربنا.. وأسمع أمى تقول : لا تصدق الولد .. أنت السبب . إنه لا يحب أمى .. إنه يقلدك .. لا تصدقه ! .

أنا كذاب ؟ وأمى هى التى تقول . لم أكذب قط . لقد تعلمت منها الصدق. إذن هى التى تكذب أمى تبكى ؟ وأمى تكذب ؟ وأبى يؤكد إننى لا أكذب .. وأمى تقول له : وأنت كيف تعرفه إذا كنت لا تراه فى الأسبوع إلا مرة واحدة ولمدة نصف ساعة ؟! .

أما بقية الساعات والأيام فهى التى تعلمنى وهى التى تضربنى ..

وفى يوم سألت أمى · يا ماما ما الذى يعمله والدى ؟ ..

وقالت لى كلامًا لم أفهمه . ولم تكن سعيدة بما تقول .

ولما سألتها : ولماذا يسافر كثيرًا ؟ ولماذا لا يقيم معنا فى بيت جدى ؟.

ولم تسترح أمى إلى هذا السؤال ولا أحبت أن تتكلم .

ولما سألتها · ولماذا جدتى لا تحب والدى ؟

قالت لى : أنت صغير أنت لا تعرف وأنت لا تفهم ..

وكنت أقول لها : ولكن بابا طيب جدًا .. يصلى ويحبه الناس . كل الناس يحبون والدى..

وتقول . ولكن ليس له بخت يا حبيبى .

ـ يعنى إيه ؟

ـ أنت صغير ولا تعرف الآن . ولكن عندما تكبر سوف تعرف ..

وكنت أنام أمام غرفة والدى حتى إذا صحا من النوم لصلاة الفجر وجدنى . فأيقظنى لكى أصلى معه وأتحدث إليه .. وكان أبى لا يكف عن قراءة القرآن وهو يتوضأ بعد ذلك.. ثم يؤذن لصلاة الفجر . ثم يتلو القرآن . ثم يصلى وأنا وراءه .. وبعد ذلك يقرأ القرآن ويدعو الله أن يصلح حال أولاده .. فالأولاد كثيرون .. عددنا أحد عشر.. وكان حين يدعو لى يضع يده على رأسى .. ثم يضعها على عنقى .. ثم على قلبى .. ويدعو لى بأن ينصرنى على أعدائى وعلى نفسى وأن يجعلنى رحيمًا بوالدى وأن أكون فى أعلى المناصب .. وأن يثبت إيمانى ويملأ عقلى بالعلم وأن يعطينى الصحة والعافية ..

وبعد ذلك يصنع الشاى بالنعناع ويحكى لى قصصًا دينية وتاريخية .. مع أبيات من الشعر .. وكان الشعر الذى يرويه ويجعلنى أردده وراءه شعرًا أخلاقيًّا وصوفيًّا . وكان يندهش كيف أننى أحفظ الشعر .. مئات الأبيات بهذه السرعة مع إننى لا أعرف القراءة وكان يحكى ذلك للناس وكان الناس يدعون لى بالصحة والنجاح والمزيد من العلم ..

وفى يوم سمعته يقول لخطيب المسجد : أن ولدى قد حفظ « دلائل الخيرات » كلها ..

فرد الرجل عليه · وهذا من دلائل الخيرات ! .

وأعجبنى هذا القول . ولكن لم أفهم هذه النكتة البلاغية .

وفى يوم قال لمأمور المركز ، وكان يتناول عشاءه فى بيتنا : إن ولدى قد حفظ « البردة » للامام البوصيرى .. ويستطيع أن يرويها كلها الآن ..

وكنت أقـول والناس فى ذهـول .. وتمتد أيـديهم تباركنـى وتبحلق عيـونهم .. كأنهم يرون المستقبل العظيم الذى سوف يكون من نصيبى عندما أكبر ! .

وفى إحدى المرات قلت لوالدى : بابا أنت زعلان مع ماما ؟ لماذا ؟

وكان السؤال مفاجـأة لأبى . وخلع منظاره وأدنى وجهه مـن وجهى .. ورأيت وجهه الأبيض وعينيه الخضراويين . وفى عينيـه صفاء وطيبة وحزن . ثـم احتضننى وأجلسنى على ركبتيه وراح يقبلنى . ولم يقل شيئًا . ورأيت الدموع فى عينيه .. حتى أبى يبكى ؟! .

ما الذى أقوله ليجعل أبى يبكى وأمى أيضًـا .. لماذا كل الذى أقول يتحول إلى دموع.. ما هذا الذى أقوله فيوجع القلب .. ما هذا الذى لا يريد أحد أن يصارحنى به..

وعـدت أقـول وأنـا أبكى أيضًـا : مـن فضلـك لماذا أنـت ومـاما تقفـلان البـاب ثـم تتشاجران..لماذا؟

وكان أبى يقول لى وهو يحتضننى . كل الناس كذلك يا ولدى .

قلت : ولكنى سألت واحدًا من أصحابى إن كان أبـوه وأمـه يتشـاجران فقـال إنهما لا يتشاجران .. وسألته إن كان فى كل مـرة يتحدث إلى أمه تبكى.. وإلى والده يبكى .. قال إنهما لا يفعلان ذلك .

قال أبى . ومن هذا الذى تسأله يا ولدى ؟

ـ ابن خالى ..

ـ ابن العمدة ؟

قلت : نعم ..

فضحـك أبى وقـال لأن بيته كبير جـدًا .. فإذا تشـاجر العمدة مع زوجته فإن ابنه لا يسمعهما ..

قلت : ولماذا لا يبكيان ؟

قال لا يبكيان أمام الأولاد وإنما فى الغرفة وراء الباب .

قلت : ولماذا البكاء يا بابا ؟

قال . لأن الإنسان عندما يتألم أو يمرض أو يحزن لابد أن يبكى .

قلت : ما الذى يؤلمك يا بابا ؟

قال . ماما سوف تقول لك .. أما أنا فأريد أن أتحدث معك .. وعن المدرسة التى سوف تذهب إليها .. أنا أريدك أولاً أن تحفظ القرآن الكريم .. وبعد ذلك سوف تكون رجلاً عظيمًا .. أحسن واحد فى هذه القرية .. وفى الدنيا كلها .. وأنت سوف تحفظ القرآن بسهولة وفى وقت قصير .. لأنك تحفظ الشعر بسهولة . والقرآن أعظم من الشعر . والذى يحفظ القرآن لا يكذب ولا يغش . ولذلك سوف يحبك الناس ويصدقونك .. وأنا أعلم انك سوف تكون أحسن من كل اخوتك .. لأنك طيب .. ذكى .. ولأنك رقيق عطوف.. ولازم تسمع كلام ماما يا حبيبى ..

ـ حاضر يا بابا ..

ـ انت تحب ماما ؟

ـ نعم .

ـ وانت تحبنى ؟

ـ طبعًا .

ـ إذن يجب أن تحب أباك وأمك .. لأنهما يحبانك .. أما الخلافات التى بينهما فهى طبيعية بين كل الأزواج .. وعندما تكبر سوف تفهم .. وسوف تجد لأمك ألف عذر ولوالدك أيضًا .. فلا تشغل نفسك بنا .. انشغل بنفسك ومستقبلك يا ولدى .. وربنا يحميك وينجيك وهذه هى سعادتى أنا وأمك .. تأكد من ذلك ..

ـ حاضر يا بابا ! .

وكانت أمى تسألنى : لقد سمعتك وأنت تتكلم مع بابا . ماذا كان يقول لك ؟ .

ـ أبدًا إنه يقول شعرًا وأنا أردد وراءه .

ـ شعر ؟

ـ نعم . كلام حلو .. مثلاً .

سامح أخاك إذا خلط

منه الاصابة بالغلط

وتجـاف عن تعنيفـــه

شكر الصنيعـة أم غمط

من ذا الذى ماساء قط

ومن له الحسنى فقط؟!

ـ ما هذا ؟

ـ شعر .. مثل :

رأيت غصنًا على كمشيب

شبيـه بـــدرًا إذا تـلالا!

ـ ما هذا ؟ أبوك يا ابنى ليس عنده إلا هذا الكلام .. وبقدر ما عنده من كلام ليس عنده فلوس ..

ولم أفهم ..

ولم أقل لها شعـرًا بعد ذلك .. مـادام مثل هذا الكـلام الحلو يخطف الـرزق ويسبب الفقر والبعد عن الأولاد ! .

٢

كانت أمى تغلق الباب علينا بإحكام شديد .. الترباس فوق .. والترباس تحت .. وبالمفتاح .. ثم تضع فى فتحة المفتاح قطعة من القماش .. وتدخل غرفة النوم وقد أحكمت إغلاق النافذة والباب ..

وأدخل إلى جوارها تحت اللحاف أغطى رأسى ، صيفًا وشتاءً . ولا أذكر اننى ضربت اللحاف بيدى أو برجلى فى حياتى ..

ولم أتساءل عن سبب اللحاف ولكن اعتقد أننى وجدت اللحاف فتغطيت به .. ثم إنه الخوف .. الليل هو الخوف .. وكل شىء أمام الباب ووراء النافذة مخيف .. ففى الليل تسمع أصواتًا كثيرة ، غريبة أمام الباب .. وتحت النافذة وفوق السطوح .. أشياء تدب .. إناس .. أو كلاب أو ذئاب . وتسمع وقع أقدام فوق السطوح .. وصوت الدواجن تصيح فزعًا .. وتتعالى الصيحات .. وأخرج برأسى من تحت اللحاف وأسأل أمى فتهمس إنها العرسة .. تخنق الدجاج .. أو هو الثعلب يخطف البط .. أو هو الذئب .. أو هو أحد اللصوص . ولكن أمى لا تنهض من السرير .. ولا تفتح الباب .. ثم تطلب منى أن أنام .. فأقترب منها وأعانقها وأخفى رأسى وأنام ..

وأنهض من النوم خائفًا حتى من سؤالها عن الذى حدث بالأمس ويتكرر كل ليلة ..

واسمع عن قصص اللصوص فى الليل .. وعن المجرمين .. وعن الذئاب التى خطفت الأطفال .. وعن الذئبة الأنثى التى جاءت تنتقم من رجل قتل زوجها .. وعن العفاريت التى تقلد الناس فى ملابسهم وأصواتهم وتخطف الأطفال .

وكل شىء يتلاشى عند طلوع الفجر وشروق الشمس .. ويظل الإنسان آمنـًا طوال النهار ، حتى إذا جاء الليل فإنه الخوف والرعب يصبح خيمة فوق القرية والمدينة .. ويحاول أن يتسلل من ثقب الباب أو من تحت الباب أو من تحت النافذة .. والنهار للناس، والليل لكل الوحوش والعفاريت .

وأحيانًا كنت أسمع أن النهار أيضًا للعفاريت . فالقطط التى فى البيوت هى عفاريت أيضًا أخذت شكل الحيوانات .. وبعض القطط تنظر إليك كأنها تحدثك .. أو كأنها تنقل لك رسالة من إنسان مات .. وكذلك الكلاب .. أما الفراشة التى تدخل من الجنينة إلى النافذة وتحط على السرير فهى روح قريب لنا مات . ويريد أن يطمئن على الناس فى الدنيا .. ولذلك يجب ألا تطرد قطة أو تضرب كلبًا أو تقتل فراشة ..

ولا أذكر أننى وجدت باب بيتنا مفتوحًا . ولا أذكر أن أحدًا دق على الباب دون أن يسرى الفزع بيننا .. وقبل أن نذهب إلى فتح الباب نتساءل فى صمت : ومن يكون هذا .. هذه الدقات على الباب غريبة عنا ..

وتقول أمى : إنه غريب .. فقد رأيت فى الفنجان أن ضيفًا عزيزًا سوف يزورنا ..

أو تقول : إن باطن كفى يأكلنى .. سوف أسلم على أحد لم أره منذ وقت طويل ..

ثم تقول : وقد رأيت فى الفنجان أن هذا الشخص يبكى .. نعم يبكى ..

وكنت أصدق كل الذى تقوله أمى .. وكل ما تقوله يثبت انه صحيح فى نفس اليوم أو بعده بيوم ..

وبكثير من الحذر والخوف نفتح الباب وتكون إحدى خالاتى بملابسها السوداء والدموع فى عينيها ..

وتشير لى أمى أن أخرج الآن ، ولكن بشرط أن أبقى دائمًا أمام الباب ولا أكلم أحدًا من أولاد الجيران . إياك ـ تقولها محذرة مهددة ! .

وكان لى جار فى مثل سنى .. يرتدى القميص والبنطلون حتى فى الإجازة . وكنت أتصور أن البنطلون والقميص للمدرسة فقط .. وفى إحدى المرات دخلت الكرة إلى بيته .. فتسللت ورأيت إخوته جالسين كلهم بالبنطلون والقميص .. ولم يكن جارى هذا يفهم

لماذا أتحدث إليه همسًا .. ويسألنى عن السبب ولكن لا أستطيع أن أقول له أن أمى تمنعنى من الحديث مع أى أحد ..

وأحيانًا كنت أقول له . إن ماما نائمة مريضة ..

وفى اليوم التالى تجىء جارتنا لكى تطمئن على صحة والدتى .. وتفاجأ بأنها ليست مريضة ..

وتسألنى أمى فأقول لها : إن ابنها حاول أن يلعب معى فقلت له ماما مريضة وأنا لا أستطيع أن أتركها ..

ويظهر الامتنان على وجه أمى ..

ولم أكن أسأل أمى عن السبب فى ألا أتحدث أو ألعب مع الأطفال . ولكن رأيها أن كل الأطفال لا أدب لهم ولا أخلاق .. وأنهم يلعبون فى التراب .. وأنهم يمزقون ملابسهم ..

وعلى الرغم من أن جارتنا كانت حريصة على أن تزور أمى من حين إلى حين ، فإن أمى كانت تضيق بذلك .. وفى مرة وجدت أمى تقول لها . ابنى مؤدب .. وأنا لا أحب أن يلعب مع ابنك .. أنا قلت له ألا يلعب مع أحد .. وقد أمرنى أبوه بأن يظل الولد فى البيت لا يخرج منه لا ليلاً ولا نهارًا إلا للضرورة ..

وفى يوم عدت إلى البيت باكيًا .. ولما سألتنى أمى قلت لها : إن الأولاد أحاطوا بى وانهالوا ضربًا وهم يقولون يا ابن أمك .. وأنا لم أرد على أحد ..

وإذا ذهبت إلى السوق اشترى شيئًا . فتوجيهات أمى صريحة . لا تبص يمينًا أو شمالاً أو تكلم أحدًا . أو تتوقف لأى سبب ..

وكانت أمى تظل مشغولة طول الوقت فى الغسيل والطبخ وترتيب البيت وإطعام الطيور .. فلا يكاد يجىء الليل حتى تكون مرهقة تمامًا .. والنوم يجىء بسرعة بعد ذلك..

فليست الحيوانات المتوحشة هى مصدر الخوف ليلاً ، ولكن الناس نهارًا ..

ولم أفهم لماذا لا أتحدث إلى جار .. لماذا لا أزوره .. لماذا لا ألعب معه .. ولماذا لا أفتح الباب لأى أحد مهما كان السبب تافهًا ..

وكانت أمى إذا جاءنا ضيف تشير إلى أن أجلس فى صمت .. فأجلس لأسمع وأرى ولا

أتكلم . إلا إذا طلبت منى أن آتيها بكوب أو أفتح الباب .. وفى بعض الأحيان تطلب منى أن أجلس بعيدًا .. أو أن أجلس أمام الباب حتى تفرغ السيدات من الكلام الخاص بهن .. وفى كل مرة تقول وهى تبارك انسحابى فى صمت وطاعة : ربنا يحرسه زى البنت لا يرفع صوته ولا عينه..

وكنا ننتقل كثيرًا بين القرى والمدن ، والناس تتغير صورهم وأصواتهم وعلاقاتهم .. أو محاولاتهم أن تكون هناك علاقات ، ولكنهم جميعًا بعيدون جدًا .. لا ألمس أحدًا بيدى.. لا أصافحه .. لا أحاول أن أكون أقرب .. لا أحاول أن أجعل الجار زميلاً والزميل صديقًا ، والصديق عزيزًا أفرح حين اراه ، وأحزن حين أفارقه .. أبدًا .. لم يحدث شىء من كل ذلك.. فالمسافة بعيدة بينى وبين الناس ..

وكل الأطفال الذين عرفتهم عن بعد فى الشارع .. أو عن قرب فى المدارس يتحدثون عن البيت وبيت العائلة وعن الإخوة والخالات والعمات .. والعائلة.. والأفراح وأعياد الميلاد والذهاب إلى المقابر .. ولكنى لا أجد مناسبة لأن أقول كلامًا من مثل هذا .. أو حتى وجدتنى أقول : أبى .. أو عمى أو خالى أو خالتى .. ولا وجدت فى بيتنا كرة أو أية أداة من أدوات اللعب ..

سألت رجلاً اعتاد أن يجلس أمام بيتنا لأن بيته ملاصق لبيتنا . ما معنى وزير ؟

ـ قصدك خفير ؟

ـ لا .. وزير ...

ـ يا ابنى يبقى رجل عظيم جدًا ..

ـ طويل قوى .

ـ لا ليس ضروريًا ..

ـ سمين جدًا ..

ـ لا ..

ـ إذن ما معنى وزير ..

ـ واحد عنده بيت كبير .. وعنده فلوس كثيرة .. وعنده خدم فى البيت .. وكل يوم يأكل

فراخًا وبطًا وأوزًا .. وله عائلة كبيرة جدًا .. والنـاس عندما يرونه يقفـون له . وإذا أمر بشيء ، لابد أن ينفذ ..

ـ هل بابا وزير ؟

ـ لا .

ـ ولكنـه طويل وعريـض وكبير ويركب حصـانًا والناس يحبونـه ويصلون وراءه .. ويقول شعرًا وهـو طيب ويحب الناس .. ومامـا تريدنى أن أكـون وزيرًا .. ولا أدرى ما الذى أعمله ..

وضحك الرجـل وهو يمسح رأسى بيده ويقول . ربنـا كريم يا ابنى .. يعنـى الوزير كان أصله ماذا ؟ كلهم إناس عاديون .. وأحيانًا أقل .. ربنا يجعلك وزيرًا يا ولدى ! .

وسمعت صـوت أمى ينـادى من الـداخل . وأخـذت تلومنـى كيف أتحدث إلى رجـل غريبة.. رجل أكبر منى فى السن .. ونحن لا نعرفه ..

وإذا قدم لى أحد شيئًا فأننى لا أتناوله .. وإذا زرنا أحدًا وقدموا طعامًا ، فأننى أقول: عندنا فى البيت الطعام .. ومهما حاولوا فأننى لا أمد يدى إلا إذا ماما قالت لى .. ومن النادر أن تفعل . وكـانت فى بعض الأحيان تقـول : إنه حر .. فليـأكل وليشرب كما يريد فـأنا لا أمنعه ! .

وكنت لا أفعل .. فعيناها تقولان : لا ..

وفى كل مرة يجىء الطبيب إلى والدتى تقول له : أريده طبيبًا ..

وكان الطبيب يقول إن شاء الله ..

وتقول أمى سيكـون بالمرضى رحيمًا .. لأنه لا يطيق أن يرى أحـدًا مريضًـا دون أن يتأثر لـذلك .. وهو الذى يعمل الينسـون .. وهو الذى يضـع الماء على النـار .. وهو الذى يعطى الدواء .. وهو الذى يوقظنى لكى آخذ الـدواء فى موعده .. وهو الذى ينام فى فراشى إذا كنت مريضة ..

ويضحك الطبيب ويقول : ولكن الطبيب لا يستطيع أن يفعل ذلك مع كل المرضى ! .

وعندما يزورنا أحد أعمامى وكان استاذًا فى الأزهر . كان يجدنى اقرأ أى شىء .. أية

ورقة على الأرض أو لفافة .. كان يقول لوالدتى . يجب أن يذهب إلى الأزهر..

وكانت أمى دون مجاملة للرجل تقول · أعوذ بالله .. أبدًا ! .

ويندهش عمى لذلك فيقول لها : أنا أمامك محترم .

فترد وكأنها وجدت لـه عذرًا أنقذها من الحرج : يقـولون إنهم يصابون بـالعمى من كثرة القراءة فى الكتب ! .

ويضحك عمى لسذاجة أمى ويقول : بعضهم .. وأنا أمامك نظرى ستة على ستة ! .

ويسألنى عمى : عندك كم سنة الآن ؟

فأقول : أحد عشر عاما .

وأمى تقول · الأول فى المدرسة دائمًا ! .

ويسألنى : ماذا تقرأ الآن ؟

أقول : كتاب (أدب الدنيا والدين) .

فيرد عمى : ياه .. أنت مثل والدك تحب الحكايات والشعر ..

وتقول أمى · إنه قد حفظ القرآن الكريم ..

عمى سعيدًا : ماشاء الله .. الحمد لله .. ربنا يطرح فيك البركة يا ولدى ! .

وعندمـا كنت أجلس إلى جـوار والدى يسألنى عـن المدرسة والمدرسين ثم يســألنى . وماذا تريد أن تكون يا ولدى عندما تكبر ؟

فكنت أقول له : مثلك يا بابا ..

ـ لا .. لا .. يا ابنى ..

ـ لماذا ؟

ـ لا .. لا .. يا ولدى .. فعملى متعب جدًا .. فانا آخذ الأرض البور وازرعها.. عمل شاق جدًا .. ثـم إن أحدًا لا يقـدر هذا العـبء الثقيل .. لا .. لا ... أيـة وظيفة فى الـدنيا إلا هـذه الوظيفة ..

ـ لماذا ؟

ـ هـل تحب إذا كانت لك زوجـة وأولاد ، أن تكون دائمًا بعيدًا عنهم .. هـل تحب بعد

موتى أن تعمل بعيدًا عن ماما .. ولا تراها إلا مرة كل أسبوع ..

ـ ولماذا تموت يا بابا ..

ـ يا ابنــى كل الناس سوف تموت .. لا .. لا .. يجب أن تكون لك وظيفــة أفضل .. هذه الوظيفة تجىء بعد أن تكون تعلمت فى المدرسة وفى الجامعة ..

ـ لكى أكون وزيرًا ؟

ـ لتكون وزيرًا ..

ـ ولكن كيف يا بابا .. وبعد كم سنة ..

ـ بعد أن تتعلم وتتــوظف وتجتهد فى عملك .. هل رأيت لما نجحــت وكان ترتيبك الأول كيف كنت سعيدًا .

ـ لم أكن سعيدًا ..

ـ لم تفرح ؟

ـ لم أفرح ..

ـ والناس كلهم يقولون لك مبروك ..

ـ لم يقل أحد ..

ـ ماما قالت لك مبروك ..

ـ ماما نسيت لأنها مريضة وأنت لم تقل لى .

ـ مبروك يا حبيبى .. أنت عارف مدى حبى لك ..

ـ قل لى يا بابا لماذا نحن خائفون ؟

ـ من أى شىء ؟

ـ لا أعرف ..

ـ أنت خائف ؟

ـ نعم ..

ـ من أى شىء ؟

ـ من كل شىء ..

ـ أنت الآن خائف ؟

ـ نعم .

ـ من ماذا ؟

ـ من أن تسافر فلا تعود ..

ـ ولكننى أعود يا ولدى .

ـ من أن يأكلنى الذئب .

ـ الذئب ؟ أى ذئب ؟

ـ الذى يأكل الفراخ كل ليلة ..

ـ كل ليلة ؟

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ ماما ..

ـ وهل رأيت الذئب .

ـ لا .. ولكننى سمعته وهو يقتل الدجاج .. وكذلك الثعلب .. والثعبان .. والعرسة والعفاريت ..

ـ العفاريت ؟

ـ من قال لك ذلك .

ـ ماما .. إنها تعرف كل شىء .. وما تراه فى الفنجان صحيح .. هى التى قالت إنك سوف تجىء اليوم .. وسوف تكون معك أقفاص وصناديق .. وسوف يكون معك كلب صغير ..

ـ هى قالت ذلك ؟

ـ أى والله العظيم ..

ـ متى ؟

ـ من ثلاثة أيام .. وقالت لى عشرين مرة إننى سوف أكون وزيرًا .. ولن أكون طبيبًا .. ولا عمدة ولا مهندسًا .. ولن أكون فى الأزهر مثل عمى .. ولن أكون مثلك أبدًا ..

ـ هى التى قالت ذلك .

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ كل يوم وأمام كل الناس ..

فأمى سيدة عارفة بكل شىء . وهى قوية . فكل أخواتها يلجأن إليها ويسألنها . ويأخذن برأيها .. وكانت إذا غضبت مع واحد من اخوتها لا تذهب إليه .. بل هو الذى يجىء ويعتذر ويقبل رأسها .. إن واحدًا من اخوتها كان مريضًا . وقالوا إنه على وشك أن يموت . ويريد أن يراها . فكانت تقول : يأتى على نقالة إلى هنا ويعتذر أولاً ! .

وتساند خالى هذا على إخوته وجاء واعتذر ! .

وأخذنى والدى من يدى وقال لى : تعال معى نتفرج على هذه الأرض المزروعة قطنًا..

وكان أبى من حين إلى حين ينحنى على الأرض ويلتقط الأعشاب ويقلب فيها . ثم يرميها على الأرض .

ويشير لى أن احترس وأنا أعبر إحدى القنوات .. ويمد يده يقلب فى زهرات القطن وفى أوراقه .. وينظر إلى الورقة باهتمام .. ثم يخرج عدسة زجاجية من جيبه ليرى الدودة والفقس والحشرات الأخرى ..

ثم انطلق عيار نارى فسقطت على الأرض . أبى هو الذى كان يحمل بندقية .. ولم اتنبه إلى أنه انزلها من كتفه وأطلق النار .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها وأسمع عيارًا ناريًا .. ونظرت إلى والدى بخوف واحتراس .. ووجدت الدخان يخرج من فوهة البندقية . وقال والدى . لا تخف . تعال لكى أفرجك على الذئب ! .

لقد أطلق النار على أحد الذئاب فأرداه قتيلاً . وجعل يشرح لى الفرق بين الكلب والذئب. وكنت خائفًا . ولكن أبى هادئ الأعصاب .. وازددت تمسكًا بيده . وكلما نظرت إليه وجدته هادئًا . وبعض السعادة على وجهه .. ثم أشار إلى كل شجرة . وجلس وأسند ظهره إلى شجرة كبيرة وأسندت ظهرى إليه ..

ونمت . ووجدته ضاحكًا يقول : نوم العافية .. أنت نمت يا ولدى .. هل أخافك العيار النارى ؟

قلت : نعم .. ولكن معك لا أخاف يا بابا .

والتفت ناحيتى يقول : لحظة واحدة .. انتظرنى لحظة واحدة .

وبسرعة دخل حقل القطن .. ووجدت شيئًا يتلوى فى يده .. ولف هذا الشىء فى الهواء ورماه على الأرض .. ثم نادانى . وذهبت خائفًا . لقد أمسك ثعبانًا من ذيله .. وبسرعة لفه فى الهواء ثم هوى بـه على الأرض . ومات الثعبان .. وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أرى ثعبانًا .. وإن كنت سمعت عنه عشرات القصص ..

أما كيف كانت صورة والدى فى عينى .. فهو رجل طويل عريض قوى .. يقتل الذئب ويقتل الثعبان .. الذئب يطلق عليه النار ، والثعبان هو الذى ينطلق وراءه ..

يفعل كل ذلك ويظل هادئًا لطيفًا رقيقًا ..

وفى الطريق استوقفه رجل يتوكأ على عصا . وقال يا عم محمد .

والدى يقول نعم ..

ـ الصداع سوف يفلق رأسى نصفين .. ربنا يجعل فى أصابعك الشفا يا عم محمد ..

واقترب والدى من الرجل وراح يدعك جانبى الـرأس بأصابعه .. ثم يتمتم بشىء من القرآن الكريم . ثم يستخرج ورقة من جيبه ويكتب عليها .. ويطبقها ويعطيها للرجل .. وهو يقول له : بـاسم الشافى المعافى .. باسم بـركة قوله تعالى : ونجيناه مـن الغم وكذلك ننجى المؤمنين ...

وأبى أيضًا يشفى المرضى بفضل من الله وأسرار آياته الكريمة ..

وعند مـدخل البيت وجـدنا إناسًـا كثيرين .. وهـم يمسكون بطفل يبكـى ويتمرغ فى الأرض ..

الأب يقول : يـا عم محمد .. الولـد عليه عفريـت .. كاره يروح البيت .. وأمـه حتموت عليه.. يا عم محمد بركتك ساعدنا الله يساعدك على أيامك ..

ويقترب والدى من الطفل الذى استسلم تمامًا . واقترب والـدى وراح يلعب فى شعر الطفل . ثم يربت على خديه .. وينهضه ويحتضنه ويتمتم فى أذنيه .. ثم يمسح وجهه وهو حانـى الرأس يقـول : أعوذ بـالله من الشيطـان الرجيـم .. بسم الله الـرحمن الرحيـم ..

ورجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ونجيناك من الغم .. ونجيناك من الغم .. ورجعناك ونجيناك .. ببركة هذه الآية الكريمة .. اللهم أعده إلى أمه كما أعدت موسى عليه السلام ..

ونهض الطفل مع والديه ؟! .

والناس يقولون وكأنهم يهتفون ربنا يبارك فيك ويبارك لك يا عم محمد ...

تمنيت لو سألنى أحد من الأطفال من هو أبى .. تمنيت لو رأى كل الناس ما الذى فعله والدى الذى يؤذن للصلاة ويرتل القرآن الكريم ويحفظ الشعر.. وبأصابعه يخفف الصداع ويشفى المرضى ويعيد الأطفال إلى أمهاتهم .. ولو رأت أمى ذلك .. أتمنى لو أقول لها كل ما حدث .. آه لو رأت وسمعت ما رفعت صوتها على والدى فيسكت ولا يقول شيئًا . وإذا قال فكلمة أو كلمتان .. ويغيب بعدها أسبوعًا أو أسبوعين .. ولكن لابد أن أمى تعرف كل ذلك .. ومن يدرى لعله عالج والدها أو اخوتها أو أمها .. من يدرى . ولكن عندى رغبة قوية أن أقول لأمى كل الذى رأيت وأننى سعيد وفخور بكل ذلك..

وعندما جلست للطعام لم أمد يدى .. وإنما ظللت أتطلع إلى أبى ذلك الرجل الطيب العظيم .. وكلما سألنى : لماذا لا تأكل ؟

أقول : شبعان ..

ـ ولكنك لم تأكل ..

ـ شبعان .

فما الذى رأيته أشبعنى .. ملأ عينى وأذنى ومعدتى وعقلى .. مليان .. كلى مليان .. لقد ملأ أبى كل مشاعرى .

وتسألنى أمى فأقول لها : تعبان ..

ـ تعبان ؟

ـ ثم تنظر إلى والدى كيف انه لم يعالجنى ..

ويسألنى أبى : مالك يا حبيبى ..

ـ تعبان .

ويضع يده على جبهتى ويقول : فعلاً .. أنت سخن ..

وينهض أبى من الطعام . وانفرد بها فاقول لها : يا ماما .. بابا أطلق النار على الذئب.. مات الذئب .. وأمسك الثعبان فمات الثعبان .. وكل واحد شكا من الصداع شفاه .. وكل ولد هربان من المدرسة أعاده إلى المدرسة .. اليوم رأيت ذلك كله .. إنه أعظم رجل فى الدنيا.. أكبر من أى وزير ..

أمى : عندك زجاجة الخل على الرف (وتقول ذلك لوالدى) .

وجاء أبى واقترب منى ورحت أقبل يديه .. ثم ملابسه .. وأبكى ..

وصرخت أمى : إيه المياعة دى يا ولد .. خليك راجل .. قل له يعمل زى الرجالة ..الولد خرج معك مشوارًا واحدًا فرجع بالشكل ده .. ماذا عملت له .. ماذا قلت له .. كل الذى أبنيه فى أسبوع تهدمه فى ساعة .. مد يدك للطعام وإلا قلبت الطعام فوق دماغك !

ونكست رأسى ولم أشعر بيدى ولا شفتى ولا بالطعام ! .

٣

ـ ماما موجودة ؟

ـ . . .

ـ أنت لا ترد ؟ لماذا أنت زعلان على طول كده ..

ولم أكن زعلان . وإنما هو سؤال لا معنى له . فأمى موجودة دائمًا . ثم إن التى تسأل عنها لا تنتظر حتى أجيب .. وإنما تدخل وبسرعة تجد نفسها فى وجه أمى .. ويبدأ الكلام الذى لا ينتهى . بعضه أسمعه ولا أفهم موضوعه .. وبعضه همس .. والبعض الآخر يجب ألا أسمعه .. وبإشارة من يد أمى مع تكشيرة يكون معنى كل ذلك أن أخرج وأن أجلس أمام الباب ولا أبعد فقد تحتاجنى .. أو أبعد فأتحدث إلى بنات الجيران.. وكنت أحب ذلك .. وكان صمتى ووجهى فى الأرض هو الذى يغرى البنات بالكلام معى .. فهذا الصمت يغرى بالتحدث معى .. أو هو يغرى بالشعور بالأمان فأنا مختلف عن كل الأولاد .. أمى تقول ذلك وأنا حريص على هذا المعنى وهذا السلوك ـ أى انحناء الرأس مع الصمت ..

ـ يا صلاح ..

ـ نعم يا ماما ..

ثم تقول لى أى حاجة .. المهم أنها تتأكد من وجودى أمام الباب وحدى .

وكنت أتمنى أن تجىء جارتنا أم البنتين الجميلتين .. فالأم حلوة .. لها ابتسامة حلوة.. وعيناها جميلتان فيهما مودة وفيها دعوة لأن اقترب .. وكانت إذا تحدثت اقتربت منى

جدًا حتى تمنيت لو أنها احتضنتنى ولو مرة واحدة .. وكنت ألاحظ ماالذى تقول ابنتاها لها ، وفجأة أجد الأم تحتضن البنتين سعيدة بذلك .

سألتنى : ماما جوه ؟

ـ أيوه تفضلى حضرتك .. أهلاً وسهلاً ..

وكانت لجارتنا أم البنتين طريقة لطيفة فى الكلام . فهى تضحك أولاً .. وكأنها تهيئ من يستمع إليها إلى أنها سوف تحكى شيئًا فكاهياً .. فتقول · والله هم يضحك وهم يبكى.. أبو العيال قال إيه بعت جوابًا أمس يقول فيه لا تنتظرونى سوف أجىء يوم الخميس القادم .. وهل يظن أن أحدًا ينتظره .. إنه رجل مفقود على طول .. داهية لا ترجعه ! .

وبسرعة تبكى . وبسرعة تقول لها أمى : ولكن فنجانك يا سعدية حلو قوى .. طيب إيه رأيك إنه يمكن يجىء اليوم وليس يوم الخميس .. والله أنا شايفة واحد مثله طول بعرض وعصاه فى يده .. ووراءه واحد يحمل سلة كبيرة .

ـ بجد يا ست أم صلاح .. يا اختى تبقى لك الحلاوة ..

وفجأة تدخل إحدى بنتيها · يا ماما يا ماما .. بابا جه ! .

ـ أهى دى بقى مش معقولة يا ست أم صلاح .. باسم الله الرحمن الرحيم .. اللهم صلى عليك يا نبى ! .

وحاولت أن أرى هذا الزوج الذى تشكوه ليلاً ونهارًا .. وتضحك من نوادره وتبكى بسرعة وتتهامس مع أمى وأرى التكشيرة على وجهيهما فأخرج بسرعة أمام البيت ! .

وأصبحت لا أتنبه كثيرًا إلى من يدخل بيتنا من الأقارب والجارات .. هل أصبحت شيئًا مملاً . أو أن النوم كان يغلبنى وأنا جالس على الكرسى .. وهل هذا هو السبب فى أن جاراتنا يداعبننى داخلات خارجات .. هذه تمسكنى من أنفى .. وهذه من أذنى وهذه تقرصنى ..

وكانت تعجبنى السيدة عنايات .. إنها سمينة متوسطة القامة .. بيضاء ولها روائح غريبة تسبقها .. غريبة ولكنها لا تضايقنى .. وكانت تضع الغوايش الذهبية فى ذراعيها..

وفى عنقها عقد ذهبى .. وتلم شعرها فى منديل أحمر بنقط زرقاء .. وكانت لها شنة ورنة.. فعلاً تدخل بهيصة وتتكلم بصوت مرتفع ولا يمكن ألا يشعر بها أحد .. وأعتقد أن معظم جاراتنا يستمعن إليها .. فصوتها عال وواضح النبرة .. فهى قبل أن تدخل تدق الباب المفتوح وتقول : أين كنتم بالأمس .. انتظرناكم على العشاء ..

وهى لا تتوقع منى أى رد .. وتدخل .. وتسلم وتجلس وهى تقول : قلت أقابل الحبايب عندك .. مادام أنت كسلت أمس ..

تقول أمى . أبدًا والله أنا كنت تعبانة ..

ـ أنا قلت كده ..

ـ وأنت كيف حالك ؟

ـ حالى زفت بعيد عنك .. المنيل على عينه بعت لى الفلوس مع أخيه وعامل عيان عند الست الجديدة .. يقطعه ويقطعها .. أنا فى يوم من الأيام كنت جديدة .. وبكره هية كمان تطلع لها واحدة جديدة .. ما هو المنيل زى أبوه .. اتجوز أربع مرات ولا خمس مرات .. عينه فارغة .. والواد محروس ابنى امبارح سمعته يقول لأخته : لما أكبر حتجوز عشر مرات .. حيجيبه منين ؟ . زى أبوه وأبوه زى جده ؟ . قطيعة الجواز والخلفة والرجالة .. جات لك أم عليش الدلالة ..

ـ لا .. يمكن النهارده ..

والدلالة هذه هى أهم شخصية .. فهى سيدة لطيفة عندها حكايات من كل مكان تنقل ما تراه وما تسمعه من بيت إلى بيت .. وتقسم دائمًا أن الذى تراه سوف يبقى سرًا وأن الذى تسمعه سوف يبقى سرًا .. وعندما تجىء الدلالة انطلق أنا إلى جارتنا أم حسنين وجارتنا الست عنايات .. وجارتنا الست دولت .. وانهى إليهن الخبر السعيد بمجىء الدلالة الست حلاوتهم .. وحكايات وأخبار الدنيا أهم كثيرًا جدًا من الأقمشة والجلاليب والعقود والأقراط والشباشب التى تحملها على رأسها .. وتحملها ابنتها وراءها ..

وأنا أجد متعة فى حضور الدلالة فهى تحكى عن إناس لا أعرفهم . وأمى تنشغل تمامًا بهذه الحكايات فلا تنتبه إلى وجودى ..

وفى إحدى المرات سمعتها تسأل أمى . وبسلامتها إزيها دلوقت ..

وترد أمى مهمومة : والله ما أنا عارفة يا حلاوتهم .. قالوا لى عيانة وأمى تراها من حين إلى حين .. وأبوها لا يريدها أن تجىء لزيارتى .. وقلبى واجعنى عليها ..

ـ أنا زرتها امبارح .. بتسلم عليك وتبوسك من هنا ومن هنا .. وفرحت جدًا بالفستان الذى بعثت به .. وتشكرك .. ولما سألها أبوها عن مصدر الفستان قالت له : أمى هى التى اشترته .. فقال لها : أحرقيه بالجاز .. فقالت : أنا سأحرق نفسى قبل أن أحرق الفستان.. وأنت تعرفين ماذا حدث بعد ذلك .. ضربها بالقلم وألقى بها على الأرض ..

ـ يا حبيبتى يا بنتى .. قدر ومكتوب يا حلاوتهم .. وأنت فاكره إن بعدها عنى سهل .. والله دمعتى على خدى كل ليلة ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعرف منها أن لى أختًا غير شقيقة .. ولا أعرف كم تبلغ من العمر .. لابد أنها أكبر منى .. ولكن لا أمى ذكرتها ولا أحد من أقاربى .. وتمنيت أن أراها .. لى أخت .. كيف هى .. شكلها .. لونها .. لماذا لا تعيش معنا .. أراها وأتحدث إليها .. فكل الأطفال لهم اخوات بنات ..

وبعد أن سمعت الدلالة وهى تعرض بضائعها على أمى وصاحباتها هجمت عليها وأقول لها : أريد أن أرى أختى .. أريد أن يكون لى أخت ..

واندهشت السيدات .. ولكن أمى فى هدوء وارتياح قالت : سوف آتى بها هنا ياحبيبى.. غالى وطلبه رخيص ! خلاص إن شاء الله .. أنا عارفه انك سوف تحبها .. أنت طيب وهى طيبة يا ابنى .

وكل يوم أسأل أمى : هل هى شبهك يا ماما ..

ـ نعم .. ولكنها سمراء ..

ـ طويلة ؟

ـ أطول منك .

ـ وعيناها ..

ـ جميلتان .

ـ وشعرها ..

ـ طويل على كتفيها .. يا واد انت حتجوز أختك ..

ـ هل تحبنى يا ماما ؟

ـ سوف تحبك ..

ـ ولماذا لا تجىء .. أو لماذا لا أذهب إليها ..

ـ إذا جاء خالك .. فاذهب معه لتراها ..

وكان هذا أهم حدث فى حياتى فى ذلك الوقت .. لى أخت .. حلوة .. أطول منى وأكبر منى .. أنها أمى الصغيرة .. إنها صديقتى سوف أحكى لها .. وتحكى لى .. ونجلس معًا أمام الباب ونذهب معًا إلى المدرسة .. وسوف أنظر إليها بلا خوف .. وكل من يسألنى فإننى سوف أقول له : إنها أختى ..

ولى اخوة غير أشقاء .. ولكن لا أراهم كثيرًا .. ولا يدور بيننا حديث .. ولا أعرف لماذا لا يجيئون إلى بيتنا . ولا أعرف أين بيتهم . ولم أحاول أن أذهب إلى بيتهم . لا حاولت ولا دعانى أحد لذلك . وفى إحدى المرات لاحظت أمى اننى قد أمسكت بواحد من إخوتى فى طريقنا إلى بيته . ولكن أمى فى صوت رادع قوى : لا تذهب ! إياك أن تذهب ! .

ومعنى ذلك أن اخوتى يجب أن تظل علاقتى بهم هنا فى بيتنا . لا أبعد ولا أعمق .. زوار مثل كل الزوار .. زيارة وتنتهى العلاقة . ولكنهم اخوتى .. ولم أفهم لهذه العلاقة معنى . ولا حرصت على ذلك .. فهم مثل كل الناس الذين أراهم فى البلاد التى نتنقل إليها وننساهم عند سفرنا .. ولا أعرف لهم اسمًا ولا رسمًا ولا من الضرورى أن أشتاق إليهم.. أو آسف على تركهم .. إنهم إناس يمرون فى حياتى ، أو تمر بهم حياتى .. ويكون الدور نسيانًا سريعًا .. فلا صديق ولا جار ولا أخ ..

إلا أختى هذه فأنا الذى أريد أن أراها وأن تكون معى ..

أما أسعد الأيام فهى عندما تجىء خالتى « أم أحمد » .. وليس لها ابن اسمه أحمد .. وهى أجمل من رأيت فى كل حياتى قبل وبعد ذلك .. وأعمق من أحببت .. لقد كانت أمى فى حضور أمى وفى غيابها . وكنت أجد نفسى فى حضنها .. وأمام أمى أنام على ركبتها ..

وأمام أمى وكل النـاس أقبل يديها .. وأجلس ملاصقًا لها .. فتلـف ذراعيها وتقول : أنت ابنى ..

وأنا أقول لها : وأنت أمى ..

وتقول لى : أمال أمك دى تبقى إيه ..

فأقول لها : ولكن أنت أمى أكثر وأكثر ..

وتضحك خالتى وتقول : واحدة سكر شوية .. وواحدة سكر زيادة ..

كنت أرى وجه خالتى مستديرًا مضيئًا .. والله كان مضيئًا .. لا أعرف كيف .. والله لم يكن هـذا الذى يجرى تحت بشرتها إلا نارًا هادئة مضيئـة دافئة .. أما عيناهـا فسبحان الله.. واسعتان عسليتان .. ورمـوشها طويلة سوداء .. وهذه غمازة هنـا وواحدة هناك .. وحسنـة على الجانب الأيسر مـن وجهها .. وأذنـاهـا حمراوان .. وعنقها فى لـون بشرتها مضىء أيضًا ..

أما إذا غنت خـالتى فأجمل صوت .. فى صوتها بحـة انثوية .. وكلامها العـادى كأنه غناء أيضًا . وكنت أجد نفسى دون شعور منى أضع أذنى على صدرها أسمع صوتها .. الذى يخرج من أعماقها .. وكانت تضحك خالتى وتقول لى . الواد بيلعب فى بطنى ..

وتقول أمى : إن شاء الله ربنا يرزقك باللى يشرح قلبك ..

وكانت خالتى لا تنجب ..

ولم تكن سعيدة ..

وفى يوم سألتها : خالتى عندك أولاد ؟

ـ لا يا حبيبى .

ـ لماذا ؟

ـ حكمة ربنا .

ـ يعنى إيه .

ـ ربنا مش عاوز !

ـ ومش عاوز ليه ؟

ـ فيه حد يسأل ربنا .. دى حكمته ..

ـ مش فاهم ..

ـ ولا أنا يا حبيبى !

أمى تصرخ : أسكت . امش اطلع بره !

خالتى . لا .. لا يا شيخه وهوه قال حاجة غلط .. مهما كان عيل .. اقعد يا حبيبى .. أنت ابنى .. وأنا مبسوطة .. أنت مش عارف انى أحبك .

ـ عارف ..

ـ أكثر من أى حد فى الدنيا .

ـ وأنت كمان .. أنت أكثر من أى حد فى الدنيا .. أنا عاوز أعيش معاك يا خالتى ..

ـ ونسيب ماما ؟

ـ أزورها كل يوم ..

ـ تزورها ..

ـ يا خالتى أنا عاوز أتكلم معك .. أريد أن أتكلم .. وأن أسأل وأن أعرف .. ماما لا تريدنى أن أتكلم ولا أن أخرج ولا أن أتكلم مع أى أحد ..

ـ إنها تخاف عليك يا حبيبى .. الناس وحشين ..

ـ كل الناس ؟

ـ لا .. مش كل الناس .. لكن لأنك صغير فأنت لا تفرق بين الكويس والوحش .. عندما تكبر افعل ما يعجبك يا حبيبى .. ألست تحب ماما ..

ـ أحبها جدًا ..

ـ هل تتركها وحدها .. أنت رجل البيت فى غياب بابا ..

ـ طيب أعمل ايه إذا كنت عاوز ابقى معاك ومعاها ؟

ـ أسهل اننى أجىء لك كل يوم وأجلس معك لحد ما تزهق منى ؟

ـ بالليل يا خالتى إننى أنهض من نومى والدموع على خدى ولا أعرف السبب .. وفى أحلامى أجدنى كل ليلة ملقى فى بئر مظلمة والحبال التى تتدلى كلما أمسكتها تقطعت

وأصحو من نومى صارخًا .. كل يوم ..

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ..

وتنظر إلى أمى .. وأمى تهز رأسها بالموافقة على أن يبخرونى ويرقونى من عين رأت ولم تصل على النبى ..

وبسرعة توضع بعض الأخشاب فى علبة صفيح ويلقى عليها بعض الجاز وتضع خالتى البخور وتطلب منى أن أخطو سبع مرات فوق النار .. ثم تأخذنى فى حضنها وتقول لى : خلاص يا حبيبى .. ألف سلامة لك ! .

وتتردد أمى كثيرًا فى زيارة بنت خالة لها تسكن عند نهاية الشارع . ولكنها تستعد لهذه الزيارة بأن أرتدى جلبابًا نظيفًا جدًا . وجوربًا أبيض . وجزمة سوداء لامعة . وأمى ترتدى فستانًا جديدًا . وفى كل مرة تذهب لهذه الزيارة تقول لى هذا واجب يا ابنى .. وهذه سيدة كلامها كثير . أهى زيارة والسلام ..

وقبل أن تصعد السلم تقول دائمًا · أنت عارف أن عندها بنتين .. وبناتها من بنات اليومين دول .. وأنت يا ابنى مستقيم وطيب وتصلى وتخاف ربنا .. وحافظ القرآن وربنا يحميك .. والبنات دول يضحكون على عقول الشبان .. وأنا عارفه أن ربنا معاك .. فأنا أدعو لك ليلًا ونهارًا وربنا سوف يكرمنى بك ويعوضنى عن صبرى .. دروسك فقط ياابنى .. ولن ينفعك فى الدنيا كلها إلا عملك وإلا مركزك وأخلاقك وفلوسك .. وأنت أمامك طريق طويل يا ابنى . وإذا كان ربنا حفظك حتى الآن فلأنك لم تنشغل بأى شىء عن الكتب .. لا تنسْ يا ولدى .. إنهم أغنياء .. وممكن أولادهم يسقطوا سنة وعشرين .. ولكن أنت ياولدى يجب ألا تسقط فى الدراسة أبدًا .. أبدًا . وربنا معك ..

ولم أكن أفهم ماذا يمكن أن تعمله بنت إذا رأيتها أو إذا تكلمت معها .. لم أسمع واحدة تقول لى : لا داعى للمذاكره .. أو اترك الكتب .. أو اترك المدرسة .. لم تقل واحدة لماذا لا نلتقى .. إننى أتذكر كل ما تقوله الفتيات إذا جلست إليهن .. وأعيد كل ما قلن كلمة كلمة.. ولا أجد شيئًا يدعو إلى الخوف .. ولا أفهم مخاوف أمى ..

مرة واحدة لاحظت أمى إننى أحمل قرطاسًا من البلح الزغلول وسألتنى : لمن هذا ؟

فأشرت بيدى إلى الضيفة التى عندنا ..

قالت : ست انشراح ؟

قلت : نعم .

ـ وما الذى أتى به هنا ؟

ـ ابنتها أميرة تركته معى ثم ذهبت إلى البقال وسوف تعود بعد لحظات ..

ـ هذه آخر مرة .. لا تفعلها مرة أخرى ! .

ـ حاضر يا ماما ..

ولم أفهم ما هى الغلطة التى ارتكبتها وإن كنت وعدتها ألا أعود . ولكن أمى لا تريد أن تكون لى أية صلة بالبنات من أى نوع وفى أى وقت !

وقد لاحظت أن زملائى يتكلمون مع البنات ويضحكون . ويأكلون السندوتشات . ويقفون فى الشارع وأمام باب المدرسة .. وقد أقسمت لأمى أنى رأيت ابن عمى وهو جالس مع فتاة على عتبة بيتها هى ويتكلم معها .. بينما أمها لم تقل لها شيئا .. ولا أمه قالت له أى شىء .

ثم أتيت بالمصحف وأقسمت أننى لا أكذب . وقلت لها · والله العظيم والله العظيم .. والا أروح النار .. لقد أعطاها نصف السندوتش وأخذته وأكلته .. تصورى ! .

وكأننى لم أقل شيئاً . فاقتربت أمى وهى تقول : أنت شكل تانى يا ولدى .. هل تريد أن تغضب عليك أمك ! .

ـ لا .

ـ إذن ؟

ـ حاضر يا ماما ..

ـ يحضر لك الخير يا ابنى ! .

٤

عند أمى نوعان من الناس ..

الأقارب أسوأ الناس ..

والجيران أقل سوءا ..

ولكنها تفضل المسيحيات . لماذا ؟ لم أفهم ..

فإذا التقت بالست أم عزيز سألتها : لماذا لا تزورينا ؟

ويكون رد أمى سريعًا · إن شاء الله بكره ..

ـ تشرفى وتآنسى .. بناتى تحبك كثير قوى ..

ـ وأنا أيضًا .. حتى ابنى يحب بناتك .. ويقول عليهم .. أجمل بنات المنصورة ..

ـ هوه كمان مؤدب وإن شاء الله سوف يكون شيئًا هامًا يفرح قلبك ..

ـ يارب ياست أم عزيز ..

وبيت الست أم عزيز يبعد عنا ثلاثة شوارع .. يعنى بعيد إلى حد ما .. ولكن أمى حريصة على أن نذهب إلى الست أم عزيز .. وأحب شىء فى بيت الست أم عزيز أن عندها بلكونة كبيرة . ثم أن الست أم عزيز تفتح الفنجان والكوتشينة . وأمى تقول إنها تتنبأ بأشياء كثيرة مضبوطة .. وكانت الست أم عزيز تتقاضى أجرًا عن قراءة الفنجان . ولكن بعد أن مرض ابنها عزيز قررت أن يكون ذلك لوجه الله .. وألا تعمل على الاساءة إلى أحد .. ويقال إنها كانت تبيع « العملات » ـ بفتح العين والميم ـ وأن بعض هذه العملات كان تخرب البيوت وتفرق ما بين الازواج . ثم قررت بعد أن شفى ابنها عزيز أن تعمل الخير

فقط .. فلم يكن أحد يتوقع لابنها عزيز أى شفاء ولكنها زارت كل الأولياء وكل القديسين وذبحت وأشعلت الشموع .. وشفى ولدها عزيز..

وأمى كانت تصف الست أم عزيز بأن لسانها حلو .. كل كلامها حلو .

فأول لحظة دخولنا البيت تقول الست أم عزيز : خطوة عزيزة .. والله احنا فى سيرتك من أول امبارح .. وأنا وعزيز ابنى قررنا أن نزورك .. فقد جاءنا بلح من الصعيد يستاهل بقك .. وطلبت من مادلين بنتى إنها تزورك وتسأل عن صحتك ..

ـ أيوه قابلتها .. حلوة قوى .. ربنا يفك عقدتها .. جمال وكمال . أدى العرايس والا بلاش..

ـ من ذوقك ..

ـ والعذرا أنا لم أذق طعم البلح وقلت لازم نأكله سوا .. هات يا ألفت .. هات يامادلين.. امال صلاح فين ..

ـ قاعد مع حبايبه .. أنا لم أر ابنى يحب أحدًا قد مادلين وألفت .. ويقول لى · يا سلام يا ماما لو كانوا إخواتى ..

ـ إخواته .. وهو أعز عليهم من أخوهم عزيز .. زيه بالضبط .. ربنا يديم المعروف ..

ـ أنا مش عارفه بيتكلم فى ايه .. أنا شايفاه ما بيطلش كلام ..

ـ دى مادلين وألفت بيقولوا لى . يا ماما .. ده عنده حكايات ونكت .. وحاجات قرأها فى الكتب .. حاجات ما بتخلصش أبدًا .

ـ إبنى عنده حكايات .. وعنده نكت .. والله فى البيت لا يفتح فمه بكلمة .. ولكن لما بيجى هنا يبقى سعيد .. وعلى راحته .. ربنا يبسطه وربنا يسعدهم..

وتجىء مادلين ومعها سلة من بلح الزغلول .. وتسألها أمى : بيقول لكم إيه الواد الغلباوى ده ..

ـ والله يا طانط ده عنده حكايات ملفوفة فى خيط واحد .. أنا مش عارفة بيجيب الكلام منين .. يا بخت اللى حتتجوزه .. مش حتزهق منه أبدًا ..

ـ والله يا بنتى أنا مستغربة .. ده فى البيت ما بيفتح بقه بكلمة واحدة . غير : حاضر ياماما .. حاضر يا ماما ..

ـ منتهى الأدب يا طانط .. ربنا يحميه .. مفيش أولاد بالشكل ده دلوقت..

أما طـانط مارسيـل فهى التى تجىء بنفسـها وتسـأل إن كانت أمـى تريد شيئـًا من السوق .. وإذا جلست ، فإنها تخرج من حقيبتها علبة وفى هذه العلبة بن مخصوص فيه الحبهان والمستكة وأشياء أخرى لا أعرفها . وهى لا تشرب إلا هذا البن .. وهى التى تقوم وتضعه بنفسهـا .. وهى أرملة . وزوجها تـرك لها خمسة من الأولاد أصغـرهم زميلى فى المدرسة . وهو أسمر نحيف طويل . وأنا أكبر منه بستة شهور ـ طانط مارسيل هى التى تقول ـ وهو لا يشترى سندوتشات من الرجل الذى يقف أمام المدرسة . وإنما أمه تضع له السندوتشات فى البيـت ويأخذها معه .. سندوتش جبنة بيضـاء .. وسندوتش حلاوة طحينية .. وبعـد ذلك كان يحمل معـه سندوتشين من الجبنة وسنـدوتشين من الحلاوة الطحينية ويقـول لى . ماما عملـت لك دول .. هى التـى عملتهم وطبعًا أنـت تحب عمايل ماما.. تفضل .

كل يوم . وإذا لم يجدنى فإنه يمر ببيتنا ويترك لى السندوتشين وهو يقول · إذا عدت بهما إلى البيت فإن مامى سوف تفضحنى وتبهدلنى .. أرجوك !

وكانت أمى تقول : لا تكسف أخوك .. متشكرين يا حبيبى سلم على ماما..

ـ وهى كمان بتسلم عليك يا طانط ..

ـ إزاى الست حنونة ..

ـ الحمد لله يا طانط .

ـ سلم عليها يا حبيبى وقل لها ألف سلامة .. وإن شاء الله حازورها بكره ولا بعده ..

ـ يوصل يا طانط ..

ـ أخرج معاه يا ابنى لحد الباب واشكره ..

أما صـاحب البيـت الذى نسكنه فهـو مدرس اللغة الإنجليـزية فى المدرسـة وزوجته اسمها مدام بركات .. والناس يقولون إنها يهودية ..

يعنى إيه يهودية ؟ يعنى إيه مسيحى ؟ لا أعرف .. ولكن هم أناس مختلفون . فى ماذا؟

لا أعرف .. إنهم لا يـذهبون إلى المســاجد وإنما يترددون على الكنـائس .. ليسوا مسلمين لكن ما هو الفرق ؟ لا أعرف . ولكن هناك شيء غريب يظهر على وجوه الناس وفى كلامهم كلما تحدثوا عـن واحد مسيحى أو واحـد يهودى .. هل هـو نوع من الاستغـراب .. من الاستنكار .. مـن التعالى .. من الخوف .. من الكـراهية .. لا أفهم . وأمى لا تقـول . ولكن ألاحظ أنها تستريح إلى هذه الناس التى تختلف عنا .. تختلف والسلام ..

أما زوجة صاحب البيـت فالناس ينادونها : مدام بركات .. وقد عـرفت فيما بعد ذلك بوقت طويـل أن اسمها مدام بوركهارت.. وهى يهودية ألمانيـة .. جاءت إلى المنصورة مع إبنهـا سام.. ســامـى.. ابنهـا الوحيـد .. واشترت هـذا البيـت.. وزوجها مـدرس اللغـة الإنجليزية.. وهى تسكن الدور العلوى .. ولم يحدث أن ذهبت إليها .. فزوجها مدرس فى غايـة القسوة والعنف. ثم إنـه صاحب البيـت.. وفى كل مرة أذهب إليـه بالايجار ثمانين قرشًـا فإننى أضعه بسرعة فى يد ابن مدام بركات أمام باب البيت فى الشـارع .. فأنا انتظره حتى يجىء ولا أصعـد إلى الدور العلـوى ، خوفًا مـن رؤية هـذا المدرس المكفهر الـوجه دائمًا .

وفى يوم مرضت أمى . وجاءت مدام بركـات تزورها . وطلبت أمى أن أصنع لها قهوة سـادة .. وقـدمت لها القهوة . وطلبـت منى أن أجلس إلى جـوارها لأنها تريـد أن تتحدث معى.. ورأيتهـا لأول مرة بعد أن سمعت كـلامًا كثيرًا عنها وعـن حكاياتها .. عن كـرمها وأدبها ومساعدتها للمرضى والفقراء وزيارتها لكل مريضـة .. وكانت لغتها العربية فيها لهجة مختلفة .. حتى مشيتها مـختلفة .. فهى طويلـة عريضـة شديدة البياض . وشـعرها أسـود . وعيناهـا سودوان ووجنتـاهـا حمراوان ورقبتها ممـدودة . وإذا جلست كـان صـدرها عـاليًا . وطريقتها فى الكلام واثقة آمـرة . ولكنها فى غاية الرقـة . ومجاملة جدًا . قالت لى . أنـا سوف أعطيك دواء لماما .. وأنا سـوف أعلمك كيف تذيبـه فى الماء الدافئ وكم مرة فى اليوم وبعد الأكل . لقد جربته وأعطيته لابنى سامى وشفى فورًا . تعال معى ! .

ونظرت إلى أمى فقالت : روح مع مدام بركات يا حبيبى ..

وسبقتنى مدام بركات على السلم . ووجدت زوجها أمامها .. ونزلت من السلم . وهى

بسرعة تنبهت إلى ذلك فراحت تضحك وتقول . يـا ابراهيم أن الولد يخاف منك .. تعال يا حبيبى لا تخف .. تعال ..

ونزلـت وأمسكت يدى .. وهى تقـول : مش تتعرف على ابنـى سامى .. إنه يـريد أن يكون له صديق مثلك .. مؤدب ويحب القراءة .. إن سامى سيكون سعيدًا جدًا لرؤيتك .. تعال ..

أول شىء رأيته فى الشقة إنها ملآنة .. فيها أشياء كثيرة جدًا ملآنة بالمقاعد والمناضد والدواليـب .. والأرض مغطاة بالسجـاجيد .. وعلى الجدران صـور .. وفى الأركان ورد .. والجدران بيضـاء .. كل شـىء مضـىء .. ولا أعرف مصـدر النـور .. وفى البيت رائحـة غريبة.. لم أعرفها من قبل ..

وسمعتها تنادى : يا سام .. تعال .

وقالت وهى ضاحكة · وهذا هو ابنـى . وهذا هو صلاح .. يجب أن تجلسا معاً .. فهو يقرأ مثلك .. وهو مؤدب .. أخرجا معًا وتفسحا .. واذهبا إلى المكتبة .. دقيقة واحدة ..

ودخلت . ووقفـت أنا وسامى وكـان هو أول من تكلـم فسألنى : هل قـرأت قصص أندرسن ..

ـ لا ..

ـ هل قرأت كليلة ودمنة ؟

ـ نعم ..

ـ هل تعرف قصةأليس فى بلاد العجائب ..

ـ نعم .

ـ وأنت هل تحفظ شعرًا ؟

ـ القليل بالإنجليزية والفرنسية والألمانية ..

ـ كل الشعر الذى أحفظه بالعربية فقط ..

ـ أنا أحفظ القليل بالعربية ..

ـ هل قرأت كتاب أدب الدنيا والدين ..

ـ لا .

ـ هل قرأت قصيدة (البرده) .

ـ لا .

ـ أنا أحفظها كاملة .. هل قرأت قصة زينات .

ـ لا ..

ـ هل قرأت (الحب والدسيسة) للشاعر الألمانى شيلر ..

ـ لا .. أنا سوف أريك ما عندى من كتب وأنت ترينى ما عندك من كتب .. وإذا أردت أن تتعلم اللغة الألمانية أو الإيطالية فأنا سوف أدلك على من يعلمك ؟

ـ أتمنى .

ـ غدًا نذهب معًا ..

وكان سام هذا هو أول طفل قريب من سنى أندهش له وأعجب به .. فهو يعرف عدة لغات . وهو يقرأ بها .. وعنده مكتبة كبيرة . وعنده حكايات وقصص ونوادر .. وهو نظيف الملابس .. دائمًا ملابسه نظيفة .. وإذا تحدث عن أمه قال مامى .. ويقول حضرتها .. وأمى الحبيبة .. وحبيبتى ..

وإذا اشترى شيئًا فإنه يقاسمنى .. وقبل أن يشترى أى شىء يسألنى إذا كنت أريد نفس الشىء أو شيئًا آخر .. وفى كل مرة أرفض فإنه يصر على أن يعطينى مما يشترى . ويرى انه عيب جدًا أن أرفض ..

ودهشتى لا تنتهى من هذه النوعية الغريبة من الناس ..

وفى يوم ذهبنا إلى محل حمص ولب .. واشترى قرطاسًا من اللب ثم قرطاسًا من الحمص وأعطانى .. ثم اشترى قرطاسًا من السودانى بالسكر وقال هذا لطانط .. فقد لاحظت انها تحبه عندما كانت فى زيارتنا من أسبوع ! .

شىء غريب عجيب . وسلوك غير مألوف . وهو يفعل ذلك بلا تكلف .. وإنما يرى أن هذا عادى جدًا ..

فى يوم سألته بعد أن أصبحنا أصدقاء قل لى أنت عندما تصلى تذهب إلى الكنيسة أيضًا ..

ـ لا .. لنا معبد خاص . وإذا أردت أن تجيء معى ؛ فليكن ذلك غدًا عند الفجر .. استأذن من طانط ..

وذهبنا معًا .. إنه مختلف عن الكنيسة .. ولكن لم أفهم ما هو الفرق بين هذا وذاك .. ولا بين المسيحيين واليهود .. ولماذا هناك فرق ؟ ولم ألاحظ أن هناك فرقًا فى أى شىء ..

وفى مرة قلت لإحدى خالاتى · أن صديقى عزيز .

قالت : نصرانى ؟

قلت : نعم .

قالت : أعوذ بالله ؟

واندهشت لذلك .. فقلت لها : ولكن عزيز مؤدب ولطيف ومجامل جدًا . وأمه تحبنا وماما تحبها .. وبناتها فى غاية الجمال والأدب ..

خالتى وأنت مالك ؟

ـ مش فاهم .. عندهم كتب وعندهم اسطوانات ..

ـ لما تكبر سوف تفهم ! .

وأذكر اننى قلت لخالى وهو رجل ظريف وسيم وابن نكتة : إن لى صديقًا فى هذا البيت اسمه سامى .. وأمه مدام بركات .. وهى يهودية .

ـ يهودية مرة واحدة .. يعنى من قلة المسلمين ..

ـ مش فاهم .

ـ وده بقى شكله إيه ؟

ـ شكله نظيف .. وكلامه حلو .. وبيقرأ كتبًا كثيرة وبيتكلم سبع لغات .. وأنا أحبه وماما تحب أمه ..

ـ إيه الكلام الفارغ ده يا ولد .

ـ ليه يا خالى ! .

ـ يهودى ؟

ـ أيوه . يعنى إيه .. إنه أول واحد قلت له أن لى أختًا غير شقيقة وأننى أحبها جدًا ..

ـ حد يعاشر الناس دول ؟! .

ـ ليه ..

ـ أنت حتقعد تسألنى ليه .. ليه .. آهو كده وخلاص ! .

وذهبت من فورى ودفعت باب سام وقلت له : سام أنا عاوز أقعد معاك.

ـ أنت ابن حلال .. أنا كنت سأناديك .. ماما سافرت .. وتركت كمية من الطعام .. ولا أعرف أن آكل وحدى .. الحمد لله اللى أنت جيت .. قل لى بقى قرأت إيه أخيرًا .

وظللنا نتناقش فى الكتب . وأراه وهو يتكلم وهو يأكل وهو يشرب .. وهو يقدم لى الطعام .. وبعد ذلك الفوطة والصابونة . ثم الشاى .. ويأتى بعدد من الكتب .. ولا أرى أية غرابة فى سلوكه .. إنسان طبيعى .. فى غاية الرقة .. ودود .. ولا يريد إلا أن يكون صديقًا وأنا أيضًا ! .

أما صديقى عزيز فقد ورث صناعة والده فهو يصلح الساعات والمنبهات .. وفى يوم عرض أمامى عددًا من المنبهات وكيف فكها وأصلحها .. ثم أعطانى منبهًا . وأقسم بالمسيح وحياة طانط ألا يأخذ مليمًا .. لأن هذا المنبه جاءه .. ببلاش ..

ونظرت إلى عزيز .. له عينان وشفتان وخمسة أصابع فى كل يد .. ويتكلم العربية .. وأمه جذابة .. وأخواته جميلات .. وبيته مفتوح فى أى وقت .. ويرحب بى ويصافحنى ويسأل عن صحة أمى جادًا صادقًا .. ولا أجد فى سلوكه أى شىء شاذ يبعث على الشك أو الخوف أو يدعو إلى الاحتراس والابتعاد ! .

لا خلاف لا اختلاف بين كل الناس من كل لون ودين .. ولكن لماذا اناس مستعدون دائمًا لوضع فواصل وهمية ومخاوف مزيفة لتمزيق العلاقات الإنسانية .. لماذا ؟ لم أعرف..

وعندما رآنى واحد من أعمامى أننى أجلس فى إحدى الحدائق مع سامى وعزيز فقلت له : سامى بوركهارت يهودى .. وعزيز قلدس مسيحى .

انزعج عمى قائلاً : ما هذا ؟ واحد يهودى وواحد قبطى ؟! وأنت إيه درزى ؟ هذا هو السبب فى أن ابن عمك يهرب منك .. لأنك ملموم على شوية كفرة ..

قلت لـه : ولكن ابن عمى هـذا يشتم أمه .. أنـا رأيته يلقى بالطعـام فى وجهها !.. والله العظيم يا عمى أنا رأيته بعينى .. وهو يعاكس البنات .. وهو لا يحب الكتب ..

ـ من الذى قال لك ذلك ؟

ـ هو الذى قال ..

ـ إنه كذاب .. هو الذى قال لك إنه يشتم أمه ..

ـ لا أنا سمعته .. ولم يخجل من ذلك ولا اعتذر لها .

ـ يا سلام .. يا واد يا مؤدب أنت ؟ وأنت لا تتخانق مع أمك .

ـ لا ..

ـ وإذا ضربتك ؟

ـ حتى إذا ضربتنى ..

ـ والكفرة دول همه اللى علموك الأدب ؟ ! إياك أشوفك معاهم مرة ثانية !.

وانصرف سامى وعزيز ..

واعتذرت لهما عن الذى حدث .. ووجدتنى فى حاجة إلى أن أؤكد صداقتى لهما .. وكانا أعز الأصدقاء ..

٥

قرأت رواية مترجمة إلى العربيـة عنوانها « أيام فى قريتى » .. ولا أذكر اسـم مؤلفها . واعتقد أنه كاتب فرنسى ..

وأما الاكتشاف الذى وجدته فى هذه الرواية فهو أن إحدى شخصياتها كانت تنظر من ثقب الباب على خادمة تستحم .. وكان ذلك حدثًا مثيرًا جدًا .. قرأت الصفحة مرة ومرة .. واندهشـت كيف أن أحـدًا قد اهتـدى إلى هذه الحيلـة لكى يـرى فتاة فى العشريـن تخلع ملابسها وتنظر إلى نفسها فى المرآة وتدور .. وترى نفسـها من الأمام ومن الخلف.. وكيف انها تتحسس جسمهـا بيديها . بيديها وكيف انها تلـم شعرها . ثـم تنشره على وجهها وعلى كتفيها .. وكيف تـرتدى ملابسها ثم تخلعهـا .. وتبدل ملابسها وفى كـل مرة تقف أمام المرآة .. وكيف تضع وردة فى شعرها ثم فى شفتيها .. ثم فى صدرها .. ثم كيف تقبل كتفها هذه وكتفها تلك .. ثم تقبل ذراعيها .. ثم تداعب نهديها.. ثم تستدير لترى ظهرها . ثم تتمدد على الأرض وتتقلب يمينًا وشمالاً .. ثم تنام على ظهرها .. ثم على وجهها ..

لا أعرف كم مـرة قرأت هذه الصفحات .. وكـم مرة تخيلت .. ثم أخفيـت هذا الكتاب وكتبًا أخرى فى مكان بعيد .. لكى أعود إليها وأقرأ .. ولا أذكر أننى حدثت أحدًا عن ذلك .. وعلى الـرغم مـن أن أمـى لم تكن تعـرف القراءة ، فـإننـى ما كنـت أقـرأ هذا الكتـاب فى حضورها..

واكتشفت أننى أيضًـا كنت أفعل شيئًا من مثل ذلك دون أن أدرى .. فكنت أجلس أمام البيت لأرى الفتيات وهـن يغسلن الملابس فى الطشت .. وكانت الفتـاة تضع الطشت بين ساقين منفرجتين .. عاريتين أيضًـا ..

وعرفت لماذا كان الشباب فى القرية يجلسون عند الترعة .. ليشاهدوا أجمل استعراض للسيقان فى القرية .. كل يوم عند العصر أو قبل الغروب .. فالفتيات كلهن يذهبن يغسلن الأوعية فى الترعة .. ويملأن البلاليص من الطلمبة .. وكانت الفتيات يعرفن أن الشباب كله فى انتظارهن هناك .. فكانت الفتاة وهى عائدة إلى البيت تحرص على أن ترفع طرف ثوبها.. ليظهر ثوب أحمر أو وردى أو أبيض ومن تحته يظهر جانب من الساق .. أما الصدر فقد كان مركز العيون كلها .. فالفتاة فى الريف لم تكن قد عرفت السوتيان .. فصدرها رجراج بارز .. وكانت الفتيات يتعمدن إسقاط ماء البلاص على الصدر .. فيلتصق الثوب بالصدر ويبرز النهدان أكثر وأجمل ويهتزان مع كل خطوة .. أما البلاص فكان فوق الرأس .. وكانت الفتاة تتعمد أن تضع شيئًا مستديرًا من القماش على الرأس .. وأن يتدلى هذا القماش قليلاً على العين .. وبذلك ترانا الفتاة دون أن يبدو أنها ترى العيون التى تأكلها منذ غادرت الماء ..ثم تتعثر وتفتعل أنها كادت تسقط وأنها لذلك صرخت لكى يلتفت إليها الشبان أكثر .. وبعض الفتيات أشد جراءة وأبرع حيلة .. فهى تأتى فى يديها ببعض الحلل .. ثم تريد من يساعدها على رفع البلاص .. وهنا يتسابق الشبان .. ولكنها طبعًا تقصد واحدًا لتقول له كلمة أو يقول لها .. وكان بعض الشبان يعرفون ذلك .. فيطلبون فلانًا أن يذهب بسرعة لأنها لا تريد سواه ..

وكانت هناك حكايات عن فتيات ينزلن إلى النيل بالملابس كاملة .. وكانت الجلاليب تلتصق بالجسم كله .. فيبدو كل شىء .. وتقف الفتيات فى مواجهة الجميع تعرض الساقين والنهدين والردفين وجدائل الشعر الطويل .. وكان الشبان يجلسون بعيدًا وراء الأشجار يرون ذلك .. والفتيات يتظاهرن بأن أحداً لا يراهن وأنهن لا يرين أحدًا!.

وعرفت أننى عندما كنت أذهب لانتظار صديقى عزيز عند الكنيسة .. لم يكن ذلك إلا لكى أرى هذا العدد الكبير من الفتيات داخلات خارجات .. وكان يعجبنى أكثر دخول الفتيات إلى الكنيسة .. على الوجوه مسحة هدوء وحزن وضعف .. وقد انحنت الرءوس إلى الأم .. تمامًا كما يعجبنى منظر الفتيات وهن مقبلات على حلبة الرقص .. نفس الاهتمام والجدية والخفة .

مرة واحدة رأيت حفلة راقصة .. وكان ذلك من بين أشجار إحدى الحدائق . وبسرعة جاء واحد وقال : تعال .. ادخل تفرج .. أنا أعرف إنك صاحب عزيز وشقيق ! .

وخجلت . ودخلت ..

* * *

وكانت الصفحة الأخيرة من جريدة « الأهرام » بها صور لفتيات كثيرات .. ورأيت أغلفة كتب « روايات الجيب » عليها صور وصدور وسيقان ..

وقطعت الصور واحتفظت بها ..

وفهمت لماذا قبل ذلك بسنوات كنت أترك بيتنا مبكرًا وأذهب إلى جار لنا كان ينام أمام البيت فى الصيف .. وكانت زوجته تنام إلى جواره أيضًا .. هو ينام مكومًا بالقرب من الحائط وهى تحتضن أحد أطفالها .. وقد تعرت إحدى ساقيها . وأحيانًا الساقان .. وأظل جالسًا إلى جوارهما حتى يصحو ويقول لى : أهلاً . هذا موعد الشاى بالنعناع .. صباح الخير .

بعدها نصلى معًا .. الله يفتح عليك ..

بالصدفة وجدت كتابًا عنوانه (الحكايات اليومية معناها ودلالتها الخطيرة) ـ أظن هذا هو العنوان .. وهو مترجم أيضًا .. بقلم عباس افندى دمشقية .. ولم أفهم الكثير من تراكيبه الشامية . ولكن القليل الذى فهمته قد هزنى بعنف . فتح عينى على الآخر .. فتحهما على أعماقى .. ثم اعتدت أن أقلب فى أعماقى .. وأن أنكش وأن أخربشها وأن استخرجها وأعيد النظر فيها .. وقد فتحت على نفسى فتحة لم أفلح فى سدها أو تضيقها.. وهى عادة سيئة جدًا أن أتأمل كل تصرفاتى وأن أتفهمها .. وأن أفعل ذلك مع الآخرين .. وكنت أبالغ فى تفسير كل شىء ..

ففى الكتاب أن قص الأصابع والتدخين نوع من استمرار الرضاعة .. وأن الغرض من الأحمر والأبيض عند المرأة هو لفت نظر الرجل .. وأن هذا المعنى جنسى . وأن الحيوانات تفعل ذلك أيضًا .. فالديك له ألوان فى رأسه وحول رقبته .. وكل الذكور أجمل من الإناث..

والغرض مــن هذه الألوان واستعراضهــا هو جذب الأنثى .. وكـذلك الإنسان .. فالـرجل يتأنق فى مـلابسه ويسوى شعره وشاربـه ويتألق فى كلامه فى حضــور المرأة .. كل ذلك لكى يجذبها .. فهذا هو نداء الجنس للجنس ..

ويقول الكتـاب إذا وجدت واحدة تسـأل واحدة أخرى عـن رجل فإنها تقـول : طول بعرض .. وشعر ناعم وشنب .. وهدومه نظيفة .. وجزمته لامعة وأصابع مسحوبة ..

فلم تقـل شيئًا واحدًا عن أفكـاره أو ثقافته .. وإنما فقـط عن منظره وأناقتـه.. كأنها دجاجة تصف ديكًا لدجاجة أخرى ..

وفى الكتاب أيضًـا أن الملابس لم يخترعها الإنسـان لـوقايته مـن البرد وإنما اخترعها أيضًا لكـى تبرز تفاصيل جسمه .. المرأة تختـار الملابس (المحزقة) .. الملابـس المكسمة لكى تبرز نهديها وردفيها وصدرها وساقيها .. ولا فرق بين الرجل إذا راح يخطب امرأة ، وبينه وهو ذاهب لشراء ذبيحة .. فإنه يقلب فى البقـرة وفى الجاموسة ليتأكد من سلامتها وصحتها ولحمها وشحمها .

وكذلك الـرجل إذا ذهب يتزوج فليس فى استطـاعته أن يفعل كل ذلـك .. ولكنه يسـأل أخته أن تـدله على صفاتها .. ثم يبعـث بأمه تحتضــن العروس لتعرف إن كان صــدرها مشدودًا .. وإن كانت لها أرادف مستـديرة وإن كان خصرها نحيلاً وإن كانـت ساقاها جميلتين متباعـدتين من تحت أو ملتصقتين من أعلى .. وإن كـان شعرها طبيعيـًا وليس باروكة .. وإن كـانت أسنانها سليمة فالأم تعطيهـا عود قصب لتمصه أمامهـا .. وتتأكد كذلك من سلامة عينيها وأذنيها . ثم تتلمس ذراعيها وساقيها وظهرها .. وكل ذلك تنقله إلى العريس وتقول له · عرفت تنقى يا عريس .. مبروك عليك ! .

ولم يكن ذهابى إلى المقابر إلا لكى أرى بعض الفتيات يتمرغن من الحزن على الأرض.. ويلطمن خدودهن .. ويبكين .. وبعـد ذلك يهدأن تمامًا .. ويأكلن ويشربن وكـأن العويل واللطـم والسقوط على الأرض قـد أراح أعصابهن تمامـًا فـزاد وجوهــن جمالاً ـ شــىء عجيب!.

وكنت أرافق أمى وخـالاتى فى زيارة واحدة شيخة مبروكة اسمهـا الحاجة « أمر الله».

هذه السيدة تقيم عادة عند أطراف المدينة وأحيانًا فى ضيافة بعض الناس .. غالبًا الأغنياء أو بيت العمدة .. وتجىء إليها السيدات من كل مكـان يحملن إليها السكر الناعم والسكر الخشن وماء الورد .. ويطلبن منها البركة ..

هذه تقول لها : ظهرى يوجعنى يا حاجة ! .

وتمتد يد الحاجة إلى ظهرها .. وتتحسسه ثم تقرصها .. وتضحك الاثنتان وتقول لها. يابت ما تبقيش بعيدة عن جوزك كثيرًا ! .

فتضحك الأخرى وتقول لها : يا حاجة بعيد عنك زى الثور ! .

وتجىء واحدة وتقدم لها واحدًا من أطفالها . وتقـول الحاجة . اسم الله عليه .. ماله .. عاوز يتغذى الخير كتير .. إعملى لـه الفطير بالسمنة والعسل والقشطـة .. اهرسيهما مع بعض وخليه يأكله بصوابعه ..

وتقول أم الطفل : غلبنا يا حاجة .. مش راضى يأكل ياحاجة .. تعبت معاه ..

ـ هاتيه .. قربيه شوية .. تعال يا واد أنت .. حقيقى مسعد .. وبكره تقولى الحاجة أول واحدة شافت لك ده ..

وتضع الحاجة قطعة من السكر فى فمها .. ثم تحشرها بين شفتى الطفل ..

وتلتفت الحاجة إلى أم الطفل · وأنت يا بت إيه الحلاوة دى .. تعالى يا بت هاتى بوسة..

ـ باستك العافية يا حاجة ..

ـ خلينى أشوفك ..

وتدخل أمى وتسلم على الحاجة وتبوس يدها .. وتقول لها الحاجة : خير إن شاء الله..

ـ خير يا حاجة .. ابنى ده

ـ ماله ..

ـ والله ما أنا عارفـه يا حاجة . يقوم من النوم مفزوع .. كـل ليلة ويصرخ.. وكل يوم أخده فى حضنى وأغطى رأسه باللحاف والبطانية .. ويقوم يرفع كل ده ويعيط . ويقول هاتوا لى أختى .. هاتوا لى بابا ..

ولم أكن أعرف ذلك .. ولا أمى قالت لى أن هذا يحدث كل ليلة ..

سألتها الحاجة : من إمتى ؟

ـ من سنوات ..

ـ أبوه بسلامته فين ..

ـ مسافر ..

ـ والمسافر لا يعود ؟ .

ـ يعود مرة أو مرتين فى الاسبوع ..

ـ وأخته فين ؟

ـ أخته فى بيت أبوهـا .. وأبوها رجل شرانى .. عارف الولد بيحبهـا ولكن لا يوافق على أن تجىء إليه خوفًا من أن أحتفظ بها .. وهوه لا يحبها ولكنه رجل عنيد ..

والتفتت الحاجة ناحيتى وقالت لى : تعال يا شاطر .. اللهم صلى على النبى .. النور فى وجهك يا ابنى بكره تقول الحاجة قالت .. الواد ده خدى بالك منه ..

ـ اسمه أنيس واحنا بندلعه ونقول يا صلاح ..

ـ وهـوه أنيس .. وإن شـاء ربى حيصلـح حالـه .. ويصلح حـالك . ولى الحلاوة .. حيكون أكبر من العمدة .. وأكبر من المأمور ..

ـ وزير يعنى ..

ـ إن شاء الله .. تعال .. قرب يا ابنى ..

وراحت تمسح على رأسى وعلى رقبتى وعلى صدرى .. وعلى وجهى .. ووضعت يديها على عينى .. ثم راحت تنفخ فى عينى ..

وسمعت أمى بعد ذلك تقول لخالاتى وأقاربنا إننى منذ زيارة الحاجة لم أعد أقفز من نومـى مذعورًا .. ولم أعـد أصرخ أنادى أبى وأختى . وأن الحاجـة « أمر الله » بركـة من بركات الله ..

وكنت أجىء إلى الحاجة مـع خالتى الصغيرة وهى شابة تكبرنى بقليـل .. وكانت هى الأخرى ترافق عددًا من قريباتها وصـديقاتها .. وكانت الحاجة تقول لهن لابد أن تغسل سيقانهن بماء الورد المبارك ـ أى الذى باركته هى .. فهذا يعجل بالزواج .. وكانت تجعل

للفتيات غرفة خاصة .. وكنت أحشر نفسى مع الفتيات لكى أرى .. وكانت الحاجة تقول . اطلع يا واد أنت يا أبو عيون تندب فيها رصاصة ..

وكانت خالتى تقول · حرام عليكِ يا حاجة .. ده شيخ .. وحافظ القرآن ..

ـ وهوه يعنى القرآن يمنع المشايخ من الشقاوة .. خليه يا اختى مادام أنت عينك منه..

ـ عينى منه ؟ . ده ابن أختى يا حاجة .. ده أنت اللى شفتيه يا حاجة ولا انت ناسية! .

وكنت أذهب وحدى .. ووجدت عددًا من الصغار فى مثل سنى يذهبون سرًا .. ولكنهم أكثر جرأة .. فبعض هؤلاء يتظاهرون بالآم فى السيقان ويجلسون بين الأمهات والفتيات ويذهبن فى التمثيل لدرجة التظاهر بالوجع .. ويطلبون من الفتيات أن يساعدنهم على الوقوف والذهاب إلى الحاجة .. ويكتفون بالجلوس والحديث مع البنات .. ثم لا يذهبون إلى مقابلة الحاجة ..

ولم أعد أذهب للحاجة بعد أن رأيت خالتى تذهب إليها وتحمل معها طعامًا وشرابًا وملابس لكى توزعها على الناس .. وعندما رأيت خالتى تبكى وتبكى .. وتلطم خديها .. وتشد شعرها .. وقد حاولت أن أمنعها وأبكى مثلها .. وكانت الحاجة تقول لها سيبها تفضفض .. سيبها يا واد انت .. أبعدوه من هنا ..

وكانت خالتى تذهب منذ الصباح ولا تعود إلا فى الليل شاحبة مريضة .. وتظل تلازم فراشها أسبوعًا وربما أكثر .. وعرفت أن خالتى تنفذ كل ما يقال لها لعلها ترزق بالطفل.. ولم ترزق ..

ولم أعد قادرًا على أن أرى هذا الذى تفعله خالتى . وما تفعله سيدات أخريات كثيرات.. رأيت واحدة قد غطت كل جسمها بالطين .. وذهبت ومعها طشت لكى تغسلها الحاجة .. ثم تعبئ الماء فى حلل .. وتلقى بما فى هذه الحلل أمام بيتها .. وأمام بيت الذين يكرهونها ويكون ذلك فى منتصف الليل أو قبل طلوع الفجر ! .

٦

ـ يا ابنى مش تقول إنك خارج ؟

ـ آسف يا ماما .. أنا أفتكرتك نائمة ! .

وكنت كاذبًا . فأنا صرت أفعل ذلك منذ وقت طويل وعلى فترات متقطعة .. فلم أعد أرى من الضرورى أن أسأل أمى إذا خرجت وإذا قررت أن أنام أو أتناول طعامى .. فأنا أفعل ذلك دون إذن منها .. لقد أحسست أن لدىّ رغبة فى أن أفعـل كل ما يخطر على بالى .. فلم أعد صـغيرًا .. أنا الذى أقول .. ولكن أمى تقول : إنـك ما تزال طفلاً .. وهل يعنى ان بلوغ الثانية عشرة معناه إنك رجل .. سوف تبقى طفلاً مدى الحياة .. فأنا لا أراك قد كبرت أبدًا يا ابنى .. وحتى لو كان عندك أولاد وأولادك عندهم أولاد سوف أراك صغيرًا .. فاهم ..

وأقول . حاضر ..

ولا أعرف معنى هذه الكلمة .. ولا معنى الموافقـة . ولكن يجب أن أصدق على ما تقوله أمى ..

ولاحظت أمى أننى أتأخر عن الساعة السابعة . ومرة عدت إلى البيت فى الثامنة .. ولم أعتذر لها عن ذلك .. وكانت وحدها فى البيت .. أما أخى الأصغر فكان نائمًا ..

وأحيانًا أدخل الغرفة وأقفل الباب وأتفرج على الصور أو أعيد قراءة الصفحات المثيرة جنسيًا ..

وقد رأيت صديقى عزيز يقف أمام أمه ويرفع يده فى وجهها ويقول لها : كفى . أنا لم أعد طفلاً .. وسوف أسهر زى ما انا عـاوز وأشرب سجاير .. أنت تشربين وبابا يشرب .. وبابا شرب السجاير وهو أصغر منى بزمان .. هوه اللى قال لى كده ! .

أما أنا فلا أستطيع أن أفعل ذلك لوالدتى .. ولا أن أقول لها أى كلام من مثل هذا ..

وسمعت مدام بركات تقول لابنها سامى : يـا سام .. كفاية يا حبيبى البنات .. ياأخى واحدة كفاية .. اثنين .. لكن مش عشرين واحدة ! .

يا خبر إنها لا تمانـع فى أن يعرف واحدة واثنتين وهو لا يكتفـى بواحدة .. تقـول كل ذلك وهى تضحك .. وسمعتها تحكى نفس الحكاية لوالدتى .. ووالدتى لا تعلق بشـىء .. وترى أن مدام بركات لأنها أجنبية تفعل بابنهـا ما تشاء .. ويفعل ابنها ما يشاء .. ولكنا مختلفون . وأنا بـالذات مختلف .. ولم تعلق أمـى على شىء من ذلك .. فكـأنها لم تسمع وكأننى ! .

هل أنـا الذى بـدأت بالحديـث مع فاتيما .. اسمهـا فاطمـة .. ولكن لأنها فى مـدرسة فرنسية فإنهم ينادونها فاتيما .. لا أعتقد اننى الـذى بدأت .. فأنا عادة لا أبدأ ولا أجرؤ.. إذن هى التى نظرت وضحكـت وأنا الذى أحنيت رأسى وضحكت .. وظللـت كذلك إلى أن عدت إلى البيت .. وفى نيتى أن أعود إلى نفس الشارع مرة أخرى فى نفس اليوم لعلى أراها .. أو لأننى سـأراها ..

ومن بعيد رأيـت واحدة تمشى مثلها .. بـل كنت أقارن بين الفتيات مـن بعيد .. هذه أقصر .. هذه أطول .. هذه أسرع .. هذه أكثر بياضًـا .. هذه أكثر سمـارًا .. وفجأة وجدتها. ورفعت رأسى أنظر إليها . وكانت الابتسامـة عريضة كأنها دعوة لأن نستأنف النظر أو كأن معنـاها أننـى تلقيت ابتسـامتك وأردهـا الآن .. وأريد أن يبقـى الابتسام والكـلام والسلام واللقاء بعد ذلك.. وعندما اقتربت منى ابتسمت أكثر وقالت لى : بونجور ..

وابتسمت ولم أقـل شيئًا . وظللت أنظـر إليها وهـى تبتعد .. وقبل أن تتـوارى عادت فنظرت فـوجدتنـى فى موقعـى .. فأشـارت برأسهـا أن أتبعها .. وبسرعـة ذهبت .. ولم أجدها.. لا هنا ولا هناك .. وتضايقت جدًا .. واتهمـت نفسى بأننى توهمت اننى رأيتها .. وفجأة ظهرت وكانت قـد اختبأت فى مدخل أحد البيوت لعلها ترى مـا الذى سوف أفعله وتأكدت تمامًا من أننى وقعت . فاقتربت منى وقالت : الليلة سوف نزوركم .. أنت تعرف إننا أقارب ؟

ولم أعرف أن أقول ولا أن أرد ولا أن أسمع ولا أن أنتظر لقاءها .. ولم استوعب شيئًا من الذى قالته .. ولكن سمعت شيئًا يشبه هذا : ماما قريبة زوج خالتك .. وماما صاحبة مامتك .. وإذا كانت ماما ومامتك فى الداخل جلست معك فى مكتبك الساعة السابعة ..

ومدت يدها وضغطت على يدى .. كهربتنى .. صعقتنى .. تبددت يدى فى يدها .. حتى ظننت وأنا عائد إلى البيت إننى سحابة تملأ الشارع أو اننى دون شعور حتى عندما دخلت بيتنا دخلت بالجانب كأننى انتفخت فظننت أن الباب سوف يضيق عنى..

ماذا حدث ؟ لا أعرف . وكيف تطورت مشاعرى بهذه السرعة .. وحاولت أن أستعيد وجهها .. لا أعرف .. أن أستعيد صوتها .. مشيتها .. حركتها .. اقترابها ابتعادها .. ابتسامتها .. لم أستطع .. إنها أصغر منى ، ولكنها أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسها .. وشعرت بالخجل الشديد .. فلابد أنها أدركت اننى ضعيف .. وإننى بلا تجربة وإنها أول واحدة .. وإنها استمدت قوتها من ضعفى .. ويقينها من اهتزازى .. وإنها نسفتنى وحولتنى إلى ذرات . ولم أعد قادرًا على جمع شتات نفسى .. لم أعد قادرًا على جمع كل هذه الشظايا فى هيكل عظمى واحد .. كيف ؟ ثم كيف هى بهذه القوة .. تكلمت وحددت وقررت . واختارت المكان الذى تجلس فيه أثناء جلوس أمها وأمى .. وكيف رأت كل ذلك بوضوح .. ولابد انها سوف تسألنى عن عدد البنات التى أعرفها .. ولن أكذب عليها .. ولا أعرف ان كانت البنت تحب الولد الذى لم يعرف غيرها .. أو الذى يعرف .. أو الذى عرف أو الذى يطب ساكتًا أمامها .. أو الذى لا يهتم بها .. لم أعرف .. ولم أسأل أحدًا . ولا سمعت . فأمى ترى الشر إمرأة . وترى الأقارب عقارب .. وترى الخراب أمام الباب .. وترى أن الذى يبتعد عن الكتاب أو الكراسة يموت غرقًا . وأن المستقبل مفروش بالكتب المدرسية والأخلاق .

ولكن عزيز الذى هو غيرى يعرف بنات كثيرة .. قد رأيته فى الكنيسة يقبل هذه ويغمز لتلك ..

وسامى يتكلم لغات لا أعرفها مع بنات ألمانيات وايطاليات ويونانيات .. ويقبل الجميع .. ويأكلون معًا ويرقصون .. وماما تحب سامى جدًا . وتطلب منى أن أصادقه

لأنه فى غـاية الأدب . ولأنه ابن نـاس .. ثم ان أمى سمعت مـدام بركات تشكو مـن كثرة البنات الـلاتى يعـرفهن .. وأمـى تسمع كـل ذلك وتـرى أننى مختلـف . ويجب أن أظل مختلفًا.. ولا أدرى ما الذى يمكن أن تقوله أو تفعله لو رآتنى أتحدث إلى فاتيما .. أو علمت انها تداعبنى .. وهى تحب الضحك والمداعبة .. وإذا تكلمـت فإنها تمسك ذراعى وأحيانًا تضربنى بالبوكس .. ثم إن صوتها مرتفع وكل شىء يجعلها تضحك!.

لا أعرف مـاذا يحدث لى .. فكل شـىء يحدث لأول مرة .. ولا أعـرف ان كانـت المرأة الأولى هى الأخيرة أيضًا ؟

ـ لماذا لا تأكل ؟

ـ تعبان يا ماما ..

ـ مالك يا حبيبى .. إنت بقى لك كام يوم مش عاجبنى .. مالك ؟

ـ ولا حاجة يا ماما ..

ـ حد قال لك إن بابا عيان .

ـ لا .. عيان ؟ عنده إيه من قال لك ؟

ـ ولا حاجة .. زكام بسيط .. ولكنه أحسن . وسوف يجىء غدًا .. أمال زعلان ليه ؟

ـ ولا حاجة ..

ـ آه عـرفت .. علشـان أختك كـان مفروض أن تيجـى النهاردة .. ولكـن بنت عمتهـا ماتـت.. كلها كـام يوم وسوف تجىء .. إنها فصلـت فساتين جـديدة .. والله دى حـاجة تضحك .. أختك عاملة زى ما تكون عروسة جـاية تقابل عريسها .. انت تلبس لها هدوم جديدة .. وهية محضرة هدوم جديدة ..

ولم أرد عليها . كـأننى أريـد أن أقول لها أن هـذه هى الأسبـاب .. ولا توجـد أسباب أخرى .. ولم أكن أعرف أن كل ذلك قد أصبح واضحًا على ملامحى !

وطلبت منى أمـى أن أذهب إلى الأجزخانة . وذهبـت وهناك قابلت سامـى ومعه فتاة جميلة . وبسرعة قدمنى لها هكذا .

أعز أصـدقائى .. والذى ينـافسنى فى قراءة الكتب وفى تعلـم اللغات .. أنا عـازمه على

شاى النهاردة عندنا .. تيجى .. لازم تيجى ..

فقلت : واحدة قريبتى سوف تزورنا هى وابنتها ..

ـ ابنتهـا ؟ تعال أنـت وإبنتها .. أقـول لك .. أنا سـوف أنزل لـك وأستأذن طـانط فى دعوتكما معًا إلى الشاى ! .

يا فرج الله قد جاءنى من السماء ..

وفعلاً بعد لحظة واحـدة من دخول فاتيما وأمها كان سامـى يدق الباب .. ودخل إلى أمى وصـافحها وقبلها فى جبينها ويدها أيضًـا وهو يقول : يا طانط .. اسمحى لهم يشربوا شاى معانا فوق ..

طيب يا حبيبى ! .

وحتى بعد أن مضى ذلك الوقت الطويل جدًا فإننى لا أعرف كيف أصف ما حدث وما لم يحدث .. ولا أعرف كيف أحشر المعانـى فى كلمات والكلمات فى سطور ولا أعرف كيف أربط هذه الكلمات وكأنها حيوانات وحشية لها أنياب ومخالب وقرون ..

وكان لابد أن أصعد السلم الذى صعـدته عشرات المرات .. ولكن أحسست كأن السلم يصعد إلى السماء .. كل سلمة تدفعنى ترفعنى تجرنى تسبقنى إلى فوق .. وكأن السلم لا أول له ولا آخر .. وكان السلم مظلمًا .. ولكن فجأة ظهـرت لقدمى عيون ترى.. وتضىء لنفسها كيف تـرى أوضح .. ولا أعرف أية قوة غـريزية دفعتنى لكى أمسـك يد فاتيما .. وذراعيها وأساعـدها لكى تصعد .. وكيـف ألف ذراعى حول خصرهـا .. ووجدتها تميل ناحيتى ووجدتها تقترب منـى .. وتقبلنى .. أعتقد أننى الذى قبلتها .. شفتـاها ساخنتان وأنفاسها سريعة .. هل هـى التى تسللت من ذراعى .. أو أنا الذى أفقت لأجـد سامى هو الآخر يعانق صديقتـه قبل أن ندخل الشقة .. ثم نظر لى سامى وهـز رأسه وهو يندهش كيف أننى خبير هكذا وأتظاهر بالبراءة والسذاجة والحياء ..

ولا أعرف ولا أدرى كيـف أمضيت الوقـت .. سامى يتكلم طـول الوقت وينتهـز كل فرصة لكـى يقبل دانيلا صديقته .. أو هى تقبلـه .. أما فاتيما فكانت أكثـر سعادة وأكثر مرحًا وكانت هى التى تقدم لى الشاى والجاتوه وتدعونى إلى الكلام . ولكننى فاقد النطق

وأصبحت إنسانًا آخر .. فالإنسان الذى كان فى ظلام السلم غير الذى فى ضياء الشقة .. وانتظرت فاتيما أن أقبلها مرة أخرى ونحن عائدان ولكنى لم أفعل .. وشدتنى لكى أمسك ذراعيها كما فعلت .. ولكنى قد عدت إنسانًا آخر .. أو الإنسان الأصلى .. وفوجئت بأن سامى قد استودع فاتيما وقبلها .. ولم تمانع .. وجاءت دانيلا وقبلتنى .. فلم أمانع ولم أشعر بأى شىء ..

وسارت الأحداث - إن كانت هناك أحداث - بسرعة وبعضها يتوارى فى بعض .. حتى جاء موعد خروج فاتيما ومامتها .. وبلا شعور أو ترتيب أو تدبير منى قبلت أم فاتيما .. تمامًا كما فعل سامى مع أمى ..

فقالت لى . باستك العافية يا حبيبى .. أصبحوا على خير ..

ولم تترك فاتيما هذه الفرصة .. حتى ضغطت على أصابعى وهى تصافحنى وبسرعة اطفأت النور وقالت : أنا نسيت شنطتى عند سامى فوق . والنبى تروح تجيبها .. آجى معاك ..

وسبقتنى إلى السلم .. وفى الظلام وجدتنى بين ذراعيها ..

أما بقية الأحداث فلا أذكر شيئًا منها .. لأننى فقدت ذاكرتى ..

٧

لو كـانت أختى معـى .. لو كانـت تجلس هنـا إلى جوارى .. وأقول لها مـا الذى أرى ويعجبنى ولا يعجبنى .. لـو كانت ترتدى مثل هـذه الفساتين من كل الألوان .. لـو كانت معى فى المدرسة .. لو كانت تصحو ونذاكر سويًا ..

ولكن لماذا إذا جلست مع أختى قال الأطفال : عريس وعروس ..

لا أفهم .. هل لأننا نجلس متجاورين دائمًا يدى فى يدها .. أو يدى حولها .. أو رأسى على صدرها أو فى حجرها .. أو نذهب إلى الترعـة ونجلس على أحد الكبارى وندلى بساقينا فى الماء .. ولما رأيت ثعبانًا فى الماء يقفز من شاطئ إلى شـاطئ ويطارد ضفدعة ثم يبتلعها لم أعد أدلى بساقى فى الماء .. وإن كانت أختى ظلت تفعل ذلك دون خوف ..

وفى إحدى المرات نهضـت بسرعة .. فاشتبكت مـلابسها ببعض فروع الشجـر التى صنع منها الكـوبرى فسقطت فى الماء .. وبسرعة خـرجت وراحت تجفف مـلابسها . ثم دخلـت حقل الـذرة وتـوارت لكى تجفـف مـلابسهـا . ونادتنـى أن أسـاعدهـا فى عصر ملابسهـا.. ولا شعوريـًا خلعت جلبابـى ورحت ألفه حـول جسمها .. ومنـذ ذلك الحين والأطفال يقولون إننا عريس وعروس .. ولم أفهم . وكانوا يتغامزون علينا .. ولكن ظللت إذا جلسنا أن نتجاورأجسادنـا ونتلاصق . ويدى فى يدها وعينى فى عينهـا .. وكانت هى التى تقول حكايات كثيرة .. ولم يكن يهمنى كثيرًا ما الذى تقول .. ولكن أن تظل تقول .. فكل حكاياتها عـن زوجة أبيها وماذا فعلت .. وكيف أنها صاحبـة الكلمة والرأى فى البيت وأن والدها لا رأى له .. وأن زوجة أبيها كثيرًا ما طردتها وقالت لها . روحى لأمك ! .

ولكن والدها لا يسمح لها أن تجىء إلى أمى..

وفى يوم ذهبت أنا إلى زوجة أبيها وقلت لها . لماذا لا تتركينها تذهب إلى أمها .. إننا نريدها ونحبها .. وأنتِ تكرهينها وتضربينها ..

وإذا بها تصفعنى على وجهى وتقول لى . وأضربك أنت أيضًا . إمش .. لم يبق إلا العيال يتطاولون على الكبار . إمش أنت وأختك فى ستين داهية ! .

ثم نادت أختى . ودفعت بها إلى داخل البيت . ولم أعد أراها . ولا أسمع صوتها . ولا أعرف ما الذى تفعله فى ذلك اليوم .. أو فى كل مرة تجدها معى .. وفى يوم سألتها فقالت إنها تطلب منها غسل الأطباق والحلل .. ثم غسل الملابس .. ثم كنس البيت ثم حمل رضيعها .. ومداعبته حتى ينام .. وبعد ذلك عليها أن تذهب إلى حيث الجواميس والدجاج والبط .. لتأتى بالبيض .. ثم تحلب الجاموسة .. ثم توقد الفرن وتصنع لوالدها فطيرتين وتحملهما له مع بعض القشدة والعسل ..

كل ذلك تفعله وهى تبكى . وأصبحت الدموع ملازمة للعمل .. تمامًا كالعرق.. فهى تعرق وتدمع . ولا تشكو . ولما كنت أنقل كل ذلك لأمى ، فإنها لا تعلق بشىء . ويبدو انها ترى أن هذه هى حال الدنيا . وانها لا تقوى على عمل شىء .. وأن الآباء لا يقدرون على الزوجات وأن الزوجات يكرهن الزوجات الأخريات وأولادهن أيضًا.. ولما كنت أحكى لخالتى كل ذلك .. فانها تقبلنى .. وتسكت . وكل الذين حكيت لهم ذلك فإنهم يسمعون فى صمت .. ويرون اننى طفل لا أعرف الدنيا . وأن هذه هى الدنيا . وأنه خير لأختى أن تظل فى بيت والدها من أن تكون معى .. ويقولون : أبوها هو الذى سوف يجهزها ويزفها . هو المسئول عنها . أسكت أنت ! .

ولما وجدت أمى أننى أضع بعض السكر والشيكولاته بين المراتب سألتنى فقلت . لأختى؟

فقالت أمى : ولكنها لن تجىء ! .

قلت : هى قالت لى إنها سوف تجىء بعد شهرين ..

وضحكت أمى وقالت : يبقى يحلها ربنا .. لن تجىء يا ولدى .. إنها تتمنى ذلك مثلك

تمامًا .. ولكن والدها لن يسمح لأن زوجة أبيها تريد أن تساعدها فى شغل البيت..

فقلت : ولكنها يا ماما تبكى طول الوقت .. أنا رأيت دموعها .. حرام .. ولما حاولت أن أغسل معها الأطباق طردتنى .. الست التى هناك هى التى طردتنى .. ولما حاولت أن أكنس معها البيت ، طلبت من أختى أن تعيد كنس البيت .. وكانت تبكى .. ثم طردتنا نحن الاثنين وقالت إنها لا تريد أن نقلبها جنازة ! .

ثم قلت لأمى لماذا لا أتزوجها يا ماما ؟

وضحكت أمى كثيرًا جدًا . وسمعتها تحكى هذه القصة لكل من تزورها . وكانوا يضحكون أيضًا . وفى كل مرة تحكى أمى هذه القصة تقول : إنه يحبها .. إنه طيب .. وحنين جدًا .. ويريد أن تكون له أخت .. وكل شىء يريد أن يحتفظ به لأخته .. الحلويات والسكر والشيكولاته . والصور الحلوة التى يجدها فى المجلات .. واشترى لها خاتمًا وأسورة من الزجاج .. ويحاول أن يكتب لها جوابات .. ولكنها لا تقرأ ..

وفى يوم طلبت منى أن أقرأ لإحدى جاراتنا الجوابات التى كتبتها لأختى . ولم أجد الشجاعة على قراءة الخطابات ولكنى أعطيتها الجوابات . وكن يقرأن الخطابات ويضحكن . وبعد ذلك أجدنى فى أحضان صديقات أمى وجاراتها مع نظرات الاشفاق على حالتى.. .

وكنت أحكى ما يقوله أبى من الحكايات والنوادر . ولكنها لم تكن تحب سماع هذه الحكايات .. ولا تجد متعة ولا اهتمامًا بالشعر .. وعندما كنت أسمع القرآن الكريم فإننى أردده مع فقيه القرية . وكانت أختى تقول : هل ستكون مؤذنًا فى مسجد ؟ أو هل ستقرأ على الموتى ؟

واندهشت لهذه الأسئلة . وأشعر أن أختى مختلفة عنى تمامًا . وانها لا تعرف ما يدور فى داخلى .. واننى لا أعرف كيف أنقل لها ذلك .. ولا أعرف كيف أحدثها عن أحلام أمى وآمالها .. وعندما حاولت أن أحدثها عن نفسى لم تكن تبدى أى اهتمام . وإنما هى حريصة على أن تتكلم هى .. وتظل تتكلم وأنا لا أقول شيئًا . واعتدت على أن أسمعها .. أو أن يكون لها هذا الوجود الصوتى ، حتى إذا لم أتابع ما تقول ..

فهى تقول وأنـا أنظر إلى المساحات الخضراء بين الحقول .. وإلى الظـلال التى تروح وتجىء مـع الناس . والجواميـس والأغنام والحمير والكـلاب .. وأصوات النبـاح والمواء والخوار والساقيـة والطنبور وزقزقـة العصافير وأصـوات الفلاحين من هنـا وهناك .. ورائحة البرسيم ورائحة الخس وملابس أختى . والسمنة والدخان والحنة فى يديها..

أما وجههـا فهو أجمل ما فى هـذه الدنيا .. أسمر أحمر مستـدير لامع والشعـر أسود طويل غزير .. والعينان عسليتان فاتحتان واسعتان والرموش طويلة .. والأسنان بيضاء لامعـة جميلـة وشفتاهـا بـلا أحمر ممتلئتـان .. وكـانـت وهى تتحـدث ألمس شفتيهـا بأصابعى.. ثم ألمس شفتى أنا أيضًـا .. ولا أعرف ما المعنى ولكن لعلى كنت أقارن بينهما.. وإن لم أكن أتذكر شكل شفتى .. هكـذا كنت أتصرف دون تفكير .. ألمسها طول الوقت .. كأننى أتأكد من وجودها .. أو كأننى لا أريدها أن تبعد عنى لحظة .. لا عن عينى ولا عن أصابعـى ولا عن أذنـى ولا عن أنفـى . أو أننى أريـد أن أكون فى حضـنهـا دائمًا . أو أن تحتوينى بكل نظراتها وكلماتها ورائحتها .. المهـم أن تكون إلى جوارى ، وأن أكون .. ثم اننى اعتدت على مـا يقوله الأطفال وأحيانًا الكبـار عندما يروننا معًا : عـريس وعروس . والنبى لا يقين لبعض .. هاها .. هاها ! .

٨

لم تكن أمى بالبيت . جلست أمام الباب انتظرها . وقد أسندت رأسى للحائط .. نمت . جاءت أمى . أيقظتنى وصرخت · مالك ؟ مريض .. ماذا عندك .. لماذا لم تذهب إلى مدام بركات .. إنها تحبك .. وابنها صاحبك ! مالك؟

ونقلتنى أمى إلى السرير .. ونمت . ووجدت حولى : مدام بركات .. وجارتنا .. والست أم عزيز .. وخالتى ..

وجاء طبيب .. وتقلبت أمامه .. ووضع يده على بطنى .. على صدرى على رأسى .. ونظر إلى عينى وإلى لسانى .. وقال : الحمد لله . لا شىء ولكنه يظهر إنه إرهاق .. هل يذاكر كثيرًا .. هل تعب كثيرًا .. لعله أكل شيئًا فاسدًا . ولكنه الحمد لله .. اشتروا له هذا الدواء ..

وانصرفت جاراتنا جميعًا . ووجدت أمى تستعد للخروج وشراء الدواء . فقفزت من السرير وقلت لها : أنا أشتريه .. أنت لا تخرجين يا ماما .. أنا بدلاً منك .. أو أنا أذهب معك!.

وسألتنى أمى : ماذا حدث ؟

فقلت لها : أبدًا .. أنا كنت فى بيت عزيز .. وفجأة وجدته يتخانق مع أمه ..

ـ عزيز يتخانق مع أمه ؟

ـ وكان يشخط فيها .. وبعد ذلك وجدته يلقى بالملوخية فى وجه أمه .

ولا أعرف بعد ذلك ماذا حدث لى ..

لقد كان الحادث صدمة عنيفة . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أصاب فيها بمغص معوى عصبى عنيف ..

فلم أكن أتصور أن أحدًا يرفع عينه فى عينى أمه .. ولا أن يكلمها بصوت مرتفع .. ولكن الذى حدث كان أكبر من احتمالى .. صدمة لم أفق منها طويلاً .. ولم أنسها طول حياتى .. وانقطعت صلتى بعزيز رغم أنه حاول كثيرًا أن نظل أصدقاء . وفى كل مرة يسألنى عن أسباب مقاطعتى له ، لا أقول شيئًا . وحاولت أن أعود إليه ، أو أعيده إلى نفسى، لم أستطع .. حاولت أن أنسى وأن أقول : ولكن أمه سامحته.. وأخوته قد نسوا..

ولكنى لا سامحته ولا نسيت..

وفى كل مرة أتذكر هذه الحادثة فإننى أتلمس شيئًا يتحرك فى أمعائى .. وأحيانًا أشعر بمغص ، فأسرع إلى أى اسبرين .. أو إلى الانشغال بأى شىء آخر ..

وحاولت أمى أن تخفف من وقع هذه الحادثة من نفسى .. فقالت لى : أنت فهمت خطأ.. إنه لم يلق الطبق فى وجه أمه .. وإنما هى قالت له أريد أن أرى شطارتك .. فى أن تلقى إلىّ بهذا الطبق دون أن يسقط منك على الأرض .. وهى لعبة يمارسونها كثيرًا .. هو يلقى الطبق .. وهى تلتقطه منه .. ولكن يظهر انك كنت سرحان .. وأنت تسرح كثيرًا! .

ويظهر أن أمى حاولت أن تجعل خالتى تحكى هذه الحادثة بطريقة مختلفة .. وأن الست أم عزيز لم تغضب من ابنها .. فهو قد اعتذر لها وباس يديها وقدميها .. وانها قد رضيت عنه تمامًا .. فهو ابنها وهى أمه .. ولا يمكن للأم أن تغضب من ابنها ، ولا أن يغضب الابن من أمه .. وصافية كاللبن ..

ولكنى لم أنس ولا حاولت ! .

٩

فى ساعـة متأخـرة من الليـل سمعنا دويًا . وقفـزت من السريـر .. واعتدلـت أمى فى جلستها .. وتولانـى الفزع . ونظرت إلى أمى اسـألها . ولكنها قالت · لا شـىء .. تعال إلى فراشك .. إن مدام بركات تتشاجر مع زوجها ..

ثم سمعنـا صوت زجـاج يتحطم عندنـا .. ورفعت أمـى الغطاء .. وأضـاءت النور .. ووجدنا أطباقـًا مهشمة وفيها طعام .. بطاطس وصلصـة .. ولحم وأرز .. كل ذلك سقط من شقة مدام بركات .. ووجدت أمى تمشى على أطراف أصابعها وتنظر إلى أعلى .. فمدام بركـات بالـدور الثالث .. وهنـاك «منور » .. وهـذا المنور تطل عليـه كل الشقـق .. فمن شبابيـك مدام بركات سقطـت كل هذه الأطعمة .. ثـم تعالى صراخ مدام بركـات .. وهى تتكلم بالإنجليزية أو بلغات أخرى لا أعرفهـا .. وزوجها مدرس اللغة الإنجليزية يشتمها باللغة العربية .. ويلعن والدها واليوم الذى رآها فيه .. ويقول إنها كانت فى الشارع وإنه هو الذى جعل منها سيدة محترمة .. ولكن لا أمل فى أن تكون زوجة نافعة .. ولا أن تتعلم الطهى .. وأن الصلصـة فيها ملح زائد .. وأن اللحم مـا يزال نيئًا .. وأنها مشغـولة دائمًا بابنها .. أما هو فلا تهتم به .. وصراخ .. وصراخ .. وبكاء وأشياء تنكسر .. ثم مدام بركات تطل من نافذتها وتنادى والدتى .. وسمعتها تناديني وتقول لى : تعال اتفرج على أستاذك المحترم كيف يبدو وحشًا كاسرًا .. كيف ينطق ألفاظًا شوارعية .. تعالوا يا تلامذة اتفرجوا على البيه المدرس ..

وأصوات أطباق وشـوك وسكاكين وملاعق .. وصراخ وكلمات غير مفهومـة .. ثم هى

تقول الـولد مـا ذنبه .. لماذا تضربـه هو الآخـر .. إنه أكثـر أدبًا منـك .. أبوه مـن أغنى الأغنياء.. ولكنهـا الظروف الزفـت هى التى دفعته إلى أن يـرافقنى ويكون معـى فى هذه العيشة المطينـة.. كفى يـا مجرم .. يا كلـب . يا ابن الكلـب.. يا جـائع يا شحـاذ .. هذه فلوسـى.. ذهبى .. وأنـت ماذا عنـدك يا بخيـل يا شحيـح .. إنت تعيـش على أموالى ولا يعجبك.. كم دفعت فى شراء أى شـىء .. من ملابسك النظيفـة وأحذيتك .. من الذى يعالج أمك واختك .. أنا .. من الذى سدد ديونك ؟ أنا المغفلة .. أنا الحمارة ! .

ثم عادت تنادى على أمى .. وعلى الجيران ..

وارتدت أمـى ملابس الخروج وصحبتنـى معها وأنا أرتعش خـوفًا .. ووجدنـا باب الشقة مفتوحًا .. ووجدنا مدام بركات منكوشة الشعر والدم على وجهها وعلى ملابسها .. ووجدنا ابنهـا ملقى على الأرض .. وخرج المدرس كالـوحش الكاسر قبيح الـوجه منفوخ العينين مسوس الأسنـان وله كـرش .. ويمشى حافى القـدمين .. ولم أجدنـى خائفـًا من مواجهته .. ولا النظر إليه .. واتجهت إلى سامى ورحت أهزه وأمسح وجهه .. والدموع فى عينى ولما فتـح عينيه ووجدنا أصـابه ذعر .. ثـم نظر إلى أمه فـوجدها واقفة عنـد رأسه تحكى لأمى ما حدث .. ثم نهض بسرعة .. ولكن أمه كلمته بلغة لا أعرفها . ومنعته من أن يفعل أى شـىء ..

ولاحظت أمى أننى أضع يدى على بطنـى .. فأشارت لى أن أعود إلى بيتنا وأن أتمدد فى الفراش وأن أنتظرها ..

وفى اليوم التـالى لم أذهب إلى المدرسة .. لم أستطع ولا أريـد أن أرى هذا المدرس .. ولا أعـرف كيف أراه .. ولا أعـرف مـاذا أقول لـه لو سـألنـى .. أو لو نظـر نـاحيتى أو لـو استدعانى وحذرنى أن أحكى شيئًا مما رأيت لأحد ..

ووجدتنى ألف منديلاً حول رقبتى فى حصـة هذا المدرس .. كأننى أريد أن أقول اننى مريض .. وأنه لا داعى لأن يقول لى شيئًا .. أو يهددنى بشـىء..

وجاءت مـدام بركـات إلى زيارتى وعـانقتنى وقبلتنى وأعطتنـى بعض الكتـب وهى تقول: سوف تنفعك عندما تكبر ..

وخرجت مدام بركات ولم أعد أراها بعد ذلك .. لقد تركت الرجل إلى حيث لا أعرف ..

١٠

مرضت أمى .. اقتربت منها وجدتها نائمة .. تسللت من غرفتها . وخرجت من البيت . وأغلقت الباب برفق . وذهبت إلى الفكهانى وقلت له · بلح وجوافة ..

قال دون أن ينظر لى . سوف تدفع اليوم ..

لقد نسيت أن أطلب فلوسًا من أمى .. فكل الذى كان يهمنى هو أن أنجز شيئًا بدلاً من أمى .

فقلت له : ولكن أمى مريضة وأنا لم أشأ أن أوقظها .

وكان رده أن ينظر ناحيتى . آه .. سلامتها . ولكن لا تنس أن تقول إنكم لم تدفعوا شيئًا هذا الشهر ! .

وكان هناك أناس كثيرون قد استمعوا إلينا .. وبسرعة أعطانى قرطاسين .. ولكنى لم أمد يدى .. وراح ينادينى : تعال .. لم أقصد اغضابك .. ولكن ربنا هو الذى يقول : وذكر إن نفعت الذكرى ! .

وتركته وذهبت إلى الطابونة .. وظللت واقفًا حتى انفض الناس . واقتربت من البائع .. إنه فى مثل سنى وقلت له : أربعة أرغفة .. واحد طرى وأربعة مقرمشة .. الطرى علشانى أنا ..

فالتفت ناحيتى وقال لى : أليست عندك أسنان ؟

قلت : عندى ولكن أتضايق من صوت العيش المقرمش ..

ـ فلوسك ؟

ـ إنهم يعرفون ماما ..

وذهب البائع الصغير إلى داخل المحل .. إلى والده وأشار ناحيتى .. ووجدته يهز رأسه بما معناه : أعطه ..

وأعطانى الخبز ملفوفًا فى ورقة . ثم أعطانى ورقة صغيرة وهو يقول : وهذا هو الحساب .. ستة وخمسون قرشًا ..

وسمعت صوت والده وهو يقول : من أول الشهر .. قل لماما ! .

وتركت الخبز .. وراح ينادينى ولكنى لا أرد ..

ومررت بالصيدلية . إن صاحب الصيدلية له ابن زميلى فى المدرسة . ويجلس إلى جوارى . وأنا أحبه . ووجدته واقفًا أمام الصيدلية . ودخلت معه . ولما رآنى أبوه قال : هل تريد دواء ؟

ونسيت اسم الدواء . ولكنه قال لى : ماما مريضة . ما تزال تشكو من معدتها . وتنزف . هذا الدواء الجديد .. إن شاء الله ربنا يشفيها .. وبابا ألم يأت بعد ؟

قلت : اليوم سوف يحضر ..

قال : سلم على بابا .. وهذا الدواء تعطيه لماما .. وتحت أمرك يا ابنى .. أرجوك تقول لبابا إن الحساب ثقيل .. لا تنس ! .

ثم أعطانى الدواء . وارتعشت يدى . فأنا حائر بين أن أتركه وبين أن أعود به إلى أمى.. وأخذته ..

واقترب منى زميلى وقال : أنتم لا تدفعون . لماذا ؟

قلت : بل ندفع . ولكن ماما مريضة لم تستطع أن تجىء بنفسها ووالدى مسافر واليوم سيجىء ويدفع طبعًا .

ـ ألم يحضر أبوك من شهرين .

ـ قلت : بل يجىء كل أسبوع مرتين وثلاثا ..

قال : ولكنه لم يدفع الحساب .. وماما مريضة منذ وقت طويل ؟

قلت : نعم .

ووجدنى والدى نائمًا أمام باب الشقة .. وأيقظنى ووجدنى أصفر الوجه . وأدخلنى البيت ووضعنى إلى جوار أمى فى السرير ولم تكد ترانى حتى قالت : مالك يا ابنى ياحبيبى ماذا جرى لك هذه الأيام ..ربنا يخليك يا ابنى .. كتر خيرك .. انت لم تنس أن تذهب إلى الاجزاخانة ..

وتهامس والدى ووالدتى .. ثم قبلتنى أمى ، وقبلنى والدى ..

وسمعتهما يدعوان لى بالصحة والعافية والنجاح فأنا طفل طيب .. وشديد الحساسية.. ووجدت أبى يقول . يا ابنى سوف تتعب فى حياتك كثيرًا .. فنحن فى زمن لا قلب فيه عند أحد .. ولا حب ولا حنان .. ربنا يلطف بك يا ولدى ! .

١١

كانت نظرتي إلى الكتب في فزع .. ففي سن صغيرة جدًا عرفت أن « الفقر » هو الكتب..

والأدب والذوق هو الفقر والكرم فقر ..

والناس كلهم والجلوس إليهم ودعوتهم وحب الناس : فقر والملابس النظيفة والأنيقة . فقر.

وشراء كل شيء . فقر .

وشراء كل شيء وبكميات كبيرة هو الفقر السريع ..

وكل من ليس له دكان وكل من تزوج مرة ومرتين : فقر ..

والذى لا يملك بيتًا ، ولا يقتني أرضًا ..

والذى يصلى ويصوم ويخاف الله ويعيش نظيف اليد ، حسن السير والسلوك : فقر ..

وكل هذه الصفات هي أبي ..

ولكن لم أعرف معنى الفقر .. ومن هو الرجل الفقير ..

فقط الرجل يمد يده للناس .. الشحاذ .. الذى يلح في طلب الطعام والشراب ويدق الأبواب ويستوقف الناس ويعطيه الناس ولا يعطونه وأحيانًا يشتمونه .. وسمعت أن شحاذًا مات عن ست بلاليص مليئة بالفلوس .. ولم يجد أحدًا يرث هذه الفلوس فأخذها اللصوص فكأنه ظل طول عمره يجمع المال .. وفي لحظة واحدة أخذها أقرب الناس إليه عندما مات ..

ولم تكن واضحة فى ذهنى علاقة الكتب بالفقر .. ولا ما الذى تعمله الكتب فى الناس .. ولقد رأيت شيخ المسجد يقرأ الكتب فى المسجد والناس يقبلون يديه ويطلبون منه البركة وأن يقضى الله حاجاتهم وأن يشفيهم من المرض .

ورأيت كل التلامذة يقرأون الكتب ويحملونها من المدرسة ويحرصون عليها ..

ثم إننا نغير الكتب المدرسية كل سنة ..

ورأيت بيت أحد أقاربى من الأغنياء .. وكانت الكتب على الجدران وكانت مغطاة بنوافذ زجاجية وبعض الكتب لها غطاء من الجلد وعليه حروف من الذهب .. ثم إنهم أغنياء عندهم حدائق وعندهم سيارات ويأكلون الدجاج كل يوم ويتصدقون على الفقراء .

وكنت إذا وجدت كتابًا رحت أقلب فيه .. حتى قبل أن أتعلم القراءة .. وكنت اختفى تحت السرير والكتاب فى يدى .. وإذا سمعت أمى تنادينى ، فأننى لا أنطق وأحيانًا أتظاهر بأننى نائم إذا أحسست انها سوف تعرف مكانى تحت السرير .. ثم اننى أخفى الكتاب فى ملابسى ..

وأول كتاب وجدته وكانت به صور ، كان انقلابًا .. فكنت أقلب فى صفحات الكتاب وأرى إناسًا وحيوانات .. وكنت أصحو من النوم مبكرًا جدًا وآخذ الكتاب وأقلبه بالقرب من المصباح .. أو أخفيه فى دولاب والدى .. فإذا نهضت معه عند الفجر سحبت الكتاب وجلست وراء والدى وهو يصلى وأتصفح الكتاب .. وكان والدى ينظر ولا يقول شيئاً ..

وكان والدى يرى دهشتى وانبهارى .. وفى نفس الوقت إننى لا أفهم .. فكان يقول ردًا على الذى أحسه ولا أعرف كيف أعبر عنه : غدًا تتعلم وتحب كل هذه الكتب.. انت الآن أحسن من الأطفال فى سنك .. انت تحفظ القرآن الكريم .. والقرآن سوف يجعلك تحب القراءة والكتابة .. ألا تحفظ الشعر الذى ألقنه لك ؟

وأهز رأسى بأننى على استعداد لأن أردده كله الآن .. مئات الأبيات .. لها موسيقى ولها تراكيب غريبة جميلة . لكن لا أفهم الكثير من معانيها .. فلا أعرف معانى كلمات . الصبر .. والحب .. والفرح والأيام .. والدهر .. والقدر .. ومعظم الشعر الذى أحفظه عن

والدى قد امتلأ بهذه الكلمات التى وضعت ضمن موسيقى لفظية جميلة .. ولكنى أحفظ وأردد .. وأحيانـًا يطلب منى والـدى أمام الناس أن أقول .. فمثـلاً يقول لى : قل سـامح أخاك.

فأقول

سامح أخاك إذا خلط .. الخ .

ويهلل الناس ويدعون الله أن يفتح علىّ بالخير والبركات ..

أو إذا أراد أبى أن يضحك وأن يسلى الناس فأنه يقول لى : قل . رأيت غصنًا .

فأقول ·

رأيت غصنًا على كثيب

شبيه بدر إذا تلالا

فقلت : مالاسم قال · لولو

فقلت : لى لى : فقال : لا لا

ويضحك الناس .. ولكنى لا أفهم لماذا يضحكون ولا معنى الذى قلت من الشعر الذى أضحك الناس ..

وأحيانًا بعد صلاة العشاء يقول لى والدى : قل لنا شيئًا من « البردة » النبوية .

فأقول·

أمن تذكر جيران بذى سلم .. إلخ .

ويقول لى · قل يا لائمى

فأقول:

يا لائمى فى هواه والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

محضتك النصح لكن لست تسمعه

إن المحب عن العذال فى صمم

والناس سعداء بما أقول وأبى أكثر سعادة .

وما يدور مـن مناقشات عن هـذه الأبيات أو المدائح النبوية ، لا أستطيـع أن أفهمه .. ولكنهم يطلبون من والدى أن يقول مزيدًا مـن الشعر والنكت الأدبية والبلاغية والنوادر التاريخية .. والناس يحبون أن يستمعوا إلى والدى وينتظرونه حتى يجىء. أو يقولون : لقد انتظرناك فى الأسبوع الماضى ولكنك تركتنـا هنا كاليتامى .. الحمد لله على السلامة . والله إننا نعد أيام غيابك ..

وكان والدى سعيدًا وكانوا أكثر سعادة ..

وكنت أجلس إلى جوار والدى وأحيانًا يغلبنى النوم . فأميل على كتف والدى . وأحيانًا ينقلوننى إلى داخـل البيت .. حتى إذا قرر والـدى أن يعود أيقظونى .وأمسـك يد والدى . وكان يقول لى : لماذا أنت خائف ؟

ولابد أنه لاحظ أننـى أمسك يديه بشدة .. ولم أكن خائفـًا . ولكنها عادة أن أستند إلى شىء ، أن أمسك أى شىء ، أن أتلفت ورائى ..

وسألنى والدى : ألا تلاحظ أن زملاءك فى المدرسة لا يحفظون القرآن ..

قلت : أنا فقط .

ـ ويحفظون الشعر ؟

ـ أنا فقط . ولا يحبون أن يسمعوه وإذا حاولت أن أردده فأنهم يسدون فمى . وواحد قال لى : أنت تحفظ شعر الشحاذيـن والعميان وإن شاء الله فى المستقبل ستكون شحاذًا على الأبواب ..

ـ إنهم متغـاظون يا ولدى لأنهم لا يقـرأون ولا يعرفون إلا لعبة الكـرة ولابد انهم فى المدرسة لا يجىء ترتيبهم مثلك . فأنـت الأول دائمًا . وأنت أفضل . أنت أحسن .. وسوف تكون سيد هؤلاء جميعًا . إن شاء الله ..

ـ ولكن ماما لا تحب الشعر .

ـ ولكن بابا يحب الشعر .

ـ وخالتى لا تفهم الشعر ..

ـ لأن خالتك ليس لها أب يردد على مسامعها الشعر .. ثم إنها لم تحفظ القرآن مثلك ..

ولم تذهب إلى المدرسة ..

ـ وهل الشحاذون يحفظون الشعر .

ـ لا .. ولكن لهم كلمات يحاولون أن يجعلوها موسيقية .. موزونة .. فهم يقولون . إعطنى يعطيك ربنا .. إعطنى قرشًا ربنا يعطيك ألف قرش .. الغلبان له الرحمن .. وأنا أحفظ القرآن .. وأحفظ الشعر هل أنا شحاذ .. والمأمور يحفظ الشعر وناظر المدرسة وإمام المسجد يحفظ الشعر . وليسوا شحاذين .. !

١٢

كان صوت أبـى جميلاً إذ تلا القرآن وإذا أذن لصلاة الفجر .. وكـان يؤذن فى البيت قبل الصلاة . ولم يكن يصلى إلا وأنا وراءه .. وكانت أمى لا تصلى .. لأنها دائمًا مرهقة أو كانت مريضة .. أو كانت لا تحب أن تصحو مبكرًا ..

وكان أبى يتلـو القرآن بصوت مرتفع . ولم يكـن يسمعه أحد سواى .. وكـان صوته ناعمًا رخيمًا .. وفى بعـض الأحيان كنت أرى أبـى يتلو القـرآن ويبكى . وإذا رآنى فـإنه بسرعة يمسح دموعه . ويمضى فى التلاوة ..

وأحيانًا كنت أسمع والدى يغنى ويقول . يا ليل يا عين ..

وكنت أسمع من أقاربى أن والدى صوته جميل إذا غنى لصالح عبد الحى والحامولى وسيد درويش .. وانه كان حريصًا على حفلات منيرة المهدية .. وانه كان يؤلف الأغنيات ويغنيها ويرتجلها .. وانهم كانوا يطلبون إليه ذلك ..

وكان لى خال صوته جميل . وكان يطلب منى أن أرافقه فى زياراته الليلية .. وكان خالى يغنى . وأثنـاء الغناء كنـت أتناول العشـاء وبعد لحظـات أكون قـد نمت .. وأجـد خالى يوقظنى لكـى نعود معًا إلى البيت . وكانـت خالتى لها صوت جميل .. وكـانت لها بحة .. وكانت تغنى المواويل الريفية وأغانى الأفراح وكانت تطبل وأحيانًا تتحزم وترقص .

وقد أحببت الصوت الجميل ..

ولم أسمع أمى أبدًا تغنى . ولا رأيتها ترقص ولا رأيتها تطبل ..

وكنت أذهب إلى الحقل لاستمع إلى أغانى الفلاحات وهن يجمعن القطن أو الأرز ..

وكنت أحب أن أستمع إلى صوت واحد من العمال . صوته قوى جميل .. وكنت أدعوه إلى الغناء .. فأقف فى الشباك أو فى البلكونة وهو يغنى لمحمد عبد الوهاب .. هو يغنى وأنا معه أيضًا . وكان قصير النفس ضعيفًا وكان يتخلل غناءه نوع من السعال الذى يجعله ينكفئ على الأرض .. ولكن فى بعض الأحيان كان يغنى بغير سعال ..

مرة واحدة سمعت أمى تغنى وكانت فى الحمام . واكتشفت أن صوتها جميل ولكن أغانيها كانت حزينة ففيها كلمات الصبر والزمن والكريم والبخيل والندل وابن الناس والذل والعين والحسد ..

وفى كل مرة يقرر والدى أن أرافقه إلى أحد الأفراح تدور مناقشات هامسة حادة بين والدى ووالدتى .

هى تقول : لا تفسد الولد ..

هو : انه حفظ القرآن الكريم .. ومن يحفظ القرآن يحفظه القرآن .. لا تخافى أريده أن يكون رجلاً .. لا يعجبنى إنه خجول أكثر من اللازم .. خائف زيادة عن اللزوم .. لا يريد أن يرى أحدًا ، ولا أن يراه أحد .. يجب أن يخرج .. أن يرى الدنيا . إنه رجل .. يجب أن يكون رجلاً ثم إنه معى لا تخافى ..

ـ إذن لابد أن يضع جوربًا وحذاء .

ـ الدنيا حر ..

ـ ولكنه يبرد بسهولة .. أخشى عليه من البرد ..

ـ إنتِ السبب .. الخوف من البرد .. الخوف من الزكام .. الخوف من المشى فى الظلام.. الخوف من المشى فى الشمس .. أتركيه ..

ويدور همس وكلام لا أتبينه بوضوح . ويطول الكلام .. ولا أعرف ما هو القرار ..

ثم يطلب منى والدى أن أستعد للخروج وأن أضع جوربًا حتى لا أصاب بالبرد .. وأن أرتدى ملابس ثقيلة ..

ويجدنى والدى قد ارتديت الملابس الثقيلة والجوارب والحذاء ووقفت أنتظر . فيضحك ويقول · هاها .. أنت مستعد ؟

فلا أرد خوفًا من أمى . وأسبق والـدى إلى الشارع وأمسك يده بمنتهى القوة . ويقول لى . أترك يدى أنا معك .. إلى جوارك لا تخف يا ولدى ..

ولكن إحساسى دائمًا أن والدى لا يبقى معنا إلا يومًا أو يومين يصيبنى بالخوف من اننى سوف أنام وأصحـو فلا أجده .. ولذلك فأنا أجلس إلى جـواره وحتى إذا ذهب لينام جلست أمام سريره أو أمام باب الغرفة ..

وفى إحدى المرات نهضت من النوم فى حالة فـزع .. فلم أجد حذاء والدى فى حضنى .. فقد اعتدت أن أخفيه فى مـلابسى وأنا نائم .. حتى إذا أراد والدى أن يسـافر كان لابد أن يوقظنـى أولاً .. ولكن هذه المرة استطـاع أن يستخرج حـذاءه من ملابسـى وأن يتركنى نائمًا.. ولكنى لحقت به ..

وكانت حفلـة لمطرب له صوت نحيف اسمـه عبد اللطيف البنا .. والنـاس قد تزاحموا لسماعه .. فى صوان صغير محكم .. وبعض الناس جلس على المقاعد والدكك .. والباقون على الأرض .. وجاء المطـرب لا أذكر ملامحه الآن .. ولكنـه قصير القامـة نحيف ووراءه ثلاثة من العازفين .. وجعل يغنى والناس تصرخ بأعلى الصوت ' الله يا سى عبد اللطيف.. الله يا عم .. يا نبى.. الله هات من الأول .. كمان ..

وكنت أجلـس على مقعد إلى جوار والـدى فى الصف الأول . وإلى جوار والـدى جلس العمدة والمأمـور وواحد ينـادونه يـا سعادة الباشـا .. وسقطت مـن فوق الكـرسى على الأرض.. واصطدمت بطوبة ونزف الدم مـن جبهتى .. وانزعج والدى والناس .. وبسرعة جاءوا بقطنـة بها سبرتو ... وجاءوا بقليل مـن البن .. ووضعوا البـن على الجرح .. ولابد اننى بكيت . وسألنى والدى إن كنت أحب أن أواصل الفرجة والاستماع أو أنام .. أو أحد يعود بى إلى البيت . فقلت : اتفرج .. ولن أنام ! .

وقالـت والدتى فى الصبـاح إنها على حق .. فأنـا أنام ولا أستمع ولا أجـد متعة .. ولا سبـب فى أن يصر والدى على أن أرافقـه .. ثم إننـى فى كل مـرة أصاب بشـىء .. البرد أو الوقوع مـن المقعد .. أو يسقط الطعام على مـلابسى.. أو تشد المسامير جـوربى .. وكان والدى يقول لأمى : لابد أن يرى .. لابد أن يعرف .. وأن يجلس مع الرجال .. لا مع الأطفال

والسيدات .. ولابد أن يمشى على التراب ثم يغسل قدميه .. لابد أن يسمع الناس يتكلمون بصـوت عال .. لابـد أن يرى زمـلاءه يتشاجـرون ويشتم الـواحد الآخـر ، حتى يكـره المشاجرة ويكـره قلة الأدب .. ولابد أن يشعر بتقـدير الناس واحترامهم لـوالده .. لا لأنه غنى ولكن لأنه يفهم فى القرآن وفى الشعر وانـه لا يؤذى أحدًا .. وأن الناس يقصدونه إذا أرادوا الشفاء أو إذا كـانوا فى ضيق .. ثم إننـى لا أراه إلا قليلاً .. وأنا لا أريـده أن يشعر كأنه يتيم ..

وبعد ذلك كـان يدور كلام كثير طويل جـدًا وفى همس . وكانت أمى هـى التى تتكلم عادة وتصر على ذلـك .. وعلى ألا أسمع شيئًا مـن ذلك .. وكانـت من حين إلى حين تجىء لترى إذا كنت قد نمت .. وكنت أتظاهر بالنوم لأسمع ماذا تقول .. ولكن أمى كانت تتكلم بصوت منخفض . وكنت لا أسمع صوتًا لأبى ..

وفى الصباح سألت أمى : هل سأدخل الأزهر ؟

وانزعجت أمـى وكأن عقربة قـد لدغتها فنهضت واقفـة من قال لك ذلـك.. ينقطع لسانه ؟ من الذى قال ذلك ؟ قل لى حالاً ..

قلت : كل الذين يجلس إليهم أبى من الأزهر ..

ـ لن تجلس إليهم بعد اليوم . هم الذين قالوا ؟

ـ لا ..

ـ إذن من الذى أدخل فى دماغك هذه الفكرة ؟

ـ لا أحد . ولكنى أسأل .

ـ لا تكذب .

ـ أنا لا أكذب .

ـ أنا أعرف انك لا تكذب . من يحفظ القرآن لا يكذب ..

ـ نعم .

ـ إذن من قال لك ذلك ؟

ـ لا أحد .

ـ لـن تذهـب إلى الأزهر يـا ولدى .. لابـد أن تكون أحسـن .. لماذا لا تقرأ الكتـب التى عندك.. الكتب التى تضعها تحت السرير .. اخرجها يا ولدى .. واقرأ ليلاً ونهارًا ..

لقد خشيت أمى أن حفـظ القرآن الكريم والاكتفاء به سـوف يجعلنى أدخل الأزهر .. ولذلك طلبـت منى أن أقرأ كتبًا أخرى ، لكـى تبعدنى عن الأزهـر .. وكلما وجدت فى يدى كتابًا فإنها تقول . هكذا يا ولدى .. ربنا يفتح عليك ! .

وكان لأمى ابـن خالة من رجال الديـن .. ففى كل مرة يزورنـا ويطلب منى أن أخبره ماذا تعلمـت كانـت تقول لى · أنـا أريد أن أتكلـم معه فى مـوضوع خـاص .. أخرج انـت ياولدى.. خد لـك مقعدًا وضعه تحت الشـجرة .. لا تجلس على الأرض .. وخذ معـك كتابًا واجلس فى الهواء .. وأنا سوف أبعث لك بالشاى ..

فقد اقتنعت أمى بضرورة الابتعاد عن كـل المشايخ وأن أكون مختلفًا وألا أجلس على الأرض .. وأن يكون فى يدى كتاب .. أى كتاب .. وإذا جلست أن يكون مقعدى عاليًا.. وإذا شربت أن يكـون فى كوب تحتـه طبق .. لابد .. وألا أغسـل الكوب والطبـق كما اعتدت أن أفعل.. هى التى تغسـل . وأنا أقرأ فقط . وإذا وجدت معها عـددًا من السيدات ، فيجب أن أكون بعيدًا عن الكلام الفارغ الذى تقوله السيدات ليلاً ونهارًا . وأن أقرأ أحسن وأنفع ..

أغرب من ذلك . كانت تقول لى . إمش أمامى .

وكنت قبل ذلك أمشى وراءها . دون أن أسأل إلى أين . هى خرجت وأنا وراءها . هى قامت فيجب أن أقوم . هى أكلت . هى شربـت . نظرة واحدة منها تكفى لأن أبدأ فى الأكل . وأن تقف اللقمـة فى فمى وأن أغسـل يدى . وأن أنهض وأن أسبقهـا إلى الشارع لأمشـى وراءها ..

ولكنها فجأة قـررت أن أمشى أمامها . وأن أعـرف قبل أن أمشى أين نحـن ذاهبون وإذا أحسست أنا بالملل همست فى أذنها وبعد ذلك نعود فورًا إلى البيت ..

وكنت أسمعها تقول عنى : رجل البيت .. نعم رجل البيت .. ولا كل الرجال ! .

ولكن لا أعرف بالضبط ما الذى يمكن أن أفعله .. وما هى مواصفات رجل البيت ..

ولكن عرفت شيئًا واحدًا أن هذه الصفات لا تقال إلا فى غياب والدى .. أى عندما يكون

هو مسافرًا فأنا الرجل الذى يحل محله فى خدمة أمى وفى مساعدتها وفى استقبال الناس.. وفتح الباب والتأكد من إغلاقه قبل النوم .. والذهاب إلى الطابونة والفكهانى والاجزاخانة ودفع الإيجار والسؤال عن جيراننا وأقاربنا من المرضى .. والسير فى الجنازات وشراء المغات لكل من ولدت .. والاعتذار عن ماما بسبب السفر أو المرض .. وكنت دائمًا أقول إنها على سفر ..

١٣

وأمام الناس وجدت والدى يقول لى : لا .. لا .. إنـت الذى يجب أن يقول ماذا يريد أن يكون فى المستقبل . ولا يصح أن تقول : إنك لا تعرف .. وأن ماما هى التى تعرف ! .

وكنت قـد أجبت على سؤال : ماذا تحب أن تكـون فى المستقبل فقلت بمنتهـى الصدق وحسن النية : لا أعرف .. ولكن ماما هى التى تعرف ! .

وإذا سـألونى : هل تحب اللحم المستوى فأقول : ماما لا تحب ! .

وإذا سـألونى · ولماذا أنـت دائمًا ترتدى الملابس الثقيلة . فيكون الرد : مـاما هى التى تعطينى هذه الملابس ..

وسـألونى . وفى الصيف تستحم أيضًا بالماء الساخن ؟

فأقول : نعم .. ماما تصب الماء الساخن على جسمى صيفًا وشتاء ! .

وأخذنـى والدى بمنتهى الـرقة والرفق . وجلسنـا معًا تحت شجرة وقـال لى · إسمع ياولدى .. أنا أعرف انك تحب أمك .

ـ وأحبك أيضًـا .

ـ أعـرف .. وأعرف إنك لا تفـارق أمك لا ليـلاً ولا نهارًا .. وإنك رجل البيـت .. ولكن ياولدى إذا ظللت طول الـوقت تقول : ماما قالت .. ماما قررت .. مـاما هى التى تعرف .. فإن الناس يشعرون بـانك طفل صغير لا رأى لك ولا شـخصية وإنك مـربوط فى فستان أمك .. وإنك تمشـى وراءها كالقط أو كـالكلب .. وأنت الآن يا ولدى كبرت . سوف تصبح رجلاً .. وأنت تقرأ وتحفظ وتسمع من الرجال كلامًا لا تسمعه فى مجالس السيدات .. وأنا حريص على أن تكون مثل الرجال .. فلا تقل أبدًا من رأى ماما كذا .. وليس من رأيها كذا.. وإنما يجب أن تقول رأيك أنت .. حتى لو كان ذلك هو رأيى أنا أو هو رأى أمك ..

ـ ولكن يا بابا أنا ليس لى رأى ..

ـ لا .. لك رأى .. مثلاً أنت اليوم ذهبت واشتريت بعض الكتب دون أن تستأذن ماما .. وأنت اليوم لم تذهب إلى تقديم واجب العزاء فى إحدى قريبات ماما .. هى قالت لك : اذهب فورًا فأنت قررت أن تذهب مساء . وأنت قلت لها إنك تناولت طعام الغذاء ، مع إنك لم تأكل ولكنك خشيت أن ترهق ماما فتترك فراشها وتقوم بتسخين الطعام .. كل هذه قراراتك إنت دون الرجوع إلى ماما ..وانت لم تخطئ فى أى قرار منها .. ثم إن ماما طلبت منك أكثر من مرة ألا تأتى بالمطرب الغلبان الذى يعجبك صوته .. ولكنك لم تطع ماما .. وأنت لست غلطانًا فى ذلك .. فلا ضرر أن تسمع إلى صوت جميل .. فأنت لك رأى ولك قرار ولك شخصية .. وسوف تقوى شخصيتك وتصبح مختلفًا عن ماما وبابا .. وهذا طبيعى يا ولدى .. وهل نسيت اننا كنا نحملك على أكتافنا ، لأنك لا تعرف المشى .. وهل نسيت إنك كنت تحبو على الأرض وتتساند على المقاعد .. والآن انت كبرت وتمشى دون أن تتساند على شىء أو على أحد .. لقد كبرت وسوف تكبر أكثر وتنضج وتبتعد وتعلو وتسمو . هذا طبيعى يا ولدى !

الله على كلامك يا بابا .. تقوله فى رقة وفى لطف .. ودون أن يبدو كأنه نصيحة . ودون أن يعمق عندى أى شعور بالغلط أو الندم .. ولذلك فإن الناس يحبون والدى .. وأنا أيضًا أكثر وأعمق ! .

* * *

لا أمى قالت لى ولا أبى ما الذى يعمله أبى فى هذه الدنيا ..

وكان التلامذة فى المدرسة يسألون : محام ؟ طبيب؟ مهندس ؟ فلاح ؟ تاجر ؟ ضابط ؟

وكنت لا أرد وأحيانًا أقول : لا أعرف ! .

أو أقول : سوف أسأله فى المرة القادمة ! .

أو أقول : لن أقول لأحد منكم . انتم خمنوا ماذا يعمل ؟

أو أجد إجابة مسلية : إنه رجل محترم .

ولكن تلاحقت الأسئلة : ولكن الرجل المحترم ماذا يعمل ؟

أو أقول : نعم إنه محترم . إنه يعرف سرسق وساسون وعزيز بحرى وإسماعيل صدقى باشا وعبد الفتاح يحيى باشا والوكيل باشا ومغازى باشا .. وعدلى يكن باشا .. ونعمت هانم يكن .. وعز الدين بك يكن ..

وكانت هى الأسماء التى يكررها والدى إذا جلس إلى الرجال .. فكل هؤلاء من أصحاب الأراضى الواسعة .. ولما سألت عن عمله . ضحك وقال : ياه .. لم يقل لك أحد يا ولدى .. هاها .. إنها غلطتى .. أو غلطة ماما .. تعال يا ولدى ! إنت عندك كم سنة الآن ؟ عندك أحد عشرى ، تعال .. سوف أقول لك كل شىء .. حتى لا تضيق بمن يسألك من زملائك فى المدرسة ..

وأخذنى والدى إلى الاصطبل .. وركب هو حصانًا وساعدونى على أن أركب حمارًا .. وسار وراءنا ثلاثة من الخفراء وهم يقولون لوالدى : نعم يا حضرة المأمور .. أمرك ياحضرة المأمور .. على عينى يا جناب المأمور .

وكان والدى يركب حصانًا جميلاً .. نحيفًا رشيقًا بنى اللون طويل الشعر .. وكان يسمى حصانه « سرور » .. وكان إذا ناداه رفع رأسه وتوقف .. وأحيانًا كان يناديه فيجىء إليه .. وكان يعطيه قطع السكر التى وضعها فى قرطاس فى جيبه .. وكان يرتدى البدلة دائمًا والبرنيطة الكبيرة لوقايته من الشمس .. وكان إذا رآه الناس وكانوا جالسين وقفوا ودعوه إلى الشاى أو دعوا له .. وإذا كانوا يعملون توقفوا . وإذا كانوا يأكلون وإذا كانوا يشربون..

وقال والدى : هذه الأرض كلها تملكها أسرة عدلى باشا يكن وكان رئيسًا للوزراء .. كان شخصية كبيرة . وأنا هنا الذى يأمر الفلاحين بزراعة الأرض وريها وجمع المحصول وبيعه وإعطاء المرتبات للعمال والفلاحين .. وبقية الفلوس أسافر بها إلى القاهرة وأعطيها لدولة الباشا .. فأنا هنا أعمل بالنيابة عن الباشا .. أنا هنا أكبر من العمدة ومن مأمور المركز ومن طبيب المركز .. أنا مأمور تفاتيش عدلى باشا يكن .. أنا لا أضع يدى فى الأرض ولا أبلها بالماء ولا أستخدم المحراث ولا الساقية . الفلاحون هم

الذين يعملون طبقًا لأوامرى .. هذه وظيفتى . هل عرفت . هل هو عمل محترم .

ـ جدًا . عظيم . أكبر واحد فى هذه الدنيا ..

ـ هاها .. هل أنت سعيد ؟

ـ نعم .

ـ هل تحب أن أجمع لك زملاءك فى المدرسة لتقول لهم ذلك ؟

ـ أنا سوف أقول لهم ..

ـ وأنا أسافر لأن الباشا له أرض أخرى فى أماكن مختلفة من مصر .. ولابد أن أذهب لأتفقد الزراعة والمحصول وجمع الأموال ..

* * *

لم تفلح الحياة فى الريف أن تجعلنى أحب الريف .. أو أطيل النظر إلى هذه الأشجار أو أتابع الطيور .. أو أتعلم صيد الأسماك ..

فلم تكن حياتنا فى الريف طويلة مستقرة .. وإنما كل شىء طريق نمر به أو نقطعه أو نتخلص منه أو نفرغ من طوله وعرضه ، ذهابًا أو إياباً من مكان آخر ..

ولم أحتفظ بكل هذه الألوان فى عينى .. ولا بكل هذه الموسيقى اليومية فى الريف .. فأنا لا أريد أن تشدنى إليها .. أن تمسكنى .. وأنا الذى أريد أن أهرب منها .. فلا شىء يمسكنى .. لا شىء يربطنى هنا فأنا مثل هذه الأشجار منزوعة الجذور تسبح على وجه الماء .. فكل شىء يمكن أن أنفضه عن ثوبى لأنه تراب .. وعن عينى لأنه كالتراب وعن أذنى لأنه غبار .. فكل شىء يجب أن أتخلص منه .. فإذا جلست فلابد أن يلحق التراب بثوبى وبحذائى .. ولا يهب هواء لا يدفع التراب والتبن والدخان من كل اتجاه إلى كل اتجاه .. وكذلك الحقول والقنوات والطيور والبهائم والناس .. ولأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بما له فائدة .. فأنا أحفظ الطريق لأننى سوف استخدمه من البيت وإليه .. وأنا أعرف مكان الكوب ومكان الطبق ومكان الكتاب لأننى سوف أبحث عنها .. ولكن إذا كانت كل هذه الأشياء لن أستخدمها فما فائدة أن تحتفظ بها الذاكرة .. فلا أسماء القرى ولا أسماء

الناس ولا صورهم .. فما حاجة الذاكرة إليها ..

وعلى الرغم من إننى أعتمد كثيرًا على صور الأشياء عمومًا ، وعلى رائحتها .. فأتذكر الشارع برائحته والبيوت وأحيانًا الحجرات وأحيانًا الكتب .. فإن رائحة البرسيم والمياه والأماكن الرطبة تذهب من أنفى بمجرد الانتقال من بلد إلى بلد . كأنها عبء على دماغى.. كأنها صداع أو مغص .

وفى نفس الوقت فلا أنا أكره الحياة فى الريف ، ولا أنا أحبها أيضًا . وإنما أحبها عندما أراها . ثم إذا غادرتها نسيت .. ولا أشتاق إلى الريف .

وكذلك الناس أيضًا .. أحب أن أجلس إلى الناس . أسمعهم . أكلمهم .. ولكن إذا وجدتنى منزوعًا من عيون الناس وآذانهم ، أو وجدت الناس قد انسحبوا من عينى وأذنى.. فما الذى أفعله ؟ إننى لا أقدر على أن أوقف الدنيا عن الدوران .. ولا أن أوقف هذا الفراق المستمر .. أو الهجرة المزمنة .. أو الخروج أو الدخول .. وعندى إحساس أن كل شىء يتحرك بعيدًا عنى .. وأنا لا أملك أن أمد يدى إلى شىء ..إن ألمس شيئًا فلا يتحرك .. أو أوقفه أو أتدخل فى حركته بعيدًا أو قريبًا ..

وأحيانًا أحس كأننى مغطى بطبقة رقيقة من شىء ما .. هذا الشىء ما لا يجعلنى أحس بالأشياء .. وإنما بينى وبينها مسافة .. بينى وبينها حائل .. عازل .. كأننى أنظر إلى الدنيا من وراء منظار غليظ .. وأسمعها من وراء عازل غليظ .. وكأننى عندما أسير أو أتحرك فبدلاً من أن أمشى فى طريق مستقيم فأننى أدور حول نفسى أمام الأشياء ثم أتقدم .. كما تفعل الأرض حول نفسها أمام الشمس . وكل الكواكب تدور .. وأنا أيضًا !.

لماذا ؟ لا أعرف كيف تولد هذا الشعور وأستمر وأستقر ..

ولكن تعودت شيئًا لا أدرى ممن تعلمته .. فلا أمى تفعل ذلك ولا أبى ولكن اعتدت أن أسند ظهرى إلى الحائط وأتفرج على الناس من بعيد .. وأقول لنفسى هذا أطول من فلان وهذا أقصر وهذا أصغر .. وهذا أكبر .. وهذا له عينان واحدة أضيق من الأخرى .. وله كتفان واحدة أكثر انخفاضًا . وهذه الديوك وهذه الأرانب .. والأبقار والجواميس .. ولاحظت أن بعض الناس لهم ملامح الحيوان والطيور . وأن العشرة تجعل الكائنات

تتشابه فى سلوكها .. وكنت اعقد مقارنات بين الحيوان وصاحبه .. وبين الرجل وزوجته .. وكنت أتساءل بينى وبين نفسى إن كان فلانًا هذا قريبًا لفلان لمجرد التشابه فى الفم أو الجبهة .. أو الميل أثناء المشى .. وكانت بعض ملاحظاتى صحيحة ..

وانفتحت أمامى دنيا أخرى واسعة متنوعة : الناس ..

وأول مذكرات كتبتها كانت عن ملاحظاتى عن زملاء الدراسة وعن المدرسين وبواب المدرسة .. ثم رحت ألاحظ كل صديقات أمى وكل قريباتى وكل أصدقاء والدى .. وكنت أبالغ فى ملاحظاتى عن الناس .. وكأننى اكتشفت لعبة جديدة .. أو سلاحًا جديدًا أطلقه فى كل ناحية .. أو أستخدمه حيث لا ينبغى أن أستخدمه .. كنت فى بعض الأحيان استغنى عن الملعقة والشوكة وآكل بالسكينة فى قطع اللحم بالطول واستخدمها بالعرض كالملعقة والسكينة معًا .. وقد اكتشفت لعبة أخرى وهى اننى إذا نظرت طويلاً إلى وجوه الناس أو إلى عيونهم ، فإن الواحد بسرعة يقول · ماذا ؟ لماذا تنظر إلى وجهى هكذا ؟

وعرفت أن الناس يتضايقون ممن يطيل النظر إلى عيونهم أو وجوههم .. أو يركز عينيه على شىء معين .. ولاحظت اننا عادة ننظر إلى وجوه الناس بصفة عامة ، ولكن ليس إلى شىء فى الوجه بصفة خاصة ..

وبالغت فى هذه النظرات حتى ان إحدى السيدات شكت لأمى : الولد كبر .. إن له نظرات جريئة . يا ولد لا تنظر لى هكذا .. كأنك تريد أن تأكلنى ! .

وكانت النظرات هذه سلاحًا يضايق الناس ..

واكتشفت سلاحًا آخر أيضًا فى ترسانة الاهتمام بالناس وهو أن أنظر بعيدًا عن الذى يحدثنى أثناء حديثه .. فيتساءل : ألست معى .. ما الذى تنظر إليه هناك .. هل هذا الذى أقول لا قيمة له .. ولماذا تتركنى هكذا أنبح كالكلب بينما أنت لست معى ؟

أو لا يكاد واحد يتحدث إلىّ حتى أتركه وأنظر إلى حذاء أو بعض ملابسى وانشغل عنه تمامًا .. أو أتركه إلى أى شىء آخر ..

إن هذا يضايق الناس جدًا .. فمعنى ذلك إهمال وتجاهل تام .. فيشعر المتحدث كأنه لا شىء .. أو كأنه يتحدث إلى نفسه .. أو إلى حائط .. أو إنه لا يستحق أن يهتم به أحد ..

واكتشفت سلاحًا آخر هو أن أستمع إلى أى إنسان وأنظر إليه وكأننى أتابعه مع اننى فى الحقيقة شارد الذهن تمامًا .. فإذا حاول الشخص أن يسألنى ان كنت أتابع ما يقول .. فأؤكد له إننى سرحت بعيدًا عنه .. وإنه كان يهوهو طول هذا الوقت ..

وأسرفت كثيرًا فى استخدام « السرحان » أسلوبًا فى الوقاية من الناس ووجدته علاجًا للأحاديث المملة .. فأنا أتابع وفى الحقيقة لا أتتبع ما يقول .. ووجدت أن السرحان أحسن وسيلة لادخار الطاقة .. طاقة الرؤية والاستماع .. والاحتفاظ لنفسى بأكبر طاقة ممكنة.. والاحتفاظ بحقى فى أن أهرب من كل ما يضايقنى ..

وأصبح السرحان عادة سيئة .. هذه العادة أوقعتنى فى مشاكل كثيرة مع الناس . فأنا أقابل الشخص الواحد عدة مرات . وفى كل مرة أنظر إليه كأننى لا أعرفه . أو كأننى أراه لأول مرة .. ولذلك فبعض الناس يقول : طبعًا أنت نسيت من أنا .. أنا فلان ..

ويكون اهتمامى الشديد به ، دليلاً على اننى نسيته .. رغم انه قدم نفسه قبل ذلك عدة مرات .. وكثيرًا ما فوجئت بمن يقول لى : والله لن أقول لك من أنا .. فليس معقولاً إننى تافه لدرجة أن تراني عشرين مرة ثم لا تعرفنى مع اننا نسكن فى شارع واحد ! .

ووجدت أن هذا السرحان ينقذنى من مشكلة أخرى .. فنظرى ضعيف .. وأنا لا أستطيع أن أركز فى رؤية الناس ولذلك ليس من السهل أن أعرفهم .. ولذلك كنت ألجأ إلى أن أنشغل .. أو افتعل الانشغال لأننى لا أستطيع أن أرى بوضوح .. ووجدت حلاً لهذا المأزق وهو أن ابتسم لكل إنسان أعرفه أو لا أعرفه ويكون الابتسام تحية له كأننى أعرفه .. وحتى لا يكون الابتسام مقصودًا تمامًا كأننى أعرفه ، فإن الإبتسام يجىء مصحوبًا بشىء آخر .. كأن أنظر ورائى .. أو أنظر إلى شىء بعيد .. أى إننى عرفت الشخص ثم انشغلت عنه .. ولكنى لم أتجاهله ..

حتى هذا قد أوقعنى فى مشاكل أيضًا . فأجد من يقول لى : الله يا أخى انت تضحك لى كأنك لا تعرفنى .. طيب من أنا ؟

ولذلك كان من الأسلم أن أنظر من بعيد .. وتكون النظرة واسعة شاملة .. وتكون أحجام الناس أصغر .. ويكون إحتمال عدم وضوح الرؤية والخطأ كبيرًا . ولكن أدمنت

وأمعنت النظر إلى الناس .. وإلى العلاقات بينهم وأثرهم فى أعماقى .. فالناس فى أعماقى .. وهمومهم همومى .. ووسيلتى إلى معرفة نفســى وإلى معرفتهم أيضًا .. وأنا أستعين على فهم النــاس بالنــاس ، وأتأمــل الحيوان والطيــور والحشرات والزواحــف ، وكل ذلــك فى أعماقى .. أراهم بعينى ، وأراهم بعقلى وأتابعهم بخيالى .. إنها دنيا لا أول لها ولا آخر ولا مكان ولا زمان ولا حاضر ولا ماض ولا مستقبل .. إنهم هنا فى دماغى .. وهنا فى قلبى ..

١٤

كل يوم جمعة مساء نذهب من القرية إلى المركز ـ أنا وأخى الأصغر .. فنحن نسكن فى غرفة قريبة من المدرسة . وواحد من اخوتى الأكبر سنًا يرافقنا . يعيش معنا يرعانا ..

ونحن نركب حمارين ووراءنا غفير .. وأخى الأكبر يركب حمارًا . أما الغفير فقد وضع أمامه قفه بها طعامنا لبضعة أيام .. الخبز والكعك .. وبعض الأرز والسكر والشاى .. ثم حلة بها أرز بالفرن .. وبعض الفطير المشلتت ..

وكثيرًا ما كنت وأخى نصحو على أصوات غريبة فى الغرفة .. وننظر من تحت اللحاف فنجد القطط تتخاطف الأسماك والكلاب تتخاطف الدجاج المسلوق .. وتقلب حلة الأرز فى الأرض .. أما القطط فقد دخلت من النافذة . لقد نسينا أن نغلقها أما الكلاب فقد وجدت الباب مفتوحًا .. أما أخى الأكبر فهو سهران لم يأت بعد ..

ويتكرر ذلك كل أسبوع أو كل أسبوعين ..

ويوم الخميس بعد الظهر تجىء الحمير لتنقلنا إلى القرية .. الطريق طويل .. بين الترع والمصارف .. والليل له صوت غريب .. والكلاب تنبح بعيدًا وأحيانًا تقترب منا وتتسابق مع الحمير أو نتعلق بها ونرفع أرجلنا ونضعها أمامنا فوق الحمار وينزل الخفير لطرد الكلاب ويطلق النار فى إتجاهها .. وكان الخفير يغنى طول الوقت .. وينبهنى وأخى ألا ننام ..

وفى إحدى المرات ظهر من الحقول جماعة مسلحون وسألوا الخفير : من هؤلاء ؟

قال : أولاد جناب المأمور .

ـ من المأمور ؟

ـ الله المأمور عمك محمد منصور ..

ـ آه .. ونعم الناس . إنه رجل طيب .. مع السلامة ! .

ثم يختفون وسط الحقول وقد تعلقت الأسلحة من أكتافهم ..

وفى إحدى المرات وجدنا واحدًا راكبًا حمارًا وقد غطى وجهه وسأل الخفير : من هؤلاء؟

قال الخفير غاضبًا · أولاد المأمور ..

ـ عباس .

ـ لا .. المأمور بتاع عدلى باشا .

ـ عم محمد ؟

ـ نعم ..

ـ والله صاحب فضل علينا جميعًا .. والله لقد أعطانى مهر ابنتى من جيبه ورفض أن أعيد إليه مليمًا واحدًا .. ألف سلامة يا أولاد الأمير ! .

وفى يوم مرض الخفير ولم يستطع أن يرافقنا . فتطوع خمسة من الفلاحين ورافقونا إلى المركز .. أما أخى الأكبر فقد كان دائم السهر .. هو يخرج من هنا ، والكلاب تزورنا والقطط .. ثم هو يرجونا أو يحذرنا أن نذكر شيئًا من ذلك لوالدى أو والدتى ! .

أما المدرسة فهى فى نهاية الشارع .. وهى صغيرة . وأهم ما فى هذه المدرسة ناظر المدرسة وهو من أقارب والدتى .. وكان رجلاً متعاليًا مكروهًا من الجميع .. فالمدرسون عندما يتحدثون عنه يمطون شفاههم أو يهزون أكتافهم . ويتساءلون · ألم يكن واحدًا مثلنا فى العام الماضى ؟ فمن أين جاءت هذه العنطزة ؟ وكيف لا يحمل أوراقه .. إنما يتركها للساعى ينقلها إلى الفصول ذهابًا وإيابًا .. ثم إنه يضع يده فى جيب الصديرى إذا تكلم مع أحد.. وزوجته فى البيت تضربه بالجزمة ..

ولم أفهم فى تلك السن ما يقال عن مدرس إنه مسيحى .. شىء غريب أن أحدًا لم يقل ما معنى ذلك .. ولا ما هو الفرق بين مسيحى وأى مدرس آخر .. لم اسأل . ولم يتطوع أحد بأن يقول المعنى .. ومن الطلبة وجدت واحدًا اسمه جورج وقالوا مسيحى . ونظرت

إليه .. لا فرق بينه وبين أى طـالب آخر .. هو مـهذب أكثر .. ضــاحك دائمًا .. حريص على أن يكون منعزلاً ولكننى أجد فيه صورة منـى .. فأنا أيضًا إنطوائى .. وأفضل أن أجلس بعيدًا وأن أتفرج وأن أكتفـى بواحد فقط أتحدث إليـه .. ويكون الحديث عن الكتـب .. أما جورج هذا فهو يعرف أنواع الزهور والنباتات .. فأبوه يعمل فى العطور . وهو يساعده فى عمله كـل يوم بعد الظهـر . وقد دعانى أن أزوره فى المحـل . وكنت أحب أن أذهـب إليه .. وأجلس فى داخـل المحل وهو يتحـدث إلى الناس ويعرف كـل الزبائن ويتحـرك بسرعة .. فيأتى بالزجاجات الكبيرة ويفـرغها فى الصـغيرة . ويفتح درج الفلوس . ويكتب فى ورقة . كل شـىء يتم بمنتهـى السرعة . وله حكاية مع كل زبـون .. وليس على لسانه إلا كلمات : حاضر .. من عينى .. تحت أمرك .. نورت .. شرفت .. ألف سلامة .. غدًا تدفع على أقل من مهلك ! .

وكنت مبهورًا بجورج هذا .. فمن أين يـأتى بهذه الكلمات . وكيف يعرف كل الناس ، وكيف يحب كل الناس . وهـم أيضًا يحبونه .. فإذا جاء أبوه تغيرت معالم وجهه . وأصبح إنسانًا آخر . وخرج من المحل وأتابعه لكى يترك مكانه لوالده .. فإذا سرنا فى الشارع عاد تلميذًا يتكلم عن التلامذة الآخرين وعن المدرسين وعن الكتب وعن الكراريس . وعن بنات الجيران .. فلانة وفلانة .. ويسألنى إن كنت أعرف واحدة منهن . فلا أعرف . ويندهش .. إن فلانة تراك كـل يوم وأنت خارج وتقول إنك فى غايـة الأدب .. وإنها حاولت أن تكلمك ولكن وجهك أحمر ورفضت حتى النظر إليها .. وهـى حزينة لذلك فلماذا .. وهو ينبهنى إلى ما يجب أن أعمله .. وكيف أحدثها .. وأين وبعيدًا عن الناس . وعنده خطابات وعبارات وأساليب وحيل ..

وماذا أقول لو رآنـى والدى أو والدتى أو حتى والدتها .. وخصـوصًا أخوها الأكبر .. ومن هى أقـرب الصديقات لها والتى تسكـن فى البيت الملاصق لبيتنا . ويمكـن أن أبعث معها برسائل مـن كل نوع .. إنه شخصيًا يفعل ذلك.. وهو يعـرف عددًا كبيرًا من البنات لأنهن جميعًا صـديقات أخته وزميلاتها فى المدرسـة .. وحكى لى المطبات التى وقـع فيها وكيف خرج منها ..

وكان لنا زميل إسمه لـويس .. ونصحنى بأن ابتعد عنه لأنه شديـد التدين وهو يرى أن كل شىء فى الدنيا حرام .. الوقوف مـع البنات .. ومجرد النظر إليهن .. ثم إنه يريد أن يكون قسيسًا عندما يكبر .. وسألنى : طبعًا انت عارف أن يكون الإنسان قسيسًا ؟

ولم أكن أعـرف ولكنه أوضـح لى ذلك بأن قـال : تمامًا كما يذهـب الناس عنـدكم إلى الأزهر ويكون شيخًا ! .

وجاءت كلمة « عنـدكم » هذه غريبة .. أو كـانت مثل سكين قطع شيئـًا بينى وبينه .. عندهم وعنـدنا .. هم ونحن .. قسـاوسه ومشايخ .. شـىء غريب أن يقول ذلـك بسرعة ودون أن يتنبه إلى أثرها فى نفسى ..

وكنا نقف بـالقرب من باب المدرسـة نتفرج على خادم ـ يقـولون إنه خادم ـــ مع انه يشبه أى واحد منا تمامًا فى ملابسه .. وهو صـغير ونظيف ومؤدب .. وهو يحمل سلة من الطعـام لاثنين مـن التــلامـذة .. وفى هـذه السلـة حلـل صغيرة وأكـواب وفـاكهـة .. وسندوتشات..

والمدرسة لها حوش كبير نلعب فيه الباسكـت بول .. وحوش صـغير وضعت فى جانب منه منضـدة البنج بـونج .. وكـل الفصول تطـل على الحوش .. وهى أعلى مـن مستوى الحوش . ولـذلك يصعـد لها بسلالم . هـذه السلالم مكسرة وقـذرة . وإن كان السعـاة يرشونها بالماء.. وخصوصًـا الفصل الذى سوف يدخله حضرة الناظر ..

وعندما رآنى حضرة الناظر قال لى :

احضر والدك غدًا ..

ثم دخل مكتبه بينما ظللت أبكى طول الطريق إلى البيت . فأبى ليس هنا . ولم أستطع أن أقول لحضرة الناظر .. ولا أعرف ما الذى سيفعله إذا لم يأت والدى غدًا ..

وفى اليوم التـالى قالوا إن حضرة الناظـر مريض . ولم يأت وحمدت ربنـا وتمنيت أن يظل كذلك حتى يجىء أبى ..

وسألنى والدى : إن كنت أحب أن ألعب الباسكت ..

فقلت : لا .

ـ ولا البنج بونج ؟

ـ لا ..

ـ ولا أن تشترك فى فريق الموسيقى ؟

ـ لا .

ـ غلط يا ولدى .. لا تكن وحدك . يجب أن تشارك فى كل شىء .. فيكون لك زملاء وأصدقاء وتدب الحيوية والانتعاش فى حياتك .. فأنت شاحب الوجه وأنت لا تأكل كما يجب لأنك لا تمارس أى نشاط يفتح الشهية على الطعام والنوم العميق وأن تكون فى اليوم التالى أكثر حيوية .. لقد قلت لحضرة الناظر إننى أريدك أن تشترك فى كل شىء .. ثم إنك أول المدرسة .. لا تخف إن هذا لن يعطلك عن التفوق .. صدقنى ! وأنا لا أحب أن تكون متفوقًا مريضًا هزيلاً .. إن الطريق أمامك طويل يا ولدى .. طويل جدًا يجب أن تمشى فى طريقك بصحة وعافية وأعصاب هادئة وحب للعلم والحياة والناس .. يجب ياولدى ..

وكانت والدتى تعارض فى كل ذلك .. لأنها مصاريف لا لزوم لها .. ولأنها تشغلنى عن المذاكرة .. ولأننى كثيرًا ما تشاجرت مع زملائى فى المدرسة .. وإننى مثل خالى وأمى لا أعرف كيف أتشاجر .. وإننى أبدو ضعيفًا . وهذا الضعف يشجع التلامذة بالاعتداء علىّ لأننى لا أخيف أحدًا.. ولأنهم يحقدون على تفوقى.. فأنا أذاكر وأقرأ ولا أشارك فى اللعب..

والمدرسون يقولون دائمًا : إن اللعب سوف يذهب بهم جميعًا فى ستين داهية .. أنا وحدى الطالب الذى سوف يكون له مستقبل .

وكان ذلك يضاعف غيظ التلامذة وتحرشهم وتربصهم .. وإلقاء الحبر على كتبى والطوب وأحيانًا الوحل ..

ثم إننى لا أشكو لأحد ..

وإن كان بعض التلامذة يتطوعون نيابة عنـى .. فإذا علم المدرسـون بذلك . استدعوا التلامذة الـذين ضـايقونى فـأداروا وجوههم إلى الحـائط .. ثم طلبـوا منى أن أصفعهم أو أضربهم بالشلوت .. وكنت أرفض ذلك ـ فيتولى المدرس ذلك وبمنتهى الشدة ! .

وكانـت مدرسـة البنات مـلاصقة لمدرستنا .. فكنـت أرى البنات تنظـر من النـوافذ وأحيانًا المدرسات .. وعرفت من عزيز أن المدرسات يعاكسـن المدرسين .. ولم أفهم .. وانه رأى واحدة منهن تلقى بخطاب لمدرس الألعاب الرياضية .. وأن هذا المدرس يسكن وحده فى آخر المدينة .. وأنه رآها ليلاً وقد غطت وجهها وهى تتجه إلى بيت هذا المدرس .. ولم تعد إلى بيتها إلا فى ساعـة متأخرة .. وأنه ظل يلف حـول البيت حتى يتأكد مـن ذلك.. وسار وراءها وأنه على يقين من كل كلمة ..

ولكنى لم أر تلميذة واحدة من هذه المدرسة لا دخولاً ولا خروجًا . وهزنى عزيز قائلاً: طبعًا لأنك أعمى ! .

كأننى لا أمشـى فى الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. أو أدور مثـل الجاموسة فى الساقيـة .. وقد غطوا عينيها .. أو أنها لا تنشغـل بشىء غير الدوران فى الساقيـة .. وأنا وضعت كتـابًا على هذا الجانب مـن الوجه وكتـابًا على الجانب الآخر .. أو اننـى أنظر إلى الدنيا بعينى أمـى .. وأعصابها .. ولذلك فدنياى خالية تمامـًا .. أو يجب أن تكون فارغة من كل أحد ومن كل شىء .. وإننى مربوط بحبل .. أو بأستك من الجلد .. وكلما ابتعدت عن البيت شـدنى بعنف .. ولذلـك أخرج بصعوبة مـن البيت ، وأعود إليه بسـهـولة .. إن الجاذبية التى تشدنى ليست من تحت قدمى .. ولكنها من أنفى .. من شفتى .. من شعر رأسى ..

وأدرك والـدى كل ذلـك فى الساعـات القليلة التـى نقعـدها معـًا . ولذلـك يحاول أن يوقظنـى.. أن يهزنى لكى أصحو .. أن يستخـدم السكين ليفتح عينى بـالقوة .. أو يكسر الشرنقة أو المحارة التى أقبع فى داخلها ..

ولكنه كان فى غاية الرفق ..

أما طريقته فهو أن أصاحبه إلى رؤية أناس أكبر سنًا وإلى الاستماع إليهم .. دون أن ينبهنى إلى الذى أسمع أو الذى يقصدون من وراء حكايتهم .. ونوادرهم .. ولا حرج على أن أعرف أولادهم الصغار والكبار وحتى البنات وحتى زوجاتهم .. وأن أذهب إليهم دائمًا وحدى ، ولا داعى لأن أنتظر والدى حتى يجىء ..

إن والدى قد زرعنى بقوة فى أرض هؤلاء الأصدقاء ـ أصدقائه هو ..

١٥

أما كيف يختار والــدى أصدقاءه ، فأنا لا أعرف . ولكن يكفــى أن يلتقى بأى إنسـان . كلمة مــن هنا وكلمة مــن هناك . وحكاية . ووالـدى عنده حكايـة مضحكة لكل مـوقف . وبسرعـة يجىء مقعد لكــى يجلس عليــه والـدى . وأجلس أنـا أيضًا . ويجىء الشــاى بالنعناع.. وبسرعة يتم الاتفاق على لقاء ..

لقد رأيـت اناسًا صــادقهم والـدى . ولم يكن يعرفهــم . ولكنه يلقى تـرحيبًا مــن كل الناس. وأنـا أحب أن أنظـر إلى وجه والـدى . إنه لا يكـاد يقترب من أحـد حتى يضــىء فالابتسامة جاهزة .

والحكايات والنوادر والآيـات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعـر كلها جاهزة عند أية إشارة منه ..

فإذا اشترى والدى فـالبائع سعيد بأن يقدم لـه أحسن ما عنده .. ويعتـذر عن قبول الفلوس . وكان والدى يرفض .. فكان البائع يعطينى الفاكهة والحلوى فوق البيعة ..

فى ذلك الوقت كان أهم أصدقاء والـدى شيخ المسجد .. إنه على موعد معه دائمًا . يدق بابه . ويخرج الرجل وقد إرتدى جلبابًا وقد شمر عن ذراعيه : اتفضل اتفضل .. يا مرحبا يا مرحبا .. هلت روائح النبى .. أهل البركات والخيرات .. أهلاً ومرحبا ..

ويفتح لنـا الباب . ولا يكـاد يرانــى حتى يقول : أهــلاً بالحبيـب ابن الحبيـب .. أهلاً بباكورة الخير ..

وندخل فوالدى يعرف الغرفة التى نجلـس فيها .. ثم يظهر امام المسجد وهو يضحك

قائلاً : يـا سيدى انـه شغل البيـت .. الست بعـافية .. ولابـد أن أغسل الأطبـاق والحلل وملابس الأطفال .. الحمـد لله على الصحة والعافية .. طبعًا شـاى بـالنعناع . وأثناء عمل الشاى أكون قد غيرت ملابسى وجئت بالملابس التى تليق بالمقام ..

وفى الصالون تمتد يد والدى إلى الكتب يقلبهـا .. وينسى وجودى .. هل أنا أخذت عنه هده العادة .. ثم يقرأ بصوت هامس .. ويهز رأسه .. ويبحث عن كتب أخرى .. ويبدو إنه يعرف معظم هذه الكتب ..

ويجىء الشيخ بالجبة والقفطان والشاى والأكواب الصغيرة .. والرجل طويل نحيف أسمر وصوتـه غليظ .. وإذا تكلم فكأنـه يخطب . وإذا ضـحك كانـت ضـحكته مجلجلة .. وله شكوى :

والله يا محمد يـا أخويا الناس ميتة على الـدنيا .. نريد إصلاح المسـجـد ولكن أحدًا لا يتبرع بمليم واحـد .. الرائحـة كريهة تضايـق المصلين .. والفئران تقفـز من كـل مكان والثعابين تطاردهـم والناس يهربون من الصـلاة . ومنذ أيام قفز فـأر صـغير أعمى أو مريض لا أعرف فإذا بـه يتعلق بالجبة وأنا لم أشعر بذلك فوجدت ثعبـانًا واقفًا أمامى .. فلم أملك إلا أن خرجت من الصلاة والناس ورائى .. ووجدت الفأر فى جيبى ..

ويقول إنه عمل بنصيحة والدى وذهب إلى بعض الأغنياء . ولكن كل واحد وضـع يده فى جيبه ودفع مبلغًا تافهًا . لولا أن والدى أقنع الباشا بدفع مبلغ من المال لبياض المسجد، لظل مظلمًا كأنه كهف أو مقبرة جماعية ..

والتفت شيخ المسجد ناحيتى وقال لى اسمع يـا ابنى إياك أن تفكر فى أن تكون إمامًا لمسجد أو خطيبًا ..

وحكى لنا كيف انـه سمع ابنه الصغير يقول لزملائه الأطفال إنـه عندما يكبر سوف يكون له مسجد أكبر وانـه سوف يكون إمامًا مثله .. فضربه علقـة حتى لا يعود إلى هذه الأمنيات التعيسة مرة أخرى ! .

ولما حكيت لأمى هذ ه القصة كانت تدفعنى أن أذهب إلى بيت إمام المسجد وأن أجلس مع أولاده وأن أستمـع إليه .. لأنـه رجل طيـب ـ ومـن النادر أن تصـف أمى أحـدًا بهذه الصفات الفريدة ..

١٦

وفى الطريـق إلى بيت القاضـى الشرعى كان والدى يقـول لى . إنه رجل طيـب . ولكن طريقتـه فى الكلام لا تـدل على إنه رجـل غليظ القلـب .. إنه لا يعـرف كيف يضحـك فلا تغضب منه

كل مرة ينبهنى ويحذرنى . وكل مرة أعود فى ضيق من هذا الرجل ..

ودق والدى الباب . وراح ينادى : يا فضيلة الأستاذ .. ضيوف ..

ويجىء صوته غليظًا عالياً من الداخل : أهلاً بالضيوف .. تفضلوا يا مرحبا ..

وتجىء خادمة تفتـح الباب ويكون هو واقفًا وراءها .. العمامـة كبيرة والجبة سوداء والقفطان أزرق مخطط بالطول .. وهو طويل وله كرش كبير ولا يكاد يرانى حتى يقول: ادخل انت يا ولد .. واذهب اجلس مع العيال .. ادخل ! .

وكنت لا أحب أولاده .. إنهم خمسة . إذا دخلت فإنهم يمضـون فى الكلام وكأننى لست موجـودًا .. حتى تجىء الأم وتطلب منهـم أن يشركونى معهـم فى الكلام .. وهم يـأكلون دائمًا .. كل واحد قد ملأ جيبه ببلح أو جوافة .. أو بعض الفطير المشلتت .. أو بعض الفول الأخضر .. يتكلمـون ويأكلـون ويتشاجـرون .. ومـن الحين والحين يقترب واحد منهـم ويسألنى : لماذا لا تظهر .. إننا نلعب بالقرب من بيتكم ..

ويتساءلون .. وهل أنا مريض .. أو كنت مريضًا ! أو هل صحيح أن أختى ماتت .. أو إنها خالتى ؟

أو هل صحيح أن الذئاب هاجمت الدجاج فى بيتنا وأن والدى قتل واحدًا من الذئاب ؟

ومن بعيد يجيء ـ عادة ـ صوت القاضى وينادى : تعال يا ولد .. ابعثوا به .

وتجيء الخادمة وتنتشلنى من بين هؤلاء الأطفال لأجلس مع والدى والقاضى .. ويكون القاضى هو المتكلم دائمًا : عيال عفاريت .. انت لا تعجبهم ، ولا هم يعجبونك .. انت هادئ .. انت تحب القراءة وهم يحبون الأكل مثل أبيهم ومثل أمهم أيضًا .. هذا الكرش من كثرة الأكل وقلة الحركة .. إياك أن تكون قاضيًا شرعيًا حتى لو قطعوا يديك ورجليك .. انت صغير لا تعرف .. ولكن بابا عنده فكرة .. إياك يا ولد .. خذها منى .. إياك!.

تصور يا سى محمد ـــ يقول لوالدى ـ الولد الكبير يريد أن يقرأ فاتحة بنت خالته .. وأمه تشجعه على ذلك .. الولد الكبير فى الابتدائية .. ويا عالم هل سينجح .. المصيبة ان أمه وخالته متحمستان للفاتحة .. مصيبة والله .. العيال اتجننت والأمهات أكثر جنونًا .. ومع ذلك لا أجد كلامًا أقوله لمراتى وأمها .. والمصيبة ان كل الأسرة سعيدة بقراءة الفاتحة ! .

وسأله والدى : وأنت يا سعادة القاضى ماذا فعلت فى هذه القضية .. البنت صغيرة حقًا والولد صغير .. والكل متحمس لهذا الغلط .. وأنت أبو القانون ماذا فعلت ؟

ووقف القاضى يقول : وهل تظن اننى أعمل قاضيًا فى البيت ؟

إن البيت مكان للاتهام .. أنا متهم دائمًا .. متهم من أولادى بالقسوة ومن مراتى بالاهمال .. وهم جميعًا القضاة .. وأنا الوحيد الذى فى القفص .. علم ابنك ألا يتزوج إذا كبر .. والله العظيم ثلاثا لولا اننى قاض شرعى ما تزوجت يومًا واحدًا .. وإذا ارتكبت حماقة الزواج ما أنجبت كلبًا واحدًا من هذه الكلاب التى تنهش صحتى ومالى وراحتى كل يوم ! .

وفى الطريق كان والدى يقول لى : إنه رجل ظريف ..

كأنه يريد ألا أصدق ما سمعت ، أو ألا أهتم باعادة التفكير فى ذلك .. وألا أنقله إلى والدتى ! .

١٧

وكنت ألاحظ أن والدى يتثاقل وهو فى طريقه إلى بيت ناظر المدرسة وهو من أقارب والدتى .. ويبدو أن والدى كان يلاحظ أننى أيضًا لا أحب هذا الرجل .. لا أحبه ولا أخافه. فكان يقول لى : إنه رجل جاد .. ولا يمكن أن ينجح إنسان فى إدارة عمل إلا إذا كان جادًا . وإذا هو ضحك مع الذين يرأسهم فإن احترامهم له يكون أقل .. ولذلك يجب ألا يسرف فى الهزار أو المداعبة .. أنا شخصيًّا لا أستطيع أن أكون كذلك .. ورئيس أى عمل يحتار بين أن يكون مخيفًا وبين أن يكون محبوبًا .. والمخيف لا يحبه الناس ، والمحبوب لايحترمه الناس .. وأنا لا أحب أن أخيف ! .

ونصعد الدرج . وتمتد يد والدى تدق الباب رغم انه مفتوح دائمًا .. ولا يجىء أحد للرد على القادمين بسرعة .. إنهم يتركونه واقفًا بعض الوقت . لماذا ؟ هذا ما يحدث فى كل مرة . ويظهر حضرة الناظر . إنه أبيض طربوشه قصير أحمر . ومنظاره زجاج أبيض . وشاربه يغطى جانبًا نحيفًا من شفته العليا . وصوته أجش .. والسيجارة دائمًا بين أصابعه ..

وهو يتكلم بعض الوقت أمام الباب قبل أن يقول : تفضلوا .. وفى الدقائق التى نقفها أمام الباب تكون أفراد أسرته قد انتقلت من مكان إلى مكان .. سيدة ممتلئة وفتاة وطفلة وخادمة ..

ثم يتلفت حضرة الناظر وراءه ويقول · الآن تفضلوا .. وانت ؟

يقصدنى أنا .. أى اننى جئت مع والدى . جئت أو ما كان يجب أن أجىء .. وتكون

هذه البداية كافية لأن أنكمش فى مكان إلى جوار والدى ولا أرفع رأسى . لا أقوى . ولعلى لا أسمع أيضًا . فوالدى يتحدث عن لقائه بعدد من الناس هم أقارب حضرة الناظر . ويدخلان فى مناقشات طويلة عن الأرض والمحصول . ويقول حضرة الناظر دائمًا : ولكن المحصول عندنا هذا العام أفضل .. والدودة أقل . طبعًا انت عارف؟

يقصدنى . وبسرعة يرد والدى فيقول . أبدًا . لن يعمل فى إصلاح الأرض . ولا فى زراعتها . ولا الجرى وراء الذى دفع والذى لم يدفع .. ووراء الدودة واللطعة .. وينزل المصرف إلى الترعة .. ويتغذى عند الساقية ووراء الشادوف .. أبدًا .. وإحساسك طول الوقت انك تطارد الناس بكرباج لكى يدفعوا ما عليهم .. والناس لا يريدون أن يعطوا كما أخذوا .. بل أن يأخذوا ويأخذوا .. وينسوا حق صاحب الأرض .. وإذا أنا تغاضيت اتهمك صاحب الأرض بأنك متهاون .. وإذا أنا تشددت اتهمك الفلاحون بأنك بلا قلب .. فأنت متهم دائمًا . ولا أستطيع أن أمسك العصا واضرب الناس .. فلا هم تلامذة ولا أنا ناظر مدرسة .. أبدًا ابنى هذا لن يعمل فى الأرض .. بل سوف يعيش بعيدًا عنها ألف كيلو متر .. أنا كنت قد حكيت لك عن الخولى .. انه شاب نصف متعلم .. أنا الذى أتيت به . وأنا الذى ساعدته على الزواج .. وأنا الذى طلبت من الباشا أن يساعده .. واخترت له العروس وكان أهلها يرفضونه تمامًا .. وأقنعت أهلها . وتزوج والحمد لله . هل تعرف ماذا حدث .. لقد كتب خطابًا طويلاً إلى الباشا يقول فيه إننى اتفقت مع الفلاحين ألا يدفعوا الإيجار بدعوى أن الباشا لديه فلوس كثيرة .. مع أن كل شىء مكتوب ومحسوب .. الذين دفعوا والذين سوف يدفعون والذين طلبوا التأجيل بعض الوقت .. والباشا أعطانى الخطاب . وواجهت الخولى .. فبكى وراح يبوس يدى ورجلى .. ولأن الباشا يثق فىّ تمامًا فقد فصله!.

ووقف ناظر المدرسة وقد وضع يديه فى الصديرى وقال مهددًا . إياك أن تكون قد طلبت من الباشا أن يعفو عنه .. إياك .. فأنت تفعل ذلك عادة .. وتلقى أسوأ النتائج ..

وقال والدى : هذا ما حدث فعلاً ..

فقال الناظر : وهل وافق الباشا ؟

والدى قال : طبعًا لا

جلس الناظر وهو يقول : معه حق . وهذه هى الأصول ! .

والتفت لى الناظر وهو يقول : إياك أن تتعلم من والدك هذه العادات السيئة .. والدك طيب زيادة عن اللزوم ! .

ولأول مرة أسمع والدى يتكلم عن نفسه .. وأول مرة أسمعه يشكو الناس . وأن نقطة الضعف فى والدى انه رجل طيب .. وانه متسامح .. وإن الناس أشرار .. فهل هذه هى الأسباب التى تجعل الأدب والذوق والعطف على الناس هى مصدر الفقر .. هل هذا ما تقصده والدتى وقريباتها عندما يتحدثن عن الفقر .. فقرنا .. فكل من هو فى مثل أخلاق والدى ، هو الذى يعيش ويموت فقيرًا ! .

١٨

وقبل أن يصل إلى بيت حضرة مأمور المركز يستقبلنا عدد من رجال الشرطة .. وكلهم يرفعون أيديهم بالتحية .. وهم جميعًا يعلمون العلاقة التى بين والدى وحضرة المأمور .. وكل يؤكد له أن حضرة المأمور موجود وفى انتظاره من ساعة .. وأن والدى قد تأخر .. وأنه لا أحد هناك سوى إخوة الهانم .. وإنهم جميعًا فى انتظار والدى .. والمكان نظيف .. والبيت وسط حديقة .. والإضاءة قوية .. وكل من تقع عليه العين فمن رجال الشرطة ..

أما حضرة المأمور فقد ارتدى ملابسه الرسمية .. متوسط القامة صعيدى أصلع وفى جبهته وشم أزرق وفى ذقنه أيضًا ... وله شارب غليظ مقسوم نصفين تحت الأنف ..

وقبل أن يرانا يقول : أهلاً وسهلاً .. يا ليلة بيضاء .. أهلاً والله لك وحشة يا محمد افندى .. والنجل العزيز معك . أهلاً زارنا النبى ..

ويتعانق الرجلان .. ويمد يده ناحيتى ويداعب شعرى ويمسك أذنى .. ويتقدمنا قائلاً : البيت بيتك والناس أهلك .. تحب تشرب ماذا ؟ وتأكل ماذا ؟ .. تستاهل الدبح ! هاها . هاها ..

ويمضى قائلاً : نحن قد ذبحنا الأوز والبط .. ونحن مستعدون نذبح خروفًا هل استدعى لك شيخ البلد .. إنه رجل سيئ . وأنا صدقت كل كلمة أنت قلتها .. إنه رجل كذاب مخادع ورجل بخيل ولص .. ولا أعرف كيف عاش طويلاً فى هذا البلد إلا إذا كان الذين معه من اللصوص .. وفعلاً كلهم لصوص . وأنا مسكت هذا الكلب الوسخ وقفلت عليه .. وضربته وأبكيته حتى عرفت منه الحقيقة .. الحقيقة مؤلمة .. يا سيدى أقدم لك

الدكتـور فتحى .. وهو الأخ الأصغر لـزوجتى .. لا .. لا .. الأخ الأكبر .. زوجتى مـا تزال صغيرة أصغر من جميع أولادها الذين تجاوزوا العشرين .. هاها .. هاها .. هذه تعليمات زوجتى بالحرف الـواحد .. إنها أصغر منى بـأربعين سنة .. وأصغر من أولادهـا جميعًا بخمس سنين .. هاها .. هاها ..

ثم يتصـدر حضرة المأمور الصـالون ويلتفـت لوالـدى ويقول لـه : ماذا صنعـت فى الحيوان الوسـخ الذى يتزوج كل يوم واحـدة ويطلقها . وهل طردته مـن العزبة ؟ إذا لم تكن قادرًا فأنا مستعد لذلك تمامًا . فهو المسئـول عن الجريمة التى وقعت من ثلاثة أيام عندك .. عندك فى القرية .. عارف طبعًا ! .

ولكن والدى أكد له انه لم يسمع عن جريمة . ولا أحد قال له ذلك ..

واندهش المأمور ، وقال لـوالدى . خافوا منك .. فأنت قد دافعت عـن هذا الرجل وأنت غلطان يا محمد افنـدى .. إنه لص حتى لو كان عنده مـائة طفل وعشرون زوجة .. وكان مصابًا بألف مرض .. الذى أفهمه إنه لـص وانه قاتل فنحن أولى به .. المحاكم والسـجون هذا هو الـذى أفهمه .. إن هذا المجرم طلب من الـداية وهى تولد البنـت مبروكة . مبروكة بنت العمدة التى رفض أن يزوجها له .. طلـب منها أن تدخل فأرًا صغيرًا فى بطن البنت .. وبعيد عنك هذا الفأر بهدل الدنيا .. وماتت البنت هى والمولود .. مجرم حقيقى ! .

تولانى الـرعب وأنا أنظر إلى وجه المأمور الـذى لم يتغير وهو يحكى عشرات الجرائم بنفـس الحماس . ووالدى وكـل الحاضرين لا يعلقـون بشـىء . فهو الـذى يتكلم طـول الوقت.. وكـل شـىء جديد .. ينتقـل من جريمة إلى جـريمة .. بسرعة غريبـة . وكأن هذه المنطقة ليست فيها إلا قتلة وضحـايا .. وأن البوليس يقضى الليل والنهار فى وضـع الناس فى السـجون أو فى المقابر ..

ونظر حضرة المأمور فـوجدنى خائفًا . فقال : أنـا كنت مثل ابنك هذا أسمـع حكايات القتل والذبح ويغمى علىّ .. وفى يوم من الأيام لاحظت أمى اننى خائف .. وانت تعرف أمى كان أبوها ضـابط بوليس وقتال قتله .. فما كان منها إلا أن أتت بفرخة وذبحتها أمامى .. ولما حاولت أن أنهض صفعتنى على خدى وقالت : يا بنـوته .. يا مايص .. وشوية شتائم

من اللى قلبك يحبها . وأكرهتنى على الجلوس .. ثم أعطتنى السكين وأتت بفرخة وقالت لى· اذبح الفرخة .. إذا لم تذبحها أنا سوف أذبحك .. ثم وضعت يدها على رقبتى ووضعت السكينة على أنفى .. اذبح يا ولد .. اذبح .. يا راجل .. يا ابن أبوك وأمك .. اذبح ! .

ثم استراح إلى هذه القصة وقال . أمى كانت جبارة .. وكانت بعد أن تذبح الفرخة .. تكسر رقبتها بيديها ! .

وسأل والدى · إن كان هو الآخر يذبح ..

فأجاب والدى . نعم . طبعًا . ولكن بعيدًا عن الأولاد .

وأشار حضرة المأمور إن كنت قد أحببت هذه الهواية . فأنكر والدى تمامًا قائلاً : إنها تحتاج إلى أعصاب قوية وإلى عناية فائقة .. وأعصابه ليست قوية ، ويجب ألا ينشغل عن الدراسة ..

وقال المأمور · إذن لن يكون مأمور مركز .. والله هذا أحسن وأفضل وأكرم ! .

١٩

تتغير معالم البيت عندما نعرف ان طبيب الصحة سوف يزورنا .. كل شىء يصبح نظيفًا والفاكهة تجىء . والشاى يكون جاهزًا يجب أن أقدمه فور وصول الطبيب ..

وهو لا يجىء فى موعده . وإنما بعد ذلك بنصف ساعة . وله دقات خفيفة على الباب .. ويدخل مباشرة متجهًا إلى سرير والدتى .. وبعد ذلك يجىء ويجلس معنا .. ويدور بينه وبين والدى نقاش عن العقاقير وعن الأعشاب الطبية وعن الوصفات البلدية . وإنها هى الأفضل . وأن البشرية كانت تعالج نفسها من ألوف السنين بأعشاب ومحاصيل الحقل . وكان المريض هو الطبيب .

ويسألنى الطبيب هل تحب أن تكون طبيبًا ؟

فبسرعة أقول: نعم .

ويقول الطبيب : ولكن لماذا ؟ إنها مهنة شاقة جدًا .. لماذا ؟

فأرد بسرعة وكأنى فى الفصل لكى أعالج ماما ..

ـ ابن بار بوالدته ..

ويقول والدى · وبوالده أيضا .. ويحب كل الناس .. بل والحيوانات .. والكلاب والقطط والطيور ..

ـ إذن أنت لا تصلح أن تكون طبيبًا .. لأن الطبيب يحتاج إلى قلب جامد .. وإلى أن يستبعد حكاية الحب والعطف والرحمة .. أنا شخصيًا لم أكن أطيق أن أسمع صوت طفل يبكى .. الآن أجدنى مضطرًا أن أقرص الطفل ليبكى لكى أرى لسانه وحلقه وأرى تنفسه وحركة يديه ورجليه .. دون أن اهتز ..

وعدت أقول · ولكننى أريد أن أكون طبيبًا ..

ووجدت والدى يهمس قائلاً للطبيب إنه يشكو من إرهاق عام .. وعطش شديد .. وانه وانه فقال له الطبيب : أخشى أن تكون مصابًا بالسكر .. هل كان أبوك مصابًا بالسكر ..

فقال والدى . لا .. جدى كان مصابًا بالسكر ..

قال الطبيب . معقول .. أولادك لن يصابوا ولكن أحفادك .. هذه هى القاعدة .. منذ متى وأنت تشكو من الارهاق والاعياء ..

قال والدى : منذ الأسبوع الماضى .

ـ ماذا حدث فى الأسبوع ؟ هل انفعلت إنفعالاً شديدًا .. هل أنت تسرف فى تعاطى الحلوى .. واضح انك تأكل كثيرًا يا محمد افندى .. طبعًا الأكل السمين والدهن ثم الانفعال الشديد .. وعدم الراحة .. كل ذلك يجعل الإصابة بالسكر ممكنة جدًا .. أنت محتاج إلى تحليل ..

وكان والدى قد أصيب بالسكر وهو لا يدرى .

وسأله والدى : وهل زوجتى ؟

فأجاب : لا .. ولكن ..

ثم تهامس الاثنان .. واتفقا على أن يكملا الحديث بعيدًا عنى ..

وكان والدى يقول لى إن هذا الطبيب أبوه بواب إحدى المدارس .. ولكنه كان جادًا متفوقًا فى دراسته .. حتى أصبح طبيبًا .. ثم هو شديد الامتنان لوالديه .. وأقسم إنه لن يتزوج مادام أبوه وأمه على قيد الحياة .. فهو لا يريد أن تجىء زوجة تسىء معاملة والدته .. وقد حاولت أمه كثيرًا أن تزوجه بنت اختها ولكنه رفض .. وهو يعطف على الفقراء من أقاربه .. ولكنه يقسو على إخوة له غير أشقاء .. وربما كان هذا هو العيب الوحيد فى سلوك هذا الطبيب الماهر الطيب..

وسألت والدى عن معنى القسوة فى المعاملة .. فقال : إنه لا يعطيهم مالاً .. إنه يمنعهم من دخول بيته ورؤية والدهم .. إنه ينكر أنهم إخوته .. وهو على حق فبعضهم غير مهذب ويتزوج ويطلق .. ولا يصلى ولا يصوم .. معه حق أحيانًا .. ثم إنهم كانوا فى غاية القسوة على أمه عندما كان صغيرًا لا يستطيع أن يدافع عنها ..

ثم يضع يده على كتفى ويقول : انت ما تزال صغيرًا .. وسوف تعرف عندما تكبر ..

٢٠

كانـت ليلة ثقيلـة لكثرة المصـائب التى سمعتهـا .. وكانـت سوداء لكثـرة النهايـات الحزينة.. وحمراء لما سمعت عن جرائم اشعال النيران فى المخازن والحقول والبيوت ..

فجأة ودون أية مقدمات جاء المأمور ومعه وكيل النيابة والعمدة وبعض الخفراء ..

وأناس على وجـوههم كـدمات وعلى ملابسهـم بقع مـن الدم .. وبنـادق وسكاكين ..

ووضعت يدى على بطنى .. لقد تقلص مصرانى الغليظ واخفيت الألم عن والدى .. وضغت على شفتى حتى لا تفلت أهة من أعماقى ..

وشد المأمور يدى مصافحا وهو يقول لا تكن رخوا كالبنات .. أنت رجل .. صافحنى بشدة .. بعنف .. رجل لرجل .. هات يدك ..

وكاد يعجن أصابعى تماما ولكن لم أقل آه .. كما كـان يتوقع . فاذا به يقول : الله أنت جدع جـدا .. أمال شكلك لا يـدل على ذلك .. أن اتخن رجـل اذا امسكت يده فـأنه يصرخ راكعا ! جدع والله ياولدى .. إبنك جدع يا محمد افندى !

ولكنى تألمت .. ولم أشـأ أن اجعله يشمت ويسعد بصراخى .. والحقيقـة أن أصابعى اوجعتنى جدا .. حتى بعد أن ترك يدى فأننى لم أعد أقوى على تحريكها ..

ولم يكن ذلك هو الألم الوحيد تلك الليلة ..

فقال المأمور وهو المتحدث معظم الوقت · أولاد الكلب الذين حبسناهم الآن تخصصوا فى سرقة الحمير .. ووضـع السم للأبقار والجواميس .. وقد اعترفوا بـأنهم سرقوا عشرة حمير وقتلوا عشرين جاموسة وبقرة .. وعرفنا مـن الذى حرضهم على ذلك..شىء غريب

أن نجد واحداً منهم قد حرض زوجته على أن تخطف طفلا رضيعا وتسد فمه .. ثم تلقى به عند الساقية .. حيث تعيش بالقرب منها ذئبة قتلوا زوجها وتريد أن تنتقم من أى إنسان .. وقد نهشت الذئبة بطن هذا الطفل ..

ووضعت يدى على الجانب الايسر من بطنى .. وضغطت عليه .. ولكن مصرانى الغليظ ينتفض كأنه سلك من النار يتلوى فى احشائى .

ومضى المأمور فى سعادة تامة كيف أنه كان يتوقع كل ذلك حتى النار التى اشتعلت فى مخازن الغلال .. كان يعرف من الذى سيرتكب هذه الجريمة .. لقد تابعه عندما خرج من بيته وراح يلف على كل البيوت ليتأكد بنفسه أن الناس جميعا قد ناموا .. وأنه رآه وهو يمسك زجاجة وضع فيها البنزين .. وأخفاها فى ملابسه .. وتركه حتى ذهب والقاها على جوالات القمح .. ثم أشعل فيها النار وعندما حاول الخروج هاربا وجد المأمور وشيخ الخفر فى انتظاره ولما حاول الهرب أطلق عليه المأمور النار فى إحدى ساقيه .. ولما حاول أن يهرب عاد فأطلق النار على ساقه مرة أخرى .. ولولا أنه كان رحيما به لأطلق عليه النار فى رأسه .. أو فى صدره أو بطنه .. أو فى ساقه الأخرى .. ولكنه من باب الرحمة وأنه صاحب عيال أصاب ساقا واحدة ..

ثم نظر إلى كل الحاضرين وقال لهم والله لولا أننى تخيلت أولاده وزوجته الطيبه بنت الرجل الطيب لقطعت ساقيه أو ساقا وذراعا .. ولكن ربنا رحيم بعباده !

والله العظيم ثلاثا وعلى الطلاق من زينب وشربات ـ هو الذى يقول ويحلف ويتلفت إلى الجميع يؤكد أن يقصد ما يقول بالحرف الواحد : ما رأيك يا محمد افندى لابد أن أجعل ولدا من أولاده يضربه بالجزمه أمام جميع الاولاد ..

وسألوه : من هذا الذى سوف يضربه واحد من أولاده أمام بقية الاولاد ..

فقال : الشيخ بريك !

فقالوا فى نفس واحد : الشيخ بريك .. هذا الرجل الطيب .. نعوذ بالله ..

ونهض المأمور واقفا ونادى احد الخفراء تعال يا ولد ..

ودخل خفير بشارب متساقط كأنه وقع . أو يحاول الوقوع فيرفعه .. شاربه ميت

يستعجل الدفن .. فقال الخفير : حدث يا سعادة البيه ..

المأمور يشخط . حدث ماذا يا ابن الكلب ؟

الخفير : استغفر الله العظيم ..

فقال المأمور · ابن الكلب عامل لى مؤدب . قل لهم ماذا حدث يا ابن الحلوف !

الخفير (يشير إلى مكان من مؤخرته)

المأمور . من التى قرسها

الخفير السـت الهانم حرم طبيب المركز ..

وسأله والدى : ومن هى شربات ؟

المأمور : جرى لك ايه يا محمد افندى .. أنها زوجتى الجديدة ..

وكان والدى يـرى أنه شىء عادى جدا أن يضرب المأمور .. وأن يعـاقب وأن يعذب .. وأن يكون قاسيا .. ولكن هذا الزواج الذى تم سرا ولم يعرف به احد . ولم تعترض عليه، زوجته الاولى .. كان مفاجأة لوالدى ولكل الاصدقاء ..

وقد همس واحد فى أذن والدى : أنـه يريد أن يطلق الاثنين لانه عينه على واحـدة ثالثة عندهـا قرشـين كويسـين .. هل تعـرف من ؟ بنت تـاجر الغلال الحاج عبد الفتـاح .. ابنته الوحيدة وكتب لها كل ما يملك .. عندها شىء وشويات .. ربنا يعطيه الصحة والعافية !

طبيعى أن اضع يدى على الجانب الايسر من بطنى وأن أقول . آه ..

والاحداث بعد ذلك معروفة لوالدى .. فأنا أقول آه .. واتوجع وافرغ كل ما فى بطنى .. واظل طـريح الفراش أيامـا . والسبب هوأننـى لا اطيق أن اسمع واتخيل صـور العنف والرعب إلى جانب صور الخوف والفزع والقلق .

وصرخت بأعلى صوتى : عقربة !!

وأغمى على ..

وعرفت فيما بعـد أنها لم تكن عقربة وإنما هى « فـرس النبى » تلك الحشرة الخضراء المسكينة الوديعـة .. قد تسلقت العصا التـى يمسكها والدى .. ثم قفـزت إلى ملابسه وفى طريقها إلى عنقه ..

٢١

أما صاحب محطة البنزين فكان يحرص على أن يكون اللقاء أمام المحطة نفسها .. يضع المقاعد ومن ينفخ فى الشيشة ومن يشرب العرقسوس .. كل ذلك فى داخل المحطة وتجيء السيارات وتخرج أشكالاً وأحجامًا وعلى الرغم من أنه يتكلم طول الوقت فعينه على كل شيء حوله ويكتب فى ورقة أمامه ..

وكان يرتدى الجلباب وفوقه جاكته وطاقية بيضاء . وهو رجل متعلم . دخل كلية الحقوق ولم يكمل . فقد مات أبوه . وكان لابد أن يخلفه أحد . فكان هو الابن الأكبر . وقد أدخل تعديلات كثيرة على المحطة .. وجعلها أكثر نظافة وأكثر ألوانًا .. وزاد عدد العاملين.. وكان خفيف الدم .. فلا يكاد يزوره أحد حتى يسرع إلى زجاجة كبيرة ويصب منها على يدى الضيوف .. ويشمونها فلا يجدون عطرًا فيتساءلون فيكون الرد سريعًا : والله أنا كنت أقدم للناس عطرًا . ولكن رائحة البنزين أقوى فكان الناس لا يميزون بين الكولونيا والبنزين .. وأخيرًا لم أجد إلا أن أقدم للناس ماء عاديًا فإذا قالوا : إنهم لا يشمون عطرًا أقول لهم . وماذا أعمل إن البنزين أقوى من أى عطر .. هاها .. هاها ! .

وكانت الصحف والمجلات على مكتبه .. إنه يقرأ ويحكى ما قرأ من أحداث فى مصر وفى الدنيا .. وكانوا يعرفون ذلك ، فهم يسألونه : وما أخبار الدنيا .. ماذا فعل هتلر ..

وكان يحكى ما الذى فعله هتلر فى ألمانيا وما الذى يهدد به . وكان شديد الإعجاب بهتلر .. كلهم كانوا معجبين إلا واحدًا : والدى ! وكان ذلك موقفًا شاذًا . وكان لا يصرح بهذا الرأى لأنه يبدو غريبًا .. وكانت كراهية والدى لهتلر سببها . انه قاتل وانه مثل أى

جزار .. لولا أن الجزار يذبح البهائم وهو يذبح البشر .. والجزار إذا كان يقتل بسكين صنع فى مصر يشبه الذى يذبح بسكين صنع فى شفيلد بانجلترا . أو فى ألمانيا .. كلاهما جزار .. وكلاهما قاتل .. ولم أكن قادرًا على متابعة ما يقال ولكن صاحب المحطة هو المتحدث الأول والشارح الأول للأحداث .. وكان يقول لوالدى : والله يا عم محمد انت الذى أفسدت زوجتى .. فأنا الآن لا أعرف كيف أكلمها .. تقول لى أنت لا تفهم .. هناك رجل واحد يفهمنى هو عم محمد .. إنها يا سيدى تقرأ شعر شوقى وحافظ والمتنبى وأبو تمام وأبو العلاء .. كلما كلمتها فى شىء قالت لى شعرًا .. فقلت لها سوف آتى لك بعم محمد لكى تأخذى راحتك معه .. مبسوط يا سيدى ! .

وكان والدى يقول . أحمد ربنا .. إنها راضية بالحياة فى البنزين ليلاً ونهارًا .. وكأنها تعيش فى صفيحة بنزين أو فى برميل زيت ..

ويرد صاحب المحطة : هذا هو الكلام الذى أفسدها تمامًا .. فأنا لا أعرف ما الذى أقوله لها .. إنها تقول لى دائمًا إنى لا أفرق بين عطر سواردى بارى وبين البصل والثوم .. ولذلك فإننى إذا سمعتها تقول شعرًا ابتلع لسانى ولا أنطق بكلمة واحدة ! يا عم محمد إعمل معروفًا وتزوجها أنت ! هاها ...هاها ! .

ثم يشير ناحيتى ويقول . والمحروس ما يزال يحفظ الشعر ..

فيقول والدى : الكثير جدًا من الشعر ..

ـ إذن .. إذهب للست أم شريف .. إذهب إليها يا حبيبى . سوف تحبك جدًا .. وسوف تقدم لك الحلويات .. ولن تتركك .. اذهب اسمعها شعرًا .. إذهب . وينادى أحد العمال ويقول له : خد ابن عمك محمد وخليه يقابل الست أم شريف .. تفضل يا حبيبى ! .

والست أم شريف لطيفة رقيقة .. أخذتنى بالحضن .. وهى تقول كيف حال ماما .. تعال يا حبيبى . تأكل ماذا ؟ عندى فاكهة وعندى حلويات .. وسوف أسمع منك الشعر الجميل الذى قلته فى المرة الماضية .. وسوف أقول لك أنا أيضًا شعرًا .. انت وأنا ووالدك الوحيدون فى الدنيا يتذوقون الشعر .. لا زوجى ولا أولادى ولا اخوتى يحبون الشعر ويسمونه كلامًا فارغًا .. ماما تحب الشعر ؟

قلت : لا ..

ـ انت فقط ..

ـ أنا وبابا ..

ـ وخالتك ..

ـ لا خالتى تحب الأغانى .. وصوتها جميل جدًا .

ـ انت تحب خالتك ؟

ـ جدًا ..

ـ أكثر من ماما .

ـ لا ..

ـ أكثر من بابا ..

ـ لا . .

ـ لما تكبر تريد أن تكون ماذا ؟

ـ طبيبًا ..

ـ أولادى يريدون أن يكونوا ضباط بوليس ..

ـ من قال لك تحب أن تكون طبيبًا .

ـ لا أحد .

ـ ماما ؟

ـ لا ..

ـ بابا ؟

ـ لا ..

ـ انت من نفسك . لماذا ؟

ـ لكى أعالج ماما .

ـ من ماذا ؟

ـ لا أعرف ..

ـ انت تحب الأطباء ..

ـ لا أحبهم ..

ـ لماذا ؟

ـ كثيرون ولكن أدويتهم لا تشفى ماما ..

ـ يعنى انت تـريد أن تكون طبيبًا مختلفًا .. أفضل من هؤلاء الأطبـاء الذين يظهرون ويختفون ويتقاضـون أجرًا ويصفون الدواء ولكن الدواء لا يشفى ماما .. مش كده ؟

ـ نعم .

ـ وإذا ربنا شفى ماما بكره أو بعده ، هل تريد أن تكون طبيبًا .

ـ لا ..

ـ يعنى انت تريد أن تكون طبيبًا لكى تعالج ماما ..

ـ نعم ..

ـ ربنا يحميك يا ابنى .. ويشفى لك ماما .. تحب تاكل ماذا يا حبيبى .

ـ شكرًا ..

ـ إذن أنا سوف أعطيـك نصيبك ، مثل أولادى تمامًا ، وانت تـأكلـه فى البيت .. وتسلم على ماما .. وتقول لها إننى سوف أزورها قريبًا جدًا ..

٢٢

لابد انها طريقة كلام الخواجة مخالى هى التى تجعل الناس يضحكون .. ثم أنه رجل ظريف ولـه حكاية مع كل واحد .. والنـاس يدخلون بشكل ويخرجون مـن عنده بشكل آخر. وهو يضـع المقاعد والترابيزات أمام البار للذين يشربون القهوة أو الشاى أما الذين يشربون الكحول فهم فى الداخل .. وعلى الباب ستار أحمر .. هذا الستار يحجب الذين فى داخله حتى لا يراهم المشاة .

وكل الناس يداعبون الخواجة مخالى . ويقولون له : انت الرجل الذى تجنن الناس ..

ويقول · أبـدًا .. الناس تجىء مجنـونة تخرج مبسـوطة .. عـاقلة .. كـل واحد يجىء عصبيًا قرفان زهقان يريد أن يقتل أخاه وزوجته وأولاده .. ولكن بعد ساعة يخرج يحب الناس كلها .. حتى حماته يموت فيها ..

ويقال له · كل الناس سوف يذهبون إلى جهنم عن طريقك ..

ويقول وكم مـن الناس سوف يدخلون الجنـة عن طريق أكبر حشـاش هنا .. رجل يحب الحشيش ويحب الستات .. ثم يخطب الجمعة . هاهـا . هاها .. كم واحدًا سأكون سببًا فى دخولهم النار وكم واحدًا بسببه هو ؟ ! قل لى من فضلك ! .

واحد يسأله · وبعد أن تموت يا خواجة من الذى سوف يدير الخمارة ..

ـ ابنى .. ابنى مدرس فى أثينا الآن .. وبعـد ستة شهور سوف يجىء إلى هنا .. الناس كلهم طيبون .. وابنى طيب جدًا ..

ـ عندك ولد واحد ..

ـ لا . ولدان وبنت .. البنت خلاص اتجوزت .. الولـد الكبير يريد أن يكون طبيبًا مثل ماما ومثل خاله ..

ـ ماما بتاعتك كانت دكتورة .

ـ لا .. ماما بتاعته هو .. مراتى كانت دكتورة . ولكن ماتت .. الله يرحمها .. وبعد ذلك لم أتزوج ولـن أتزوج .. وربما جاء وعاش هنـا فى مصر .. مصر حلوة .. والناس حلـوين خالص .. أنا أريد أن أستريح .. أنا تعبت خالص فى تربية الأولاد .. عاوزين فلوس كثيرة.. أنا أبعـث لأولادى كل مـا أملك . أنـا لم أشتر بنطلونـًا واحدًا مـن ثلاث سنـوات .. إحنا عايشين علشان نربى أولادنا .. أول ابنى ما يجىء هنا .. سوف آخذ اجازة وأعود إلى أثينا أستريح هناك .. استحم واصطاد سمك .. واستنى الموت . ادى الدنيا ! ولا ما رأيك يا عم محمد؟

ـ فعـلاً هكذا يـا خواجـة .. كلنا ضيـوف على هذه الـدنيا .. ضيـوف خفاف ظـراف وضيوف ثقـلاء .. أو ضيوف أحمالهم خفيفة ، وضيـوف همومهم ثقيلة .. والـذى عنده أولاد هو صاحـب الهموم الثقيلة .. والذى لا تـزوج ولا عنده أولاد ، هو صاحـب الهموم الخفيفة أو هو الذى بلا هموم ..

ـ كل الـذيـن يجيئـون إلى هنا هـم أصحـاب الهمـوم الثقيلة .. يجيئـون يشربـون ويصرخون ويبكون .. إنهم يريدون أن ينسوا أن لهم زوجات وأن لهم أولادًا .. وأن هناك شيئًا اسمه مستقبـل الجميع . صحيح إن الخمر لا يفعل شيئـًا ولا تحل مشكلة ولكنها تحمل عـن الإنسان بعـض الوقت همومـه . الخمر مثل الشيـال فى المحطة .. يحمـل عن الإنسان حقائبه .. ويضعها فى القطار .. ولكن الخمر لا هى الشنط ولا هى القطار .. ولكن الإنسان التعبـان من الممكن أن يغضب ويغلـط ويفقد أعصابه وعقلـه .. ولكنه إذا شرب تحولت أعصابه من أسلاك حديد ساخنـة .. إلى خيوط حريرية .. مشدودة أول الأمر ثم متراخية تمامًا .. وبعدها ينام ويصحو للمشاكل ثم يجىء هنا للراحة .. وهكذا..

وكانت تتعـالى الأصوات تقول . يا دكتور . يـا دكتور .. يا شافى مـن كل مرض .. إلا مرض البقشيش . البقشيش ده مرضك انت ..

ـ أبدًا .. ده مسألة ذوق . انت وذوقك .. أنا لا أطلب ! ولا ما رأيك يا عم محمد ..

وكان والدى يقول : البقشيش مثل الواحد الذى لا يكتفى بمصافحتك وإنما يحضنك.. أو يحتضنك ثم يقبلك .. فأنت تستطيع ألا تفعل شيئًا من كل ذلك .. ولكنه الحب الصادق للخواجة هو الذى يجعل الناس تحس إنه خادم الجميع وحبيب الجميع ! .

ـ خسارة يا عم محمد إنك لا تشرب ! .

ـ . . .

ـ إنت تعرف ماذا حدث أمس .. لقد جاءت مدام شوقى .. إنت تعرفه .. وفضحت الدنيا هنا .. أوه .. تعرف الحاج عبد الستار بتاع الحمص والسودانى كان يبحث عن ابنه.. والولد اختفى وسط الزبائن .. أوه .. ضربه علقة جامدة خالص هنا .. وأنا امبارح قلت لمسيو كمال الدين إنه لا داعى لأن يجىء هنا .. لأنه يشرب كثيرًا .. وإذا شرب شتم الزبائن .. وإذا منعته فإنه يحطم الأكواب .. وإذا منعته يهرب ولا يدفع .. وهددته بأننى سوف أقول للمأمور .. مادام الإنسان ضعيفًا وغير قادر على أن يمسك نفسه إذا شرب ، لا داعى للشرب ..

ـ ما أخبار هتلر ؟

ـ آوه .. هتلر .. يخرب بيته .. مش حيسكت خالص .. لازم يبلع الدنيا كلها ..الألمان جامد جدًا .. وموسلينى كمان .. هناك مصيبة كبيرة جدًا .. وعلشان كده أنا طلبت من أولادى أن يحضروا إلى مصر بسرعة .. فيه واحد شاف لى الكف وقال لى . إن أولادى سوف يهربون إلى مصر .. لأن فيه خطر على بلاد اليونان .. وأنا أصدق الرجل ده .. لأنه هو اللى قال إن ماما بتاعتى حتموت قريبا .. وماتت بعدها بشهر واحد ..

وكان والدى يجلس بعض الوقت عند الخواجة مخالى .. وكان يشترى منه نوعًا من الجبنة والزيتون .. ويبدو انها كانت موادًا نادرة ولذلك كان يقدم له الجبنة والزيتون فى ورقة جورنال .. وبعيدًا عن عيون الناس ..

وكان يهدى والدى بعض الزجاجات الفارغة الكبيرة .. وكذلك بعض الصناديق الخشبية ..

وكان يودع والدى وكل الذين لا يشربون قـائلاً : أنتم بركة . أنتم شرفتم.. إذا دخلت الجنة ولو يوم واحد .. فأنتم السبب .. أورفوار ! .

وفى العودة إلى البيت كان لابد أن أسمع تعليقـًا من والدى .. فكان يقول : إن الجماعة اليونانيين من أقـوى الأجانب فى مصر .. الواحد يجىء بمفرده ويسكـن فى قرية لا يعرف فيها أحدًا .. ولكن بسرعـة يفتح دكانًا صغيرًا .. وبعد ذلك ـ يصبـح كبيرًا ويكون صديقًا لكل النـاس . ويكون بيتـه نظيفًا وملابسـه نظيفة . ولا يكـذب ولا يغش ولا يسرق . ولا يغضب أى أحد .. وبعد سنة أو سنتين يأتى بأولاده وزوجتـه .. أو بأقاربه ويفتح دكانًا أكبر .. ومهما كبر الدكـان ومهما زاد عدد أولاده فهم جميعـًا لا يكذبـون ولا يغشـون ولا يغضبون أحـدًا من النـاس .. ثم إن فيهم رحمة .. فهـم يساعـدون الفقير .. ويحترمون مشاعر الناس ويجاملونهم فى كل المناسبات الدينية والاجتماعية ..

وقال والدى : إنه لم ير هذا الخواجة مكشرًا أبـدًا ولا حزينًا ولا حتى مريضًـا .. وإنما هو دائم الابتسام دائم الترحيـب والحفاوة بكل الناس .. وهـى من صفات التاجـر الذى يريد أن ينجح . وهم ناجحون دائمًا .

وقال لى : إنه يمضـى الشهور فـلا يراه . ولكن عندما يراه فكأنه كـان معه بالأمس .. يتلقاه بالاحضـان ويسأله عن الزوجة والأولاد ولا ينسـى الأولاد . ولا ينسى أسماءهم . ولا ينسى آخر كلام كان بيننـا .. وهذه مقدرة فريدة للأجنبى الذى يـريد أن يكون مثل أولاد البلد .. كأنه واحد منهم ! .

٢٣

فى الصباح جاء رجل وزوجته ينظفان البيت .. وبسرعة تحرك كل شىء فى البيت .. أنا غيرت ملابسى .. ووالـدى أيضـا .. وراح يتلو القرآن .. ثـم يرتله .. ثم يتغنـى .. ثم يلقى ابياتا مـن الشعر .. ويشرح لى معانيها ويطلـب منى أن أرددها وراءه .. كل حيـاة والدى قرآن وشعـر وترتيـل وغناء ومـرح وشرح لكل ذلـك .. وحكايـات ونوادر .. وهـو الذى يضـحك .. فـإذا لم أضحك ادرك أننى لم أفهم . شرح لى ذلـك .. أو سـألنى عـن حالى وان كنت قد نمـت جيدا . وإذا كنت قد خفـت من النوم وحدى فلماذا لم أقـل له ذلك .. وإذا كنت قد نهضت فى فزع كما تقول أمى . فلماذا لم أذهب إليه وأنام معه فى فراشه ..

وسألنى والدى : ماذا يحدث لك يا ولدى ؟..

ـ لا أعرف .. مرة اجد الذئب يمسك بملابسى .. مرة اسقط فى بئر .. ومرة اطير إلى ما فوق السحـاب ثم اسقط إلى الارض .. ومرة اجـدنى فى إناء يغلى .. واحـاول الخروج فلا استطيع .. ولكن أول امس وامس لم أخف أثناء النوم ..

وخرجنا . وفى الطريـق قال لى والدى ان ماما لا تحب الناس الذيـن سوف نزورهم . وإذا عرفت أننا زرناهم سوف تغضب ..

وفهمت أن والدى لا يريدنى أن أقول لامى أننا ذهبنا لزيارتهم .. ثم اعاد والدى مدى كراهية أمى لهؤلاء الناس . وأنه لا داعى لاغضابها وهى مريضة ..

أنهم رجال كلهم .. أصدقاء والدى .. وبعد الاحضان والقبلات والاشواق قال أحدهم : هيا بنا ..

وانتقلنا إلى بيت فى نهاية الشارع .. المفتاح فى جيب واحد منهم .. والبيت كان نظيفا رطباً .. وليست به رائحة الطعام وإنما رائحة الدجاج .. واصوات الدجاج .. وظهرت الفرحة على وجوه الجميع .. وانفتح الباب .. ووجدت عددا كبيرا من الاقفاص .. فى كل قفص ديك واحد .. وكل واحد امتدت يده إلى قفص وأخرج الديك .. ووالدى هو الآخر كان له قفص .. وأخرج ديكا كبيرا جميلا .. وكانت الفرحة والسعادة على وجه والدى لا توصف .. فهو امسك الديك فى يده اليسرى .. وراح ينظر إليه .. ويقول له منقار كمنقار الصقر .. وعنق مثل عنق الحصان العربى الأصيل .. وصدره عريض .. وظهره وساقاه متينتان .. وأصابعه طويلة .. وذيلة طويل ..

وراح يعرض ذلك على أصدقائه ..

وكل واحد يباهى بالديك الذى فى يده ..

هذا يقول : المنقار الواحد منه يقتل الف ديك ..

وآخر يقول · ضربه واحدة من ساقه اليسرى وبعدها القبر ..

وثالث يقول . انه يأكل لحما نيئا بدمه . وهو لا يأكل إلا لحم الديوك الهزيلة ..

وانشغل عنى والدى تماما .. بل إنه لم يلاحظ أننى معه .. ولم يوجه لى الكلام مرة واحدة .. وحتى عندما كنت اسأله فأنه لا يرد .. ولكنه يتطلع إلى كل مليمتر فى الديك الذى فى يده .. يراه من الامام ومن الخلف .. ومن تحت .. ثم يلمس منقاره ويشد جناحيه .. ويمر بأصابعه على أظافره .. ويرفعه إلى أعلى .. ويضغط على ظهره وعلى بطنه .. ويسحب ساقيه واحدة واحدة .. ثم يضعه على الارض ويشده من ذيله ..و يعود يرفعه ثم .. يزنه بكلتا يديه ..

والتفت إلى بقية الرجال أنهم يفعلون نفس الشىء ويطلقون كلمات استخفاف بكل الديوك الأخرى ..

وبعد ذلك ذهبوا إلى غرفة أخرى .. وجلس كل منهم على مقعد .. واجلس الديك على ركبته .. وراح كل واحد ينظر إلى ديك الآخر .. وكان والدى هو أول من تكلم واخيرا وبعد ساعة أو ساعتين وجدته يحدثنى أنا والآخرين : والديك هذا اسمه « برغوت » .. وهو من

أصل هندى . ولا يأكل الا البيض واللحوم .. ويجب أن يكون بعيدا عن الديوك الأخرى .. وكلما ابتعد عنها كان افضل .. لانه إذا ابتعد عنها خاف منها أو كرهها .. فلا يكاد يراها حتى يهجم عليها ويحاول قتلها .. ولكنه إذا اقام معها واعتاد عليها .. فإن الديوك تصبح كأنها زملاء .. أو أقارب .. فلا يهجم واحد منها على الآخر .. يجب أن يرى مناظر تريح أعصابه وأن تغير أنواع الحبوب التى يلتقطها من الارض وأنواع الخضروات .. ويجب أن يكون مع الدجاج وليس مع الديوك .. عدد قليل من الدجاج وليس عددا كثيرا ..

وحكايات كثيرة يقولها الرجال الآخرون عن ديوكهم .. وكيف دربوها على القتال..وكيف جعلوها أكثر شراسة .. وكيف أنهم قاموا بجعل اصبعها الخلفى مدببا .. وذلك باستخدام مناقيرها واصابعها المدببة فى ضرب الاعناق والبطون ..

لقد كانوا يستعدون لمعركة .. بين الديوك .. وهذه الديوك قد دربوها على القتال وقدموا لها طعاما خاصا ..

اما اسماء الديوك فهى . فارس .. العفريت .. والزرنيخ .. وعنتر .. والزير سالم .. وقلاوون .. والسلطان .. وشطة .. و ولعة .. وكايدهم .. وآخر صبرى .. الاكسبريس ..

وطلبت من والدى أن امسك الديك وعلمنى كيف امسكه بيدى اليسرى والا اجعله قريبا من وجهى حتى لا ينقرنى لاننى غريب عنه .. وأن ارفع يدى إلى أعلى ليكون فى مستوى النظر ..

قال رجل رآنى ارفع الديك · ما شاء الله يا محمدافندى ابن الوز عوام .. الطريقة التى امسك بها الديك مضبوطة تماما لا هى فوق ولا هى تحت .. تمام كده ..

ثم امسك والدى يدى ووضعها على منقار الديك .. ثم على رقبته وعلى صدره .. وعلى ظهره .. وجعلنى أشد ريش جناحيه وذيله ..

وانفتحت غرفة أخرى ..

ودخل والدى والديك فى يده .. ودخل رجل آخر .. وجلس كل منهما فى جانب من الغرفة والديك أمامه .. ثم أمسك كل منهما بذيل الديك وجعله يقترب من الديك الآخر .. ورأيت كل ديك ينكش شعر رقبته .. ويحاول الهجوم على الديك الآخر .. ثم يكرران

الاقتراب دون الاشتباك .. وفى كل مرة يزداد الديك غضبا واندفاعا نحو الديك الآخر .. ثم مرة ثالثة واخيرا يقف كل واحد والديك فى يده .. ويستديران .. ويهمس كل واحد منهما بشىء فى أذن الديك وبسرعة يجلسان ويترك كل منهما الديك الذى فى يده .. وبسرعة يندفع الديكان ويتحفزان ثم يتضاربان .. بالمنقار والساقين .. ويتصايح الرجال أن يقفز فوق الآخر. كمان مرة .. اسم الله عليك ..

أما احد الديكين فقد أحنى رأسه وراح يلوذ بالديك الآخر .. ولم أعرف ان كان المنتصر هو(برغوت) أو هو قلاوون.. فأنا لم أعرف الفرق بينهما .. ثم أن الديكين يتبادلان المواقع .. هذا فوق .. وهذا تحت .. ثم هذا يجرى ويتراجع .. وهذا يتقدم ثم يتراجع .. .. ولما نظرت إلى وجه والدى وجدت سعادته عظيمة .. لقد كان برغوت هو الذى انتصر .. ووجدت برغوت فى يدى والدى قريبا إلى صدره يلهث .. وراح والدى يقلب فيه ويتلمس كل مكان .... ليعرف أن كان قد أصيب .. أو جرح . ثم يفتش فى صدره وفى عنقه .. وفى رأسه وفى جناحيه .. ثم فى ظهره .. ثم أجلسه على ركبته وراح يداعبه ويقبله .. .. ويخرج الحبوب من جيبه ويقدمها للديك .. ثم يخرج به أمام البيت .. ويتركه على الأرض .. ثم يعود إليه .. ويقدم له الماء ويضع اصبعه فى الماء قبل أن يقدمه له .. فالماء يجب أن يكون فاترا لا ساخنا ولا باردا ..

وتبدأ بعد ذلك مباراة أخرى بين ديكين .. ولكن والدى قد وضع « برغوت » فى قفصه حتى لا يكون عصبيا إذا شهد عراكا آخر بين ديكين ..

وكانت هذه المعركة سريعة جدا .. فأحد الديكين قد أصاب الآخر فى دماغه .. لدرجة أن منقاره قد اخرجوه من رأس الديك الآخر بصعوبة .. وتعالت الاصوات والهتافات..

وبدأت معركة ثالثة .. ولكن لم يكد أحد الديكين يرى الآخر حتى هرب .. وكلما اعاده صاحبه إلى أرض المعركة ، إرتد هاربا واختفى فى ملابس صاحبه .. وقالوا فى تفسير ذلك أن الديك لم ينس !

فقد جرح فى معركة سابقة . وكان لابد أن يمضى وقت طويل حتى تلتئم جراحة الجسمية وينسى ما حدث له تماما ..

وقال صاحب الديك · أبدا أنه لم يكن جريحا .. وإنما أنا حبسته مع عدد من الدجاج ..

حريم من الدجاج كسروا ظهره !

ويضحك الجميع .. لتبدأ جوله رابعة ..

وعدنا إلى البيت .. ومازال والدى يقول أن ماما لا تحب هؤلاء الناس ولا تحب مصارعة الديوك .. وترى أنها اضاعة للفلوس والوقت .. وإنها لا تليق بأناس محترمين مع إنها كانت رياضة الملوك من أيام الفراعنة والإغريق وأن رؤساء أمريكا كانوا يتنافسون فى اختيار أحسن الديوك .. وكانوا يقيمون المباريات فى قلب القصور فلا يراها إلا الاغنياء ..

وسألنى : أعجبتك ؟

قلت : جداً

قال : لا تقل لماما إنها أعجبتك وأنا عندما اجىء فى المرة القادمة سوف نذهب ونتفرج عليها وحدنا !

وحاول أن يداعبنى فقال : مرة أتيت بديك من هؤلاء فى البيت .. وبعد أسبوع وجدت ماما قد ذبحته لانه كان يهجم على الديوك الأخرى ويفتك بها ..

وقال لى حكمة .لكى ينجح هذا الديك فى قتل ديك آخر يجب أن يكون غريبا عنه وغريبا عن هذه المنطقة . فلا يرى الواحد الآخر الا يوم المباراة .. وفى ذلك اليوم يقاتله لانه لا يعرفه .. ولذلك نحن نجعل الديوك تقيم معا بعض الوقت حتى تكون أقل شراسة.. وإذا سمع الديك وهو فى المعركة أو قبلها صوت الدجاج فأنه يشعر بأنه يدافع عن زوجاته وعن عائلته ولذلك فأنه يهجم على الخصم ويكون قاتلا .. ولكن المشكلة أننا إذا أتينا بالدجاج فأن وجود الدجاج يشعل النار فى أعصاب الديكين معا .. ولذلك نكتفى بأن ينفرد الديك بالديك الآخر معتمدا على غريزته وعلى كراهيته ورغبته فى القتل والنصر .. والديك أكثر حماساً إذا كان يقاتل على مرأى من الدجاج .. مما يجعل هذه المعركة اطول قليلا .. وبدلا من أن تبدأ المعركة وتنتهى فى دقيقتين .. فأنها تنتهى فى عشر دقائق وأحيانا ربع الساعة .. وفى الحروب الإسلامية كانوا يجعلون النساء تمشى وراء الجنود حتى تجعلهم يتحمسون أكثر .. ويخجلون أن ينسحبوا على مرأى من النساء !

حتى فى الطيور يتولد الخوف من الشعور بالغربة .. وتكون الكراهية نوعا من الدفاع السلبى .. والكراهية هى أم العنف والعنف هو أبو الحروب ..

٢٤

أما هذا الـرجل فأنا الذى اخترته وهـو أحب الناس .. وأنا أجد نفسى كـل يوم ذاهبًا إليه.. وبيته فى آخـر المدينة .. والبيت له شكل متميـز .. فهو أبيض جدًا .. ولـه سور من الأشجار الشائكة .. وفى داخـل السور توجد شجرة توت .. وحول شجـرة التوت تناثرت المقاعد الثابتـة على الأرض .. إنها مصنوعة من جذوع النخل .. ثـم هناك شجرة لبلاب . وتوجد شجرات الورد بشكل منظم .. وعنده كلب أبيض . وعنده عدد من القطط .. وكلها تقف معًا ..

إنه عم (أبـو آدم) ابنه اسمه آدم وهو فى مثـل سنى .. أما أبو آدم نفسـه فلا أعرف إسمه الحقيقـى ولكن الناس ينـادونه هكذا .. هـو أبيض متوسـط القامة أبيـض الشعر خفيف شعر الرأس .. يرتدى البنطلـون ذا الحمالات والقميص وقد انحنى ظهره قليلاً .. فهو حداد القـرية . وهو دائمًا نظيف الملابس والـدكان نظيف جدًا .. وأمـام البيت نظيف والحديقة وكل شـىء فى بيته نظيف ومنظم .. وهـو يشعل نار الفحم . ويضـع فى الفحم قطع الحديـد .. وينفخ عليهـا حتى تلتهـب وحتى تصبـح حمراء بيضـاء .. ثـم يسحبها ويدقها وهى لينة حتى تأخذ الشكل الـذى يريد . ويدق الحديد ساخنًا ويتناثر الشرر .. الشظايا .. ولكن هذه الشظايا لا تعلق فى ملابسه ولا فى وجهه .. وهو يغطى وجهه بغطاء من الـزجاج .. ولا يزال يـدق الحديد والحديد يطـاوعه .. مرة يجعلـه فأسًا ومـرة يجعله منجلاً .. ومرة يجعله سكينًا .. وبعد أن يفرغ منه يلقى به فى الماء ويكون له دخان .. وبعد الماء يصبح له الشكل الذى يريد وبسهولة عجيبة ..

ولا أحد يعمل مع أبو آدم فى الدكان .. ولكنه دائم العمل . وقد كتب لافتة على الباب : منْ التاسعة صباحًا حتى الخامسة مساء ما عدا يومى الاثنين والثلاثاء . إنهما اجاوة . ولم أره يعمل شيئًا بعد الخامسة مساء . أبدًا . ولا عمل قبل التاسعة صباحًا . ولا فتح دكانه يومى الاجازة . أبدًا . وقد حاول كثيرون أن يرغموه على تغيير هذا النظام . ولكنه رفض.

ويقول الخواجات علمونا النظام . إنتهى . وحياتى مستريحة تمامًا فى هذا النظام .. ثم اننى وحدى ولا يساعدنى أحد . فلماذا أرهق نفسى ؟! .

وأبو آدم إذا اشتغل انصرف تمامًا إلى عمله . ومن النادر أن يرد على أحد إذا كلمه . وإذا فرغ من عمله فهو رجل لطيف ظريف .. الوجه هادئ وفى غاية الصفاء .. والابتسامة بيضاء كبيرة .. وهو لا يدخن . ولا يشرب الخمر . ويقول : لم أتعلم من الخواجات الشرب . وفى إحدى المرات حاولت فمنعونى من ذلك . وقالوا : إن الإنسان يجب أن يحترم عادات بلاده وتقاليده ودينه ..

أما ابنه آدم فهو لا يعمل فى الدكان إنه تلميذ فقط . وهو الذى يروى الشجرة وهو الذى يطعم الطيور . وهو الذى يشترى احتياجات البيت من السوق . وهو دائمًا نظيف الملابس . وهو شديد الاحترام لوالده . وإذا جاء أبوه فإنه يقف . وإذا خرج صافحه وقبل يده . وإذا جاء صافحه وقبل يده .

وعندما ذهبت وحدى لأول مرة ظللت واقفًا بالباب حتى فرغ أبو آدم من العمل . فلما رآنى قال : أهلاً يا ابنى .. تعال .. انت واقف منذ متى ..

قلت : من نصف ساعة .

قال : ولماذا لا تذهب إلى أخيك آدم فى البيت .. إنه وحده .. إذهب إليه وسوف أجيء ونشرب الشاى معًا . ادخل يا ابنى .. هذا بيتك ..

ولما رآنى آدم كان مثل والده ضاحكًا محبًا للناس .. يرحب بهم ويدعوهم إلى الدخول. وجاءت والدته . إنها صغيرة السن بيضاء ذهبية الشعر زرقاء العينين . ووجدت معها كتابًا تقرؤه . نظرت إليه .

قالت لى روايات الجيب .. تقرأ ؟

قلت . لا أعرف هذا الكتاب .

قالت · ليست كتابًا واحدًا وإنما هى سلسلة طويلة مترجمة .. كلها قصص بوليسية ..

إنها أول مرة أسمع هذا التعبير : قصة بوليسية ..

ويبدو أن الدهشة وعدم الفهم قد ظهرا على وجهى .. فقالت بذكاء ورقة : إنها حكاية واحد قتل واحدًا .. وجاء البوليس يبحث عن القاتل .. طبعًا يجده .. لكن إلى أن يجده فإنه يدوخ القارئ .. ولكنها مسلية جدًا وممتعة جدًا .. سوف أعطيك واحدة .. فإن أعجبتك أعطيتك غيرها .. ماذا تقرأ؟

فذكرت لها عددًا من الكتب لم تسمع بها . ولا تعرف أى شىء عنها .. فقلت لها : إنها كتب والدى وكلها شعر ومدائح فى الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ووضح على وجهها المستدير الأبيض الجميل إنها لم تفهم ـ ولا تريد ..

وجاء عم أبو آدم وقد غير ملابسه وارتدى ملابس أكثر بياضًا ويبدو أنه قد اغتسل تمامًا .. ونظر إلى زوجته وقال لها · الشاى بالنعناع يا عديلة ..

ـ حاضر يا أبو آدم ..

والتفت أبو آدم وقال لى · أريد أن تعرف من نحن .. أنا يا سيدى عمك أبو آدم .. وآدم هذا هو إبنى الوحيد .. وأنا رجل كبير كما ترى .. وكنت أتمنى أن يرزقنى الله بغلام .. والحمد لله .. أما زوجتى هذه فهى أحسن زوجة وأحسن أم فى الدنيا وهى من فضل الله .. مات أبوها وكان صديقى .. وماتت أمها يرحمها الله .. فأخذتها إلى بيتى .. وأنا رجل وحيد.. وخشيت من كلام الناس فقلت يا بنت الناس أنا تمنيت أن يكون لى بنت .. وأن يكون لى ولد وأن تكون لى زوجة . فما رأيك أن تكونى الزوجة والابن والبنت .. وكان من رأيها أنها أيضًا تريد الأب والأم .. فكانت هذه الأسرة التى تراها .. وأنا يا ولدى فى مكانة والدك وآدم أخوك وعديلة أختك الكبرى وأمك .. وهى تحب القراءة وسوف تربطك بها صلة قوية .. ومنذ هذه اللحظة هذا بيتك يا ولدى .. وأكون سعيدًا لو جئت كل يوم ودخلت وأكلت وشربت دون إذن من أحد .. إن آدم يحبك ويقول إنك أعز صديق له..

فالحمد لله الذى جمع بينكما على الحب ..

وجاءت عديلة فقال لها يا ست أُم آدم . أنا قلت له من نحن ..

ـ يوه يا أبو آدم انت لازم تحكى الحكاية لكل الناس ..

ـ لازم .. إنــه ابنى الثانــى .. وابنك أيضًـا يا أم آدم .. وأبــوه رجل طيب جـدًا .. ورجل صالح وكل كلامه خير فى خير إنه طراز من الناس لم يعد له وجود ..

ـ والله إنـت يا أبو آدم الذى ليـس لك مثيل فى الدنيــا .. ربنا يخليك لنا ويطـول لنا فى عمـرك حتـى تحمـل أولاد آدم على كتفك إلى المدرسـة . وأولاد أولاد آدم .. قــادر يــارب ياكريم..

وتظهر السعادة على وجه أبو آدم .. كأن الله قد استجاب لكل هذا الدعاء .

ويجىء الشاى بالنعنـاع .. والأكواب كبيرة . والسكر يضعونـه كثيرًا . وتحت شجرة التوت يحدثنا أبو آدم . كيف جاء إلى هذا البلد . وأيـن كان قبل ذلك .. وكيف كانت رحلته الأولى إلى إيطاليـا .. وكيف إنــه عمل حـدادًا على إحدى السفـن . وكيف إنــه تعلم اللغــة الإيطالية بسرعة . ولما عرض عليه حداد السفينة أن يزوجه ابنته وأن يعيش معه فى مدينة نارانتــو ، رفض أبو آدم . وقــال إنه ليس فى نيتــه أن يعيش خارج مصر .. وكـاد يتزوج إيطالية . أحب واحدة لأنها جميلة ولأنها طيبة .. وفى يـوم وجدها مع واحد آخر فى إحدى الحدائق ولم تعتذر . وإنما قالت : وجدتك مشغـولاً فناديت أحد الجيران وطلبت منه أن يرافقنى للنزهة ! .

وكان ذلك كافيًا لأن يعدل عن الزواج من إيطالية أو من أجنبية ..

وفى طريق عودته من إيطاليا توقـف فى بلاد اليونان . وعمل فى أحد البارات . ولكنه لم يسترح . إنه من الصعب أن يعمل الإنســان فى البار ثم لا يشرب أو لا يجارى ما يحدث فى البارات . ثـم عمل فى إحـدى الحدائق يجمع العنـب ثم يشترك فى عصره .. وكـان لابد أن يذوق العنب المخمر من حين إلى حين .. فرفض لأنه لا يريد أن يغضب الله ..

وعرضــت عليه صــاحبة إحـدى مزارع العنــب أن يتزوجهـا على سنة الله ورســوله . فتزوجها . وكانت تكبره بعشرين عاما . ولم تنجب وماتت . وجاء إخوتها ودفعوا له مبلغًا

من المال مقابـل نصيبه من التركة . فـوافق .. وعاد إلى مصر .. وكان قـد قرر ألا يتزوج . ولكنه اشتـاق إلى البيت والأسرة والشريكة والولـد .. وأن يعمل هـادئًا ويعيـش فى هدوء . وكان له ذلك .

وكانت لعم أبو آدم كلمات حكيمة . فهو رجل قد جرب . ولكنه لا يدعى العلم .. فمثلاً يقول لك : ما الذى تريده من الدنيا . هذا هو السؤال الهام جدًا . وحياتك كلها تتوقف على هذا السؤال والإجابة عنه .. أنا شخصيـًا أريد بيتًا صغيرًا . وأن أعيش على قدر كسبى . ولا أرهق نفسى بالعمل ولا أرهق نفسى بالمطالب . فعندى الضرورى . وهذا يكفى .. ففى استطاعتى أن أعمـل عشرين ساعة فى اليوم . ممكـن . ولكن كم عامـا أستطيع أن أتحمل ذلك ؟ سؤال آخر . كم صديقًا يكفى فى هـذه الدنيا ؟ الجواب : واحد .. اثنان ، كفى . وأنت لا تجد فى الدنيـا من المخلصين إلا واحـدًا أو اثنين .. ولكن أن يكـون لك ألـف صديـق .. مستحيل .. تمامًا كما أن الواحد يرى الدنيا بعينين ويقطعها ذهابًا وإيابًا بساقين ويعمل بذراعين .. هذا يكفـى جدًا .. وحكمة من الله إنه لم يجعـل للإنسان عددًا مـن العيون مثل العنكبوت ولا مثل أرجل العقرب .. وإذا لم يكن لك إلا صديق واحد لا تحزن . فمن النادر أن تجد الصديق الوفى المخلص .. انت وآدم صغيران ولكن عندما تكبران ستكشفان حكمة الناس العواجيز مثلنا ..

وسمعنا من ينادى : يا أبو آدم .. يا عم أبو آدم .

وامتقع وجه أبو آدم وقال لابنه · اذهب يا آدم .. واسأل مـاذا يريد ؟

وغاب دقائق وعاد ليقول لـوالده · أنا قلت له إن بابا لا يعمل ليـلاً أبدًا .. ولذلك رفض أن يعطينى العجلة المكسورة التى كان يريد إصلاحهـا وقلت له يأتى بها غدًا فى التاسعة صباحًا ! .

ـ تمام كده . يا أم آدم هات لنا الأكل .. ولا انتِ بخيلة على آخر الزمن ..

ـ حاضر يا أبو آدم . حالاً ..

ـ وكان أبـو آدم يحب أن يتكلم وأن يحكى تاريخ حيـاته . وأهم من تاريـخ حياته أن يستخرج منها الموعظة والعبرة . بارعًا فى ذلك . فهو عندما يحكى لك الحكاية لا يبدو منه

انه أراد أن ينصحك وإنما هو أراد أن يسليك كضيف .. وبعد ذلك ينصحك كابنه .. أو على مسمع من ابنه .. ويبدو أن لديه القدرة على أن يحكى الحكاية الواحدة بأشكال مختلفة. ففى كل مرة يحكى حكاية نسمع زوجته تقول · الله يا أبو آدم انت قلت لنا الحكاية دى قبل كده ولكن بشكل آخر ..

فهو فنان يبتدع كل مرة حكاية لها بداية ونهاية .. حتى لا يمل هو وحتى لا يمل من يستمع إليه ..

واندهشت زوجته كيف انه ما يزال يحكى قصصًا جديدة .. رغم انه لم يتوقف عن الحكايات منذ زواجهما .. فلا تزال عنده حكايات .. أو انه قادر على الابداع ويكون ابداعه حسب الظروف ..

ثم التفت إلينا جميعًا وكأنه أستاذ ألقى محاضرة ، ثم يريد أن يقول لنا خلاصتها أو عناصرها الرئيسية . أو المعنى من كل الذى قال : شوف يا ابنى إذا أحد سألك ماذا تريد أن تكون عندما تكبر .. لا تقل شيئًا وإنما قل لم أقرر بعد فأنا ما أزال صغيرًا .. وفعلاً أنت صغير يا ولدى .. انت وآدم .. لم تتعلما بعد .. لم تجربا من الدنيا شيئًا .. ولا قابلت اناسًا كثيرين ولا سمعت ولا مررت بظروف تجعلك تقرر أو تغير طريقك .. انتظر .. ان ابنى آدم فى يوم من الأيام قال لى . أريد أن أكون حدادًا مثلك .. فغضبت منه .. وقالت أمه: مستحيل .. ومعها حق .. ولكن أنا لم أقل له شيئًا من ذلك .. وإنما جعلته يعمل معى يومًا ويومين وثلاثة حتى أرهقه العمل تمامًا .. ثم قلت له هل رأيت هذه الصناعة .. وإنما أردت أن تعرف بنفسك . لا تكن حدادًا يا ولدى كن شيئًا أفضل . وهذا الشىء انت الذى تختاره . وسوف تعيش منه وتعيش عليه طول عمرك .. ولكن ليس معنى ألا يكون آدم حدادًا ألا يحترم عمل والده .. بل كل عمل محترم . وأبوه عمل حدادًا وكان محترمًا ، لكنى أساعد آدم على أن يكون كما يريد .. وأنا الذى أجعل عملى محترمًا وأنا الذى أجعله محتقرًا . فأنا أعمل ساعات محددة . أنا حر . وآخذ اجازة أنا حر . ولا أعمل بعد الساعة الخامسة . أنا حر . وقد عرف الناس ذلك · فاحترمونى ..

وهنا ــ ومضى يقول فى لطف وأبوه ـ أنا أدعوك إلى العشاء .. أقدم كل ما عندى ..

ولكنـــى لا أفرض عليـك طعامــًا ولا كمية الطعــام . انت حــر فى بيتك . هكـذا تعلمت مــن الخواجات .. تفضل يا ولدى ..

وكل واحد مد يـده إلى الطعام دون أن ينظر واحد ناحيتى .. ومضــوا فى الأكل كأننى غير موجود .. ومددت يدى .. وأكلت .. واسترحت وأحببـت الرجل . وأحببت ابنه وأحببت أمه .. وأحببت صنــاعة الحديد يوضـع فى النــار فيكون لينًا .. ملتهبًا لينــًا .. ولأنه ملتهب فهو مطيــع للطرقــات فوق دمــاغه .. وهى ضربــات موجهــة مدروســة نحو شكــل من الأشكال..

حتى الحديد إذا تغيرت ظروفه كان كالعجين ..

فلا حديد لا يلين ..

ولا نار لا تنطفئ ..

وليس من الضرورى أن تجد كل الحكمة فى الكتــب .. إنها كثيرة جدًا عند اناس ليست صناعتهم الحكمة . ولكنهم أصحاب تجارب وشجاعة وتواضـع ..

لم أنس أبو آدم طـول عمرى لا شكلاً ولا صوتــًا ولا حكمة ولا بساطة ولا كــرمًا ولا ابوة ولا استــاذية .. ولا شىء من كــل ذلك يبدو عليــه وهو يدق الحديد ودمــوع الحديد تتطاير شررًا يتقيه بمنظار من الزجاج ..

ولو دخل أى إنسـان دكان أبو آدم وسرقه ما شعــر به . فهو فى ركن من الدكان وسط الشرار والنار والدخــان . وهو يعمل واقفًا طـول اليوم .. ولذلك إذا جلــس فهو لا يقوم .. وكان يقول لنا . الذى يعمل بعضلاته يستريح إذا جلس واسترخى دون أن يحرك يديه أو رجليــه ولذلــك تجد البكوات والبــاشوات إذا جــاءوا إلى الــريف راحــوا يركبـون الحمير ويصيدون الأسماك ويطاردون العصــافير ويمسكون الفأس .. فهم يعملون بالضبط ما لا يعملون فى المدينة .. هكذا علمونا الخواجات .. وتعلمت منهم ! .

وقال لنــا أبو آدم إنه فى إحــدى المرات زاره المغازى باشــا ودخل الدكــان وراح يقلب مقاعده ويمســك منفاخ النار ويثير الفحم .. ثــم يمسك الحديد ويضـعه فى النــار .. ساعة وساعة .. وهــو سعيد جدًا بالعمــل . ولما دعاه إلى قصره العظيم جلس أبــو آدم على أحد

المقاعد واسترخى تمامًا ومدد رجليه إلى الأمام ووضع ذراعه إلى جواره ..

وسأله الباشا . هل رأيت هذه الكتب ..

قال : لا والله يا باشا .. فقال الباشا : يقولون إنك تقرأ بلغات أجنبية .. من بينها الإيطالية واليونانية ..

قال : نعم ..

ورد عليه الباشا ومع ذلك لا تمد يدك إليها ..

فقال أبو آدم . لأننى أمد يدى طول اليوم .. فراحة يدى ألا أمدها وإنما ألقى بهما إلى جوارى هكذا كأنها لم تعد جزءًا من جسمى .. هكذا علمنا الخواجات ..

٢٥

كان فى بيتنا عدد كبير من الكتب .. وكانت دائمًا فى أماكن مختلفة .. فى غرفة النوم على المقاعد .. فى الأركان .. تحت السرير .. فى صناديق وفى مقاطف فوق السطوح .. بعض هذه الكتب بعثت بها عمتى إلينا .. فلم تجد لها مكانًا فى بيتها .. وكان من رأيها انها قد تنفعنى إذا كبرت فلم يعد أحد من أولادها يقرأها .. لقد كبروا وعندما وجدتها رحت أقلب فيها فلم أكن قد تعلمت القراءة .. ولما تعلمت وانتقلت هذه الكتب معى من مكان إلى مكان عرفت انها فى موضوعات زراعية .. إصلاح الأرض وحرثها وبذرها والعناية بالمحاصيل وتربية الدواجن والنحل . فقد كان ابن عمتى طالبًا فى كلية الزراعة ثم أستاذًا بها . ثم وجدت كتبًا لأحد أعمامى وكان أزهريًا .. ولما حاولت أن أقرأها لم أستطع.. ولم أفهم .. فهى عن موضوعات غريبة وبعبارة أغرب .. ووجدت كتبًا قديمة منزوعة الأوراق والأغلفة أيضًا . وعليها آثار التراب والحشرات والقهوة وقد مسح التراب والحشرات الكثير من حروفها وصفحاتها . وكتب فيها شعر كثير ولكن لا أعرف أسماء هذه الكتب.. وحاولت أن أحفظ هذا الشعر ولم أستطع . فهو شعر صعب ..

ولذلك كانت « روايات الجيب » كشفًا وحدثا مضيئًا .. فهى حكايات غريبة . وحكايات مثيرة . ومن الصعب أن أترك الكتاب دون أن أكمله فى يوم وأحيانًا فى جلسة واحدة .. وأنا أقرأ هذه الروايات واقفًا وجالسًا ونائمًا وأنا آكل وأنا أشرب وأنا أمشى فى الشارع . لم أر مثل هذا النوع من الكتب . ورقها أبيض . ولها أغلفة ملونة .. أحيانًا عليها بنات عاريات .. وفيها لوحات ورسومات .. إنها شىء مختلف . ولكن كتب الشعر أنفع

وأجمل . لولا أن هذا الشعر الذى أجده فى هذه الكتب أو بقـايا الكتب صعب جدًا . فلا أنا قادر على قـراءة هذه الكتب ، ولا أنا قـادر على تجاهلها .. فهى دائمًا فى يـدى .. وأنا دائمًا أحاول وأفشل .. ولم أتوقف عن تقليبها من أولها لآخرها أو من آخرها لأولها..

وشكوت لوالدى .. فـوافقنى على صعوبتها .. ووعدنى بكتـب أفضل . أو أن أذهب أنا إلى المكتبـات وأرى ما يناسبنى . أو أذهـب إلى المكتبة العـامة وأسـأل وأختار .. ولكنـه وعدنى بأنه سيأتى لى بكتب يسهل فهمها وحفظها .. كتب فاتحة لشهية القراءة والتذوق والتعود على ذلك ـ وهذه عبارة والدى .

أما الكتاب الذى لا أعرف اسمه فقد وجدت فى أول صفحة منه هذين البيتين .. وهذان لبيتان قد كهـربا كل أعصابى وخيـالى وحفظتهما بسرعة .. وكنت أفتعل المنـاسبات لكى أردّدهما على مسامع زملائى .. ولكن أحدًا منهم لم يكن يعى ما أقول أو يتحمس له .. ولم أكتف بذلك وإنما قلتهما لوالدى .. وظل يضحك . وأنـا سعيد باننى أعرف ما لا يعرف .. وإننى عندما عرفت وجدت شيئًا يبعث على الضـحك .. أما البيتان فهما :

إن النســاء شـياطين خلقن لنا

نعوذ بالله من شر الشـياطين

فهن أصـل البليات التى ظهرت

بين البرية فى الدنيا وفى الدين

وعرفت من والدى أن هذا الكتاب هو جزء مـن « ألف ليلة وليلة » وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع عن مثل هذا الكتاب . وحدثنى والدى كثيرًا عنه .. وتمنيت لو قرأته ..

ولم تكن لى أية تجارب مع المرأة لا فى الدنيا ولا فى الديـن . ولكن أسعدنى أن أجد مثل هذا الهجوم على المرأة .. فهل كان ذلك دليلاً على اننى ضقت بكل النساء اللاتى عرفتهن : جاراتنا وقريباتنا وصديقات أمى . فما الذى ضايقنى منهن ؟ هل هذا النوع من الناس ؟ من المشاكل ؟ من الحكايات التى تتكرر كل يوم .. بصورة مملة .. هل ما تقوله النساء عن الرجال وعن الأزواج وعن الأولاد .. هل هى الكلمات التى أسمعها من جدتى ولا يبدو أنها تحترم والدى ؟ هل سكـوت أمى على مثل هذه الكلمات يجعلنى أغضب مـن أمى أيضًا ..

هل هـي تلك الفتاة التـي وجدت نفسى فى حضنها .. ولم أعـد أراها ؟ هل هـن التلميذات اللاتـى ينظرن لى وكـأنهن يعرفن مـا كان بينـى وبين هذه الفتـاة على السلم .. أو تحت الكوبرى .. هل لأنها اختفت .. هل لأننى وجـدت فى نفسى ميلاً شديدًا لها ولكل البنات .. ولكنى لا أجـد الشجاعة مثـل كل زملائى .. فـأنا لا أعرف كيـف أتحدث إلى فتاة .. وإذا تحدثت فما الذى أقول . وإذا قلت فكيف يبقى الحديث ساعة أو كل اليوم .. إن زملائى يتكلمون طـول الوقت ولا يتوقفـون عن الكلام إلى أية فتـاة .. ماذا يقولون كـل يوم لا أعرف.

هل لأننى أشتاق إلى أختى ولا أستطيع أن أراها . هـل لأننى أحب خالتى ولا أجدها .. هل لأننى أحب أمـى وهى مريضة دائمًا .. مرهقة .. عصبية .. هل لأننـى أحب أبى وأجد أمى تشكو من انـه ليس هناك . هل لأننى أحب أن أكون فى حضرة نسـاء أخريات ولكن أمى تمنعنى وتحذرنى .. فنحن إذا ذهبنا إلى ست أم عزيز .. حذرتنى من الجلوس طويلاً مع بناتها .. وهن جميلات .. ثم إنها عاتبت والدى كيف إنه يصر على ذهابى معه للجلوس وسط الرجال ، ثم يطلبون منى أن أذهـب وأجلس مع السيدات والبنات . ما هذا الخوف من البنات ومن الزوجات ؟ ما الذى يمكـن أن تفعله واحدة منهن .. إننى أنظر إلى أصابع البنات فلا أجد مخالب ولا أسنانهن أنيـاباً .. وإلى عيونهن لا تخرج منها النار والشرار .. يتكلمـن ويضحكن .. ثـم إنهن لطيفات ظـريفـات ناعمات جميـلات .. فمن أيـن يجىء الخطر؟ وما هو هذا الخطر ؟

إذن لابد إنهن مخيفات . ولكـن ما الذى يمكن أن يفعلنه لمن يجلـس معهن أو يستمع إليهن .. إنهن شياطين .. أمى تقول .. والشعراء يقولون .. وأبى يضحك على ذلك .. وأنا لا أفهم ..

ووجد والـدى صعوبة شـديدة فى تفسير أبيات وجـدتها فى (ألف ليلة وليلـة) وكلها تمتدح المرأة .. ولكن والدى يعرف مشكلتى .. فهناك أبيات تلعن المرأة .. وأبيات تمتدحها فأيهما أصح ولماذا ؟

مثلاً :

ثـلاثـــة منعتهـــا مــن زيـــارتنـــا

خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق

ضوء الجبين ووسواس الحلىّ وما

حـــوت معـــاطفهـــا مـــن عنبر عبـــق

هـــب الجبيـــن بفضـــل الكم تستره

والحـــلى تنـــزعـــه ما حـيلة العـرق ؟!

مثلاً :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ·

مـــا لـــــذة العيـــش إلا للمجانـــين

نعـــم جـــننت فــهاتوا من جننت به

إن كـــان يشـــفى جـــنونى لا تلومونى!

مثلاً ·

ورد الكـــتاب فـــلا عـــرفـــت أناملا

كتبـــت بـــه حـــتى تضمـــــخ طيبـــا

فكـــأن مـــوسى قـــد أُعـــيد لأمـــه

أو ثـــوب يوســـف قد آتى يعقـــوبا

مثلاً .

تعشقت ظبيًا ناعس الطرف أحورا

تغار غصـــون البـــان منه إذا مشى

يمانعـــنى والطـــير يحـــظى بوصله

وذلك فضـــل الله يـــؤتيـــه من يشـــا

مثلاً :

بـــدت قمـــرا ومـــالت غصـــــن بـــان

وفـــاحـــت عنبـــرًا ورنـــت غـــزالاً

كـأن الحـزن مشغـوف بقلـبى

فسـاعـة هجـرها يجـد الـوصـالا

مثلاً ·

نشرت ثـلاث ذوائب من شعـرها

فى ليلـة فـأرت ليـالى أربعـا

واستقبلـت قـمر السـماء بوجهها

فـأرتنى القمـرين فى وقـت معـا

وآخر صفحة فى الجزء المتمزق من (ألف ليلة وليلة) جاء هذان البيتان ·

كل ابـن انثى وان طـالت سـلامتـه

يومـا على آلـة حـد بـاء محمـول

وكيـف يلهـو بعيـش أو يلـذ بـه

مـن التـرابُ علـى خـديـه مجعـول

ولا أذكر انى رأيت أبـى مهمومًا مقهورًا مثل هذا ليوم فأنـا حفظت شعرًا لم أسمعه منه وأنا أريد شرحـًا لهذه المعانى التى فوق إدراكى أو فوق قـدرتى على فهمها . ولقد تحير والدى تمامًا فى وصف جمال المرأة وحب الشعراء لها . ثم تعب جدًا فى شرح لماذا إذا كتبت المرأة خطـابًا فإن للخطـاب رائحة العطر ومـن أين يجىء هذا العطـر . ولم أشم للنساء عطرًا فى أى وقت . وإنما دائمًا رائحة الصابون النابلسى .. أو رائحة المطبخ الأرز والبصل والسمن .. فـما الذى يجعل لها عطـرًا إذا أمسكت القـلم وكتبت .. ولمـاذا تكتب وكيف تكتـب .. ثم كيف تبـدو كالقمر .. ومـا الذى يعذب الـرجال .. لقد أرهقـت والدى تمامًا.. ولكنه بقدر ما أسعده اننى بدأت أقرأ ، أحزنه أن أبدأ فهذا الكتاب الذى به عبارات كثيرة نابية ووصـف جنسى للعلاقات بين الـرجل والمرأة .. وقد لاحظت ذلـك وأدهشنى ولم أستطع أن أصارح أحـدًا بذلك ولقد أعـدت قراءة هذا الجزء من « ألـف ليلة وليلة » مرات كثيرة .. وكأننى أنظر من ثقب الباب إلى عالم غريب عجيب .. عالم لم أره ولم أسمع عنه .. عالم سحرى .. ولكنه فى نفس الوقت عـالم إنسانى مثير .. والرجال يقولون شعرًا

والنساء .. وهنـاك رقص وغناء وخمور ومعارك وعفـاريت وشياطين .. حتى العفـاريت تقول شعرًا . فما معنى ذلك ولماذا لا أحد يعرف هذا الكتاب . لقد سألت زملائى فلم أجد أحدًا قد سمع بهذا الكتاب .

وكانت أمى تمنعنى فى كل مرة أمسك كتابًا بالليل . فقد حدث أن غلبنى النوم فنمت .. فأحـرق المصباح الغـازى شعر رأسـى ورموش عينـى .. ومرة سقـط المصباح وانكسر وكادت تقع حريقة فى كتبى وكراريسى وملابسى . ثم إن أمى نبهتنى إلى أن كثرة القراءة ليلاً ونهارًا تضعف البصر .. ثم إنها كتب ليست مدرسية .. وهذه الكتب لم تنفع والدى فى شىء . وأكثـر الذيـن نفعوا فى حياتهم ، كـانت بيـوتهم خالية مـن الكتب . وأن بـائعى الحمص والسودانى يمزقون الكتب ويجعلون منها قراطيس .

وأمى تريدنى أن أقرأ الكتب المدرسية فقـط ولكن ما الذى يمكن قراءته فى الاجازة ؟ لابد من قراءة كتب أخرى .. ولم تكن من عادة أمى أن تناقشنى أو تحاورنى . إنها تقول . وكلامهـا أوامر . وأنا أطيع فقـط .. وقد سمعت أحد أقـاربى بعد أن قلب فى الكتـب التى وجدها على سريرى إنها كلام فارغ . وكيف أشغـل نفسى وأنا التلميذ المجتهد المتفوق بمثل هذه الكتب .

وكانت أمى تقول عادة . قل له .. والنبى .. قل له الله يخليك ..

وكان يقول ولكن لم أكن أسمع ما يقول . ولا أصدقه . ثم إننى حر أقرأ ما يعجبنى .. أنا حـر .. أصبحت عبارة أقولها كثيرًا وفى ذلـك دليل على نمو شخصيتـى وعلى استقلالى بالـرأى أو بداية هذا الاستقـلال .. وكنت أقول لأمى بصـورة قاطعة . إنت لـك أن أكون الأول . أليس كذلك ؟ إن شاء الله سأكون الأول . ولكن ما ينفع وما يضر من الكتب ، فأنا وحدى الذى يقرر ذلك ..

وكانـت أمى تحتج على حريتـى هذه .. وترى فيهـا تقويضًا لسلطانها أو نفـوذها .. وإننى لم أعد ولـن أكون الإبن المطيع الـذى لا يعرف مصلحته ومنفعته . أمـى فقط هى التى تعرف .. كـانت دائمًا تعرف ، ويجب أن تبقى كذلك . حـاضر يا ماما ـ هذا مـا أقوله دائمًا ، سـواء كنـت مقتنعًا أو لم أكـن . وأغلـب الظـن اننـى لم أكن . ولكـن لا أحـب أن أغضبها..

أما الكتاب الذى استولى على خيالى وبهرنى وسحرنى وأنا لا أعرف ما هذا .. ما هذا الأسلوب أو ما هذه الكتابة .. وما معناها وما اسمها .. ولماذا هى هكذا · فهو كتاب «مقامات الحريرى » . الكتاب صعب . ولا أعرف له معنى .. وإنما كان الشعر ، بعض الشعر أسهل ما فى هذا الكتاب . وفى نفس الوقت أصعب ما أعده كل أسبوع لوالدى وأسأله عن المعنى ..

مثلاً وكنت أقول من الذاكرة دائمًا ما جاء فى المقامات :

وقع الشوائب شنّيب
والدهر بالناس قلّب
إن دان يوما لشخص
ففى غد ينغلب
فلا تثق بوميض
من برقه فهو خلّب
واصبر إذا هو أضرى
بك الزمان وألب
فما على التبر عار
فى النار حين يُقلب

وكنت أتعجب لمثل هذه المعانى ، وكيف إهتديت إليها .. وكيف قالها الحريرى .. وفى نفس الوقت أنتظر التفسير من أبى .

يقول الحريرى أيضًا ·

لا تزر من تحب فى كل شهر
غير يوم ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال فى الشهر يوم
ثم لا تنظر العيون إليه !

أما معجزة المعجزات فاختياره للألفاظ المتشابهة المتقاربة ثم وضعها كلها فى شعر جميل كيف ؟

زينت زينبٌ بقد يقد

وتلاه ويلاه نهد يهد

جندها جيدها وطرف وظرف

ناعس تاعس بحد يحد

قدرها قد زها وتاهت وباهت

واغتدت واعتدت بخد يخد

فارقتنى فأرقتنى وشطت

وسطت ثم نم وجد وجد

فدنت فديّت وحنت وحيَّت

مغضبا مغضيا يود يود !

وعند هذا الشعر والحيرة والدهشة والعجب نصحنى والدى ألا أنشغل كثيرًا بمثل هذه الكتب ، فليس أوانها الآن .. سوف يجيء الاهتمام بعد أن أكبر .. لأنها تحتاج إلى فهم أعمق ومعرفة باللغة والنحو والصرف والشعر والبلاغة وطلب منى أن أحتفظ بهذا الكتاب ، ولكن بعيدًا عن يدى الآن ! .

وكنت أقرأ فى كتاب آخر لا أعرف معنى الكثير مما جاء فيه .. الكتاب اسمه « الكامل » من تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد .. ولم يكن كتابًا كاملاً وإنما هو جزء من كتاب كبير ..

وفيه أن رجلاً نظر إلى زوجته العجوز فوجدها تتجمل فقال لها .

عجوز ترجى أن تكون فتية

وقد أنحب الجنبان واحد ودب الظهر

تدس إلى العطار سلعة بيتها

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

ووجدت هذين البيتين أيضًا ·

وما غرنى إلا خضاب بكفها

وكحـل بعـينيها وأثـوابها الصـفر

وجـاءوا بهـا قبـل المحاق بليـلة

فكـان محـافًا كـله ذلك الشهـــر !

وكان والدى يشرح ويقول ويحاول أن يقرب هذه المعانى وكان يستعين بالقاموس ولم أكن أعرف معنى القاموس ، ولا أن فى بيتنا قاموسًا . وعلمنى أبى كيف أقرأ لكى أجد معانى الكلمات .. وكان ذلك فى غاية الصعوبة .

وسألت والدى عـن معانى هذه الأبيات التى تحيرت فى فهمهـا . وبعد الذى رأيته على وجهه مـن الحيرة والقلق وأنا أنتظـر وأتطلع ولا أتراجـع عن فهـم كل هذا الـذى جاء فى الأبيات التى وجـدتها أيضًا فى كتاب الكامل ، قـررت ألا أسأله بعد ذلك .. لـن أسأله .. لا امتحنه .. لا أحرجه .. لا أفـرض عليه ما لا يريد .. ولكن أنا لا أقـدر على مقاومة رغبتى فى أن أفهم وفى أن أعتمد عليه .. وأن أكلمه وأن أشغله معى قال الشاعر :

لم آر مثل الفقر أوضـع للفتى

ولم آر مثـل المـال أرفـع للـرذل

ولم أر عزا لامرئ كعـشيرة

ولم أر ذلا مثـل نـأى عن الأهـل

ولم أر من عدم أضر على امرئ

إذا عـاش بين النـاس من عـدم العقـل !

كأن هذه الأبيـات تشير إلى معنى عميق توارى بين الأحشاء ولا يريـد أبى أن يفصح عنه .. أو يدلنى عليـه . وفى نفس الوقت لا يريد أن يظهر لى أنه تضـايق وأننى دفعته إلى كشف سر دفين .

وحاول وحاولت أن أفهم .. وحاول كثيرًا . وفهمت بعض الذى قال ، فهو لم يقل كثيرًا من المعانى وإنما دار حولها ولم يدخل ! .

فى كل ليلة وأنا فى فراشى مستلقيًا على ظهرى أستعيد ما حدث طوال اليوم .. ولم أفلح فى فهم الخوف . هذا الخوف المستمر .. هذا الهرب أو الـرغبة فى الهرب .. لماذا أنا فى حالة

خـوف دائم .. خوف مـن أى شـىء ؟ لا أعـرف .. لأى سبب ؟ لا أعـرف . ولكنى خـائف عمومـًا . خائف عام .. مذعـور مطلقًا . إذا أحد دق البـاب أصابنا الرعـب .. وإذا فتحت الباب فأنننـى أسـأل من الذى يـدق الباب .. وانتظر حتى أتـأكد من الصـوت . فـإذا كان غريبًا سـألت : وماذا تريد ؟ وإذا لم أفهم ماذا يريد ذهبت إلى أمى أنقل إليها ما سمعت ..

وهذه الكتـب على الأرض أو تحت السرير أو فى جانـب من الغرفـة لماذا هـى مربـوطة بدوبارة . دائمًا مربـوطة . لأننى أتوقع أن نترك البيت والبلـد فى أى وقت . وحتى إذا لم يكن هناك أى سبب ، فقد أصبح من عادتى أن أحزم الكتب ..

وإذا سمعت صوتًا غير مفهوم قلنا الذئب . جـاء يخطف الدجاج .. أو هو التعلب أو هو قط يطارد ثعبانا أو إنهم اللصوص . مع إننى لم أر لصًا فى حياتى .. ولا أعرف من يكون واللصوص يجيئـون ليلاً . وسمعت انهم يغطون وجوههم بشـىء أسود حتى لا يعرفهم أحـد .. وسمعت انهم إذا ذهبوا لسرقة المراكـب الراسية فى الترعة فـإنهم يكونون عراة .. وأحيانًا يدهنون أجسادهم بطبقـة من الزيت أو الشـحم أو الطين حتى يصعب أن يمسك بهم أحد .. ولكن لم أر واحدًا منهم .. وإن كنا نتوقعهم فى أى وقت .. وأنا لا أسأل . ما الذى يمكن أن يسرقه من بيتنا .. إن أهم ما فى البيت موجود فى غرفة النوم ..الملابس فى الدولاب والساعة الكبيرة على الحائط والكتب تحت السرير ..

والليل فزع ورعب .. والنهار آمان . فأنت ترى والناس يرونك .. ولا أحد يستطيع أن يهرب.. يخطف ويهرب .. والناس كلهم من الممكن أن يسمعوا أى صراخ أو أى استغاثة . والذئاب تظهر فى الليل والثعالب والأفاعى نادرًا .. وكل جرائم القتل تتم فى الليل . والدفن يتم نهارًا ، مـرة واحدة سمعـت صراخًا فى الليـل ولما صحوت قـالت لى أمـى · نم أنـت ياحبيبى سوف أذهب لأرى .

ولكن لم أستطع أن أنام فقالت لى : أنت تعرف عم عبد ربه .

ـ نعم ..

ـ مات .

ـ مات كيف ؟ ولماذا ؟

ـ مات .. كل الناس سوف يموتون ..

ـ كيف يموت الإنسان ؟

ـ حكمة ربنا يا ابنى نم أنت وسوف أذهب إلى هناك . ولا تفتح الباب لأى أحد . ولا تخف . نصف ساعة وسوف أعود حالاً يا ولدى .. لا تخف ! انت رجل ! .

إذن من الممكن أن يموت الإنسان ليلاً والناس يبكون ليلاً ونهارًا .

وسمعت يومها دقًا على الباب . وجلست فى السرير . ولم أرد . ولكن الدق كان له وقع خاص.. ودون أن أسأل فتحت الباب .. وكان أبى وقلت له إن والدتى خرجت لأن عم عبده مات .. وتغيرت ملامح والدى . ولكنه لم يقل شيئًا ولم يشأ أن يخرج . وإنما جلس وبدأ يخلع حذاءه وأنا أساعده على ذلك .. وكان أحد الخفراء قد أدخل قفصًا من الفاكهة وسلة بها فطير مشلتت وزبدة وجبنة وعسل .

وطلب منى والدى أن أنام وأنه هو الذى سوف يفتح الباب . ولكن أريد أن أجلس إلى والدى وأن أتحدث معه .. واقترب منى والدى وأخذ يقبلنى وينظر فى وجهى .. وفى عينى وفى أذنى وفى عنقى وفى يدى وذراعى .

وسمعت طرقًا على الباب وأبى ينادى بأن افتح . ولكن والدتى هى التى ذهبت .. وغطت هى وجهى لكى أنام

وبعد ساعة أو ساعتين صحوت من النوم على حوار مرتفع .. شجار ..

والدى يقول : أنا تلقيت خطابًا من أحد الأولاد ـ إخوتى غير الأشقاء ـ يقول فيه : إنك ضربت الولد ضربًا موجعًا حتى نزل الدم من أنفه .. وإنه سقط على الأرض مغشيا عليه . لماذا؟

واعتدلت فى سريرى لكى أسمع .. فغرفة والدى لا تبعد عنى كثيرًا .. وكانت أمى لا تريد أن تناقش هذا الموضوع الآن .. وكأنها لا تريد أن يستمر فى الكلام فتقول له . هذا ما حدث .. الولد شقى جدًا . لقد وجدته أمسك ديكًا وفرخة وقد نزع ريشهما تمامًا .. ولما سألته قال : إنه لا يعرف الفرق بين الديك والفرخة وانه يريد أن يعرف ذلك بنفسه.. الولد اتجنن .. الكتب أصابته بالجنون . الكتب التى تأتى بها معك . إنه أحيانًا يكلم نفسه .

وقد وجدتـه منذ يومين قد وقف على أحـد المقاعد وراح يخطب بصوت مـرتفع .. ويقول آيات مـن القرآن .. والشعـر الذى لا أفهمه . ولم يكـن فى البيت أحـد إلا أنا . وهـو يكلم نفسه.. وقد نصحونى أن أبخره .. وأن اخذه للحاجة فاطمة لترقيه .. الولد أصابته العين . ولولا اننى أخاف عليه لا حرقت كل هذه الكتب ..

قال والدى الكتب التـى عنده فيها كلام الله والرسول .. وكلهـا كتب دينية .. أحسن كتب .. وأنـت لا تجدين مثلهـا فى بيت أى واحـد من زمـلائه .. ثم هـو صغير . ويعيش بمفرده .. لا أحد يقول له ماذا تقرأ وماذا تعمل . وما هو الصح وما هو الخطأ ..

ويبدو أن أمى قـد أغضبها أن يقول لها إن أحدًا لا ينصحه ولا يـوجهه .. لأنها تعمل ذلك طوال الوقت ..

وقال والدى · ولكن ليس بالضرب . بالكلام . بالعقل .. بهدوء ..

وردت والدتى . أنت يدك فى الماء البارد .. أنت تراه ساعة وتنام خمس ساعات وتراه ساعة . ثم يخرج ليعود فينام وتراه ساعة وتسافر ..وأنا الذى يقع فوق دماغى مشاكل النهـار والليل . الأكـل والشرب والغسيل والكنـس والواجبـات كلها . فمـن أين أجـىء بالأعصاب الهادئة .. انت الذى أفسدت الولد . انت الذى قلت له إنه أحسن الناس .. وإنه يفكر .. وإنه العاقل .. والعالم . هل تعرف أيـن يذهب الآن . إنه يذهب إلى بيت أبو آدم .. طبعـًا عارف لماذا ؟ لأن مـراتـه ست حليـوه ودلـوعة وصغيرة وتظـل تقـدم له الشــاى والحلويات وتعطيه الكتب . ويجلسان معًا بالساعات والرجل زوجها لا هو رجل ولا عنده غيره .. إنه رجل كالخواجات لا يصلى ولا يصوم .. وأنا أخاف على الولد ..

ـ أبدًا الـرجل يصلى ويصوم ومحترم ومؤدب وزوجته مـؤدبة وابنه الوحيـد فى غاية الأدب .. وأنتِ لا تعرفين زوجته إنها محترمة ..

ـ أعرفها .. زرتها .. ورأيت حـالها لم يعجبنى .. إنها تهزر مع ابننا وتضحك وبينهما كلام لا أفهمه .. وحكايات كثيرة يضحكان لها .. ولابد انهما جلسا معًا طويلاً وسرًا .. هذا هو الذى يعجبك ؟

ـ عارفه ما هذه الحكايات ؟ إنها التى جاءت فى القصص البوليسية التى يقرآنها معًا ..

قصص كلها عن اللصوص ومطاردة البوليس لهم ..

ـ وأنت تريده أن يكون لصًا ؟

ـ ولماذا لص .. لماذا لا يكون من رجال البوليس ؟

ـ بوليس مثل أبو المكارم زوج بنت خالتى . عسكرى بوليس .. لا .. لا .. أبدًا لا عسكرى ولا ضابط .. أبدًا .. إنهم يسرقون الناس .. ويخطفون وينهبون .. أبدًا .. إن طعامهم حرام وفلوسهم حرام .. أبدًا .. إننى أقول لك من الآن . وأنا سوف أمنعه من قراءة كتب العساكر والحرامية .. غدًا سوف أحرق هذه الكتب ! .

ولم أسمع ليلتها بوضوح ما الذى قاله والدى ..

نمت . وصحوت لأجد أمى تقول ووالدى يحاول أن يسكتها . أو يخفض صوتها حتى لا أسمع . لابد أن تقول له شيئًا .. إنه ابنك كما إنه ابنى .. وأنا لا أحب أن أكون أنا البعبع الذى يخيف الولد .. بينما أنت تجىء كالملائكة وتعود كالملائكة . كلمه .. اشخط فيه يجب أن تخيفه بكلمة ولو مرة واحدة .. إنه يسمع كلامك ولم يعد يسمع كلامى . لا أعرف ما الذى جرى . ما الذى أصابه ..

ـ لقد كبر . إنه الآن يدخل فى مرحلة الشباب . أى إنه رجل صغير ويريد أن يكون له رأى .. وهو يحاول أن يتكلم بصوت مرتفع . ألم تلاحظى . وأن يجعل صوته غليظًا .. إن رفع الصوت ليس قلة أدب . ولكنها مرحلة نمو .. يريد أن يقول . أنا عملت .. أنا من رأيى .. أنا أحب .. أنا لا أحب . أنا لا أوافق .. ألم تسمعى إنه قال لى فى الأسبوع الماضى يا بابا أنا أحبك واحترمك ولكن أختلف معك . وأنا لم أعلق على ذلك .. فقد مررت أنا أيضًا بهذه المرحلة وإنتِ لماذا كانت أمك تضربك كثيرًا مع إنك كنت قد كبرت .. لأنك كبرت .. ولأنك لم تعودى طفلة .. يجب أن تعطيه فرصة لكى يكبر .. إن الولد مؤدب جدًا .. إنتِ التى تقولين ذلك .. وكل الناس أيضًا .. بل إنه لا يعجبنى لأنه طيب أكثر مما يجب.. مؤدب أكثر مما يجب إنه بنوته .. ولو تركته يعمل ما تريدين لجعلته يرتدى ملابس البنات وتكون له ضفاير .. يجب أن يكون رجلاً . يجب !

ولا أعرف إن كانت أمى تبكى .. أو إن والدى يحاول إقناعها بعدم البكاء .. وفجأة

سمعتها تقـول · هل تعـرف ماذا حـدث أول أمس . أنـا كنت فى طـريقى لـزيارة حـرم المهندس . وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر .. مررت على بيت سليمان الخفير .. وجدت سليمان نائمًا أمام الباب وإلى جواره زوجته وابنهما .. ثم وجدت إبننا نائمًا هو الآخر .. ولما وجدتهم جميعـًا نائمين .. لم أقترب . وعندما رجعـت وجدت الرجل قـد جاء وابنهما الصغير .. ولم أجد إلا ابننا إلى جوار حرم الخفير .. هل يرضيك هذا .. هل هذا هو الأدب .. ينام أمـام بيوت النـاس .. ولماذا لا ينام أمام بيتنـا أو فى البيت . ويأتـى بمن يشـاء من زملائه .. لابد أن تكلمه ! .

ـ إنه طفل .. صحيـح إنه يدخل فى مرحلة الشباب .. فهو طفـل كبير . ولابد انه جلس معهم . وطلبوا إليـه أن يمدد فهو ليس أكثر من ابـن لهما .. وزميل لابنهما فى المدرسة .. ونام فى أدب ونهارًا وأمـام البيت .. وأفضـل أن تسأليـه .. بدلاً مـن أن تضربيه ويفـاجأ بالعقاب دون أن يعرف غلطته ..

ـ أنت يجب أن تكلمه !

ـ عندما أراه فى الصباح

ـ ولكن فى الصباح لن تقول له شيئًا .. أنت دائمًا تقول فى الصباح ويجىء الصباح ولا تقول شيئًا . وإنما تقول يـا حبيبى .. ماذا تقرأ . ما الذى أعجبـك .. ماذا فهمت .. تعال معى إلى بيت فلان . ولا تقول له كلمـة . وأنا الذى يجب أن أقول وأن أعلم وأن أضرب وبعد ذلك يكتبون لـك الجوابات يتحدثون عن الضرب ولا يذكـرون لك الأسباب .. وهذا هو الـذى يصيبنى من أولادك .. هم المؤدبـون وأنا قليلة الأدب . وأنا لا أحـب أن يجلس إليهم .. إنه أصغر سنًا وإنهم يدخنون ويعاكسـون البنات . أنا لا أحب هذه المسـخرة ..

ـ غدًا إن شاء الله ..

ـ تريد أن تنام ..

ـ لا ..

ـ أحكى لك حكاية غريبة ولا أعرف ما الذى يجب أن أعمله . انت الذى يجب أن تعمل شيئًا ..

ـ حكاية أخرى

ـ أشنع حكاية .

ـ حكاية لابننا أيضًا ..

ـ منذ ثلاثة أيام انتظرته أن يعود وقد بعثت به يشترى خبزًا وجبنًا وطعمية وفولاً وليمونًا .. وفوجئت بأنه عندما خرج حمل معه كل كتبه .. ولم أفهم السبب . ولما سألته قال إنه سوف يعطيها لأحد زملائه لكى يقرأها ثم يعيدها بعد أيام .. ولما طلبت إليه أن يترك الكتب وأن يؤجل هذه المهمة إلى غد قال لابد اليوم .. وانتظرته ساعة ساعتين .. ارتديت ملابسى وذهبت إلى زميله فقالوا إنهم لم يروه وذهبت إلى بيوت أصدقائه .. فقالوا جميعًا إنهم لم يروه . وكدت أفقد عقلى وعدت إلى البيت بعد أن طلبت إلى جارنا الخفير أن يبحث عنه .. فوعدنى بذلك .. وذهب إلى قسم البوليس . وكانت ليلة سوداء . وخفت أن يكون الذئب قد أكله .. أو يكون قد غرق فى الترعة .. أو يكون قد قتله أحد اللصوص .. وربنا هو الأعلم بما أصابنى .. وعند الفجر سمعت طرقًا على الباب .. وقفزت أفتح الباب فوجدته ووراءه إمام المسجد وقال لى الحمد لله وجدته .. إنه ما يزال صغيرًا.. الحمد لله على السلامة ..

فسألها والدى · أين كان ؟

تقول أمى وهى تبكى · لقد أخذ الخبز والفول والطعمية والشاى والسكر والكتب وذهب إلى قبر جده .. إنه سمع ان الموتى ينهضون بالليل .. لقد قرر أن يعيش هناك .. فأخذ طعامه وملابسه وكتبه .. وفوجئ شيخ المسجد بصوت طفل يسعل فى داخل الضريح . فاقترب ووجده ثم أتى به إلى هنا !.

ولم يرد والدى طويلاً .. ثم عاد يقول لها . الولد لا يريد أن يبقى فى البيت .. إنه يتركه وينام فى الشارع بين اناس آخرين .. ويريد أن يترك الدنيا ويذهب إلى المقابر .. الولد تعبان .. عنده شعور بالعزلة .. بأنه وحده .. حاولى أن تعيديه إليكِ .. أن تكسبيه .. إنه هارب منك .. أو خائف من كل الدنيا .. ولا أعرف من الذى قال له إن الأموات ينهضون من نومهم ليلاً وانهم يتكلمون إلى الأطفال ؟ فهو ذهب يتكلم مع جده .. أو يشكو إليه ..

أنا وجدت عنده خطابًا قد كتبه إلى جده .. لا تقولى له إننى فتشت فى أوراقه وعثرت عليه .. إنه طفل لا يعرف ماذا يريد من هذه الدنيا ..

وتلاشى الكلام ولم أعد أسمع شيئًا . لقد نام والدى ووالدتى . ونمت أيضًا ..

* * *

وسمعت ضوضاء وناسًا كثيرين ورأيت وحوشًا غير واضحة .. وجاء إناس وحملونى من ساقى .. ثم ألقوا بى فى ماء .. الماء يغلى وأنا أصرخ . ولكن أحدًا لا يرانى ولا أراه . وحاولت أن استنجد بوالدى ولكن يدًا غليظة سوداء انحشرت فى فمى .. ومسامير ساخنة انغرست فى أذنى . ووجدتنى أغوص فى الأرض وأصرخ .. ثم بدأت الأصوات تسكت .. وفتحت عينى لأجد أمى قريبة منى وهى تقول لى

مالك يا ابنى يا حبيبى .. انت تهلوس من ساعة ولا أعرف ما تقول .. سوف يأتى لك الطبيب حالاً خذ . اشرب .. والله يا ابنى ما أنا عارفه ماذا جرى لك . إنت كنت كويس.. حاضر يا ابنى لن أزعلك .. غصبا عنى يا ولدى انت ما تزال صغيرًا لا تعرف شيئًا من الدنيا .. الدنيا وحشه . الناس أوحش ما فى هذه الدنيا .. ربنا يجعل دنياك أحسن وأفضل.. يارب يا كريم .. اشرب بالشفاء إن شاء الله ..

٣٦

وكنت قـد كتبت خطابًا إلى جـدى لكى أضعه فى يـديه عندما أراه يصحـو من قبره .. وتظاهرت بـالنوم عندما قرر والدى أن يقـرأ الخطاب على اخوتى مندهشًـا مبهورًا قلقًا . قلت لجدى :

(أنا مش عارف يـا جدى ليه كل الستات تبكى . لماذا كل البنـات تكره الرجال .. لماذا يتكلمون بصوت عـال . والرجال يتكلمون بصوت منخفـض .. لماذا كل الأمهات تضرب الأطفال .. لا أفهم ماذا تريده أمى . وقبل أن أحاول فهمها تكون قد ثارت وغضبت وبكت ونزفت دمًا .. وأنا أزداد حزنًا عليها .. وأجدها تبكى فابكى .. أنا ترتيبى الأول فى المدرسة يا جدى .. ومع ذلك ماما تعاملنى كما لـو كنت قد سقطت فى الامتحان . كانوا يقولون لى إن الذى يحفظ القرآن الكريم لا يمرض .. وأنا أتعرض للزكام فى أسرع وقت.. وقالوا لى أن الذى يحفظ القـرآن يجد الطعام تحت المخدة .. أو يجده أمام السريـر .. ويجد الفلوس فى طيات كتبه .. وأنا سـألت الأطفال عن ذلك فقالـوا لى إنهم لم يجدوا الطعام ولا الفلوس .. وألاحظ أن والدى يضع يده على رأس أى إنسان يشكو الصداع ويقرأ آيات من القرآن أنا أعرفهـا .. فيذهـب الصداع .. ولكـن والدى الـذى يحفظ القـرآن يمرض ، وأنـا أمرض .. ووالدى يقرأ القـرآن عند رأس والدتى ، ولكن القـرآن لا يشفيها .. مش فاهـم .. وسيدنا الشيخ الذى حفظنى القرآن كان يطلب منا أن نسرق له بيض الدجاج من فوق الأسطح .. وكان يضربنا .. وكان يطلب منا أن نسرق الكراريس من المدارس المجاورة .. مش فاهم .. وكلما نظرت إلى ضيوف أمى وجاراتها وقريباتها وجدتهن يصرخن فى وجهى · ابعد .. لماذا

تنظر هكذا ؟ الولـد كبر   وأنا مش فاهم يا جدى .. لقد اعتـدت أن أجلس مع السيدات .. والآن كلما حاولت أن أجلس إليهن أشارت أمى وخالتى أن أبتعد . مش فاهم .. وفى إحدى المرات ذهبت إلى غرفتى وتظاهرت بالنوم فوجدتهن يتحدثن عن فلانة وزوجها .. وفلانة وزوجة أبيها .. وفلانة وفـلانه وحبهما لفلان .. وكلمات كثيرة لم أفهمها .ولم أحاول أن أسأل أحدًا .. جدى العزيز أنا عاوز أموت زيك . ومستعد أن أرى أبى وأمى إذا جاءوا لى ليلاً · ولكن لا أعرف مـا هى الطريقة التى يمكن أن يموت بها الإنسـان .. سألت الأطفال فضحكوا   وواحد قالى   إغرق فى النيل لكى يأكلك السمك .. فإذا أكلنى السمك فمن الذى يحملنى إليك هنـا . وواحد قالى · إطلع فوق النخلـة والق بنفسك من فـوقها وأنت تموت فورًا .. ونظرت إلى النخلة ولكنـى لا أعرف كيف أتسلقها .. وطفل قال لى · عنـدما تجدهم يشعلون نيران الفرن ادخـل برأسك مرة واحدة . واقتربـت من الفرن ووجدتـه ساخنًا جدًا. وكان نصيبى علقة مؤلمة من جدتى . فقد ظننت اننى سوف أمد يدى إلى ما فيه من أرز وفطير .. وطفل قالى · إذا امتنعت عن الأكل والشرب . لقد حاولت ولكن أكرهتنى أمى على الطعام حتى لا أمرض وأموت .. ولم أجرؤ أن أقول إننى أريد أن أموت ..

ولما مات خالى .. حاولت أن أتسلل إلى داخل الغـرفة التى يتمدد فيها . منعونى .. ولما وجدتهم يلفونه فى الأقمشة الحريرية .. حاولت أن ألف نفسى وأدخل إلى جواره فى النعش منعونى وضربونى ..

جدى العزيـز هذه هى المرة الثانية التـى أزورك فيها .. ولكنك لا تريـد أن تقابلنى . سوف أترك لـك هذا الجواب .. وأرجوك يا جـدى ألا تعطيه لأمى بعد أن تقـرأه أرجو أن تقطعه أو تخفيه فى جيبك حتـى آخذه منك فى المرة القادمة .. وأنا سـوف أقطعه وأرميه فى النيل .. جـدى العزيـز . أرجوك وأتـوسل إليك أن تـزورنى فى المنـام .. وسأنـام مبكرًا .. وسوف أتوضأ قبل أن أنام وسوف أقرأ القرآن حتى أنام .. وسوف أضع المصحف تحت مخدتى . أرجوك أن تزورنى فى المنام وتقول لى إنـك تسلمت الخطاب وإنك قرأته .. بس ربنا يخليك يا جدى ... والسلام عليكم ورحمة الله ..)

وكان والدى يقرأ الخطاب على إخـوتى وأنا قد تظاهرت بالنوم وهـو يقول لهم : الولد

ده مش عارف ربنا حيجعل منه إيه عندما يكبر . إن جسم هذا الولد لن يتحمل عقله .. مسكين جدًا .. عقله أكبر من سنه .. وأكبر من جسمه .. ولن يكون سعيدًا .. أنا مهموم بأخوكم هذا ..

* * *

وضحك إمام المسجد وقال لوالدى بعد سماعه لهذا الخطاب : الولد كاتب ولأنه لم يجد جمهورًا بين الأحياء ذهب إلى الأموات .. هاها .. هاها ..

اتفقت مع اختى على الهرب .

أختى قالت لأمى أن أذهب إلى بيتها وأبيت عندها حتى الصباح . وترددت أمى . ولكن أمام إلحاحها وتقبيل يديها وافقت أمى وطلبت من اختى أن تساعدنى على ترتيب ملابسى فى حقيبة من القماش .. وأن تضع المصحف بين ملابسى .. وطلبت منها أن تغطينى باللحاف . لابد من اللحاف حتى لا أصاب بالزكام فالدنيا برد .

وكنت قد أعددت ملابسى .. ولما لاحظت أمى إننى أحمل اللحاف معى . أشارت أن أتركه فأختى لديها لحاف ..

وبسرعة مرت أختى على بيتها الذى يبعد عن بيتنا ودخلت وغيرت ملابسها وحملت بقجة فيها بعض الملابس وبعض الطعام .. ووجدت ان معها عصا طويلة .. وقالت إنها تستخدمها لضرب الكلاب لأن فى خيام الغجر كلابًا كثيرة ..

وكنا فى طريقنا إلى خيام الغجر .. فأختى لاحظت اننى أحب أن تكون (زؤيه) معنا .. وهى طفلة غجرية فى مثل سنى .. بيضاء سوداء العينين والشعر تبدو وكأنها فى الرابعة عشرة مع إنها فى الحادية عشرة . وإذا نظرت إليك فإنها تنظر مباشرة إلى وجهك .. وتظل تنقل عينيها من عينيك إلى شفتيك إلى أصابعك إلى ملابسك .. إن نظرتها تلخبطنى .. ولكن يخفف عنى هذا الاضطراب إنها مبتسمة دائمًا .. وإنها إذا صافحتنى ألقت بنفسها على صدرى أو على كتفى قائلة · حبيبى .. عريسى ..

والمشوار طويل .. ولكن لا أستطيع الا أفكر قبل أن أراها .. فكنت أقول لأختى · وأين

تنام هذه الليلة ..

أختى هناك .. عندهم خيام كثيرة ..

ـ وهل ستكون معنا زؤيه ؟

ـ طبعًا . هى قالت لى أمس .

ـ انت قابلتها أمس .. أين ؟ ماذا قالت لك ؟

ـ قالت إنها سوف تنتظرنى وإننا سننام معًا فى خيمة واحدة .. وإنها طلبت منى بعض السكر والأرز والسمنة .. وقد أحضرت لها كل ذلك .. إنها تحبك يمكن أكثر منى .

ـ وأنا أحبها أيضًا .. كم يومًا سوف تبقى هنا .

ـ الليلة فقط .. لو أمى عرفت الحقيقة .. أو زوجة أبى .. سوف تكون مصيبة كبرى .. لقد قلت لزوجة أبى أننى سأنام عندكم .. فوافقت .. وربنا يستر ألا تلتقى مع أمى الليلة أو غدًا ..

ومن بعيد ظهرت الخيام . إنها ملونة . أول مرة أراها زرقاء وحمراء وسوداء . وأرى هذا العدد الكبير من الكلاب والماعز والحمير .. وكما توقعت أختى تقدم ناحيتى كلب أسود فضربته بالعصا .. فتراجع يصرخ . وتعالى نباح الكلاب .. وأطلت الأطفال من الخيام .. وظهر عدد من الرجال ولم تظهر زؤيه حتى الآن . وتوقفنا قليلاً .. وفجأة ظهرت (زؤيه) .. لم أعرفها .. ويبدو اننى كنت مضطرباً .. إن (زؤيه) حلوة .. وجهها مستدير .. أبيض .. وخداها حمراوان وشفتاها غليظتان .. وكتفاها مستديرتان عاريتان رغم برودة الجو .. وصدرها رغم انها صغيرة .. وكان شعرها ضفيرتين غليظتين واحدة على كتفها والثانية وراءها .. وقد وضعت عددًا كبيرًا من الأساور فى يديها والخواتم .. ونادت علينا . وردت عليها أختى .. وأبعدت عنا الكلاب ودون أن تصافحنا تقدمت إلى إحدى الخيام .. وأشارت · هنا أنت تنام . وإلى جوارك أختك .. وأنا إلى جوار أختك . وسوف يجىء أخوان صغيران ينامان متجاورين هنا ..

ثم طلبت إلى أختى ماذا تحملين معك ؟

وأعطتها أختى البقجة .. وفتحتها زؤيه . فوجدت الأرز والسكر والشاى والصابون

وعلبة سمنة .. وعلبة عسل وعلبة جبنة قديمة .. وفطائر مشلتت .. ونهضت زؤيه وقبلت أختى .. ثم قبلتنى .. ثـم انطلقت إلى مكان آخر .. ووجدتنى مع أختى وأسـألها : كم يومًا نجلس هنا ؟

ـ يوم واحد ..

ـ لا أريد أن أعود ..

ـ يا نهار اسود .. لا .. اليوم فقط . وغدًا نعود ..

ـ لا أريد أن أعود .. هل عندهم كتب ؟

ـ كتب ؟ لا أعرف . اسألها .

وجاءت (زؤيه) وسألتها : عندكم كتب ؟

ـ توجد كتب ولكن أنا لا أعرف القراءة ..وكلها بلغتنا .

ـ لغتكم ؟

ـ طبعًا نحن لنا لغة أخرى غير العربية .. أنـا أعرف منها القليل . ولكن الرجال الكبار فى السن يتكلمونها معًا . وأمى تعرف ..

ـ وأمك أين ؟

ـ تجرى على عيشها

ـ ماذا تعمل ؟

ـ ليست هى وحدها .. وإنما كل النسـاء يعملن . والرجال يجلسون هنا .. يصنعون الخيام والملابس والطهى وتربية الدواجن والماعز وإطعام الحمير وإصلاح العربات ..

ـ ولكن أنا أريد أن أكون مع أمك

ـ معها ؟ إنها سوف تكون سعيدة جدًا ..

ـ ولكن ماذا تعمل معها ؟

ـ أساعدها ..

ـ أمى سوف تكون سعيدة .. لأنها بدأت تشكـو من آلام فى ظهرها وركبتها .. وأنا لن أعمل الآن .. بعد الزواج . ولكن الآن أبقى مع الأطفال فى خدمة الرجال الكبار ..

ومن فتحة الخيمة أطـل أحد الرجال وتحدث إلى زؤيه .. ولم أفهم مـاذا يقولان ولكن زؤيه أشارت ناحيتنـا .. وتطلع إلينا الرجل بعين فاحصة قبل أن يقـول لنا أهلاً وسهلاً بالضيوف ..

ولم أفهم ما قالته زؤيه لـه . ولكن لم يظهر عليه الاهتمام . بل إن الإهتمام تحول إلى لا مبالاة .. وإلى لا شىء فاختفى .

وجاء رجل ثان أصغر سنًا وسلم علينا وسأل زؤيه بالعربية عنا فقالت : أخ وأخت .. وأنا أحبهما كثيرًا .. وأنا دعوتهما إلى المبيت عندنا .. وأنا سوف أبيت عندهما أيضًا ..

واختفى .. ولم يقل شيئًا .

وجاءت سيدة طويلة عريضة سمراء شديدة الاحمرار . وقد ارتدت ثوبًا أسود وتحته ثوب أحمر .. وشعرها أسود وعيناها واسعتـان والتف حول عنقها الكثير من العقود وفى يديها الكثير مـن الأساور والخواتم . وعلى خديها وشم وعلى أصابعها وشـم.. ودخلت وجلست . والتفتت ناحيتى وقالت . وحشتنى يا ابنى .. هذه أختك ؟

قلت : نعم .

ـ تحبها ؟

ـ جدًا .

ـ وهى تحبك .

ـ جدًا ..

ـ أكثر من زؤيه .

وتلعثمت ولم أقل شيئًا فهذه هى أول مرة أقارن بين حبى لأختى وحبى لزؤيه .. ولما رأت اضطرابى واحمرار وجهى والعرق الذى ظهر على وجهى . ضحكت وقالت : كل هذا يدل على انك تحب زؤيه أكثر من أختك .. وهى تحبك جدًا ومستعجلة . على الزواج .

وامتـدت يد أختـى تهزنى وتسـألنى . زواج ؟ انـت تتزوج دون علـم أمى ؟ يـا نهار اسود.. أنا لا أستطيع أن أبقـى هنا لحظة واحدة .. أنا ماشية .. هـذه مصيبة . أقعد انت معاهم .. لكن أنا سوف أعود ..

وانطلقت أختى وتركتنى ..

وخرجت أم زؤيه وجلسـت أنا وهى .. ولما رأت اضطرابى الشديـد اقتربت منى أكثر وهى تقول :

انت لا تعرف أمى .. إن لها طريقة فى الكلام لا تعجب الناس .. إنها هى التى تستعجل زواجى .. ونحن الغجر لا نتزوج إلا من الغجر .. وعـريسى موجود .. ولابد أن أتزوجه .. ولكنى أحبك .. وكنـت أتمنى لو انك أنت العريـس .. لكن أنت حياتك شكل ونحـن حياتنا شكل آخر .. أنا لا أستطيع أن أعيش بينكم ولا أنت تستطيع أن تعيش بيننا ..

ـ ولكن أريد أن أبقى هنا .. أريد أن أسافر معكم ..

ـ لابد أن تعمل .

ـ أعمل .

ـ ماذا تعرف ؟

ـ هل تحرث الأرض ؟ . هل تجمع الفاكهة ؟

ـ لا ..

ـ هل جربت السرقة ؟

ـ لا ..

ـ ولا سرقت مرة واحدة ؟

ـ ولا مرة ! .

ـ ولا وضعت يدك فى جيب والدك ؟

ـ لا ..

ـ إن أختك قد سرقت الأرز والسكر والسمنة من بيتها .. لماذا لا تعلمك السرقة .. وبعد ذلك تعال وعش معنا .. ولكن هل أهلك إذا عرفوا إنك هنا جاءوا وأخذوك ..

ـ طبعًا .

ـ إذن كيف تختفى بيننـا .. إن أختك سوف تبلغ والدك ووالدتـك وأقاربك .. وسوف تثور علينا المدينة كلها ويضربوننا .. ويجىء البوليس ويتهموننا بسرقة الدجاج والبيوت

وخطف الأطفال .. ويهددنـا البوليس بالحبـس أو ترك المكان .. لقد حـدث لنا ذلك كثيرًا جدًا.. لا أحد يريـدنا .. وأنا أعلم اننا لم نسرق كل هذه الأشياء التـى يتهموننا بسرقتها .. ولكن يبالغون فى جرائمنا .. أمى لم تسرق سوى بعض البيض .. انظر .. انظر..

ورأيت عـددًا من الناس .. عشرة .. عشرين والكـلاب تنبح وأنا أتـوارى . والأصوات تقول : يا لصوص يـا أولاد الكلب .. أين الحلل .. والأساور .. والقمصان التـى كانت على حبل الغسيل .. وشوال أرز .. وصندوق سكر ..

ويظهر أحد رجال البوليس .. وينادى : أين الرجل الكبير هنا ؟

ويظهر رجل كبير لـه لحية بيضاء فى السبعين .. إنه يتوكـأ على عصا .. وتسرع زؤيه وتضع تحتـه صندوقًا فـارغًا لكى يجلـس عليه .. ويقـف إلى جواره . ويقرب منـه رجل البـوليس ويقـول له : المسروقـات لابد أن تـرجع الآن وإلا فكـوا الخيام وامشـوا لحال سبيلكم يا أولاد الكلب يا حرامية .. رد .. ساكت يعنى ؟

ويكون للـرجل العجوز صـوت غير مسموع .. ولكن زؤيـه بمنتهى الشجاعـة تقول لرجـل البوليس إنـه مريض ويقـول لك . اتفضل فتـش كل شىء هنـا .. بنفسك . وإذا وجدت شيئًا واحدًا من هذه المسروقات فضعنا جميعًا فى السجن ..

وقبل أن يتقدم رجل البوليس إلى الخيام تكون النساء قد أخرجن كل شىء على شكل قفف وأكوام من الأدوات والأخشاب .. ويضرب رجل البوليـس كل شىء بيديه وقدميه .. وينظر إلى أقفاص الدجاج ولا يجد الماعز والحلل وجوالات الأرز والسكر ..

ويقول واحد من الجمهـور :: هناك مجموعة من الغجر فى الناحية التـانية .. فلنذهب إليهم ! .

وينفـض الناس .. وتنظـر زؤيه نـاحيتى وتقـول . لا يـوجد غجـر غيرنا ولكنهـم يبالغون فى السرقـات والجرائم .. ويبالغون فى عددنـا وفى مواقعنا وقدراتنـا على السرقة والاختفاء .. ويتوهمون إننا فى كل مكان .. وهـم بذلك يخفون اللصوص الحقيقيين .. إن اللصوص بينهـم وليسوا بيننا .. ولكن مـادمنا قد ظهرنـا فكل المصائب فوق دمـاغنا .. ويقولون لنا : إننـا قـذرون وأن لنا رائحـة كريهة .. وأن الكلاب لا تنـام فى الخيام لأنها لا تطيق رائحتنا ..

ثم تقترب منى أكثر وتقول لى : شم.. رائحتـى.. هل هذه رائحة يهرب منها الكلاب .. إننا يجب أن نستحـم مرتين فى كـل يوم وأن نغير ملابسنـا قبل النـوم.. دائمًا .. ونغسل أيدينـا قبل وبعد الأكل وكـذلك أفواهنـا .. إن ديننا يقول لنـا إنه مسموح لنا بـالسرقة .. وسوف أنادى جدى لكى يحكى لماذا سمح الله لنا بالسرقة . أريده هو يحكيها لك بنفسه..

واختفت وجاءت وعلى رأسهـا صندوق من الخشب . وضعـت الصندوق فى منتصف الخيمـة .. ثم ذهبـت لتأتـى بجـدها . إنـه رجـل وسيم .. كـان وسيمًا ثم أجلستـه على الصندوق .. ونظر ناحيتى .. عيناه لامعتان ولكن شديدة التجاعيد عند أطرافها وتحتها.. ولكن له ابتسامة حلوة .. وتحدثت إليه زؤيـه بلغتها وأخذ يحكى بلغته وهى تترجم .. ثم التفتت ناحيتى وقالت . المسيح .. عندما قرر الرومان صلبه .. تعرف القصة .

قلت : لا ..

قالت : المسيح .. عندما حكموا عليـه بالاعدام فوق الصليب .. جاء الحدادون وراحوا يضعون أمامه أربعة مسامير من الحديد .. لكى يدقوها فى كفيه وقدميه.. فتقدم واحد من أجدادنا وسرق مسمارًا .. فلم يجد الرومان إلا ثلاثة مسامير لكى يدقوها .. فكان اختفاء المسمار الرابع الذى سرقه جدنا سببًا فى إنقـاص آلام المسيح وعذابه .. والمسيح حكا ذلك لأبيه . فأسعده ذلك .. وقرر أن يسمح لنا بالسرقـة مكافأة على ذلك . ومن يومها ونحن نسرق الأشياء الصغيرة ..

ثم دار بينهما كلام لا أفهمه ..

ووجدتها تقـول له · قلت لـه .. إننا متهمون هنـا بسرقة وقتل ونهب وسلـب وخراب بيوت كل الناس .. وإذا مرض إنسان وإذا مـات .. وإذا اختفى أى شـىء .. وإننا عفاريت ليلًا ولصوص نهارًا .. واننا قـد أحطنا بالمدينة من جميع جوانبهـا .. وأن أحدًا لا يرانا إذا جئنا ، ولا يرانـا إذا خرجنا .. وأنت الوحيـد الذى تحبنا وتريد أن تعيـش معنا وأن تكون واحدًا منا ..

ثم اقتربت منى وكشفت ذراعى ودار بينهما كلام وظهرت السعادة على وجه الرجل .. ثم مدت ذراعها ليراها . وضحك الرجل وقال بالعربية : مبروك .. يا ولدى ! .

وكنت قد نسيـت اننى جئت وحدى وعندمـا طلبت من زؤيه أن نتـزوج جاءت أمها ..

وجعلتنى أشرب من دم زؤيه وتشرب هى من دمى .. أى إننا أخوان ولا نتزوج ! .

ولاحظت أن جدها ينـاديها : زوئيه .. زوئيا .. وكـانت تقـول له . سـى .. أى نعم .. وكلمات أخرى حفظتها ونسيتها ولكن عرفت فيما بعد أنها خليط من اللاتينى واليونانى والأسبانى والإيطالى والهندى والعربى .. إنها خليط من لغات البلاد التى يخترقونها على مدار السنة .. طول العمر ..

وخرج الرجل ومعه زؤيه .

وتركتنـى وحدى فى ذهـول .. فأنا هنـا أيضًا وحـدى . فى خيمة .. سجـن آخر .. ولا أستطيع أن أخرج من الخيمة .. وإذا عدت إلى البيت وحدى وإذا لم أعد .. وإذا أختى قالت لأمى الآن .. أو انها سوف تقـول ذلك غدًا .. وماذا تقـول لأبيها وزوجة أبيها عـن أسباب رجوعها .. وإن كانت أمى قد طردتها .. وكلام آخر موجع تقوله زوجة أبيها ولا تتركها إلا ودموعهـا على خديها .. أعرف ذلك .. رأيتـه وسمعته كثيرًا .. وتزداد حيرتـى : لماذا يبكى الناس .. ولماذا يتوقف الناس عن الكلام والشجـار إذا نزلت الدموع من العين .. ولماذا لا يبكى الرجال . وإن كنـت رأيت والدى يبكى مرة واحدة .. ولما رأيت ذلـك قال لى أبى أنا تذكرت والدتى يرحمها الله .. أنت رأيتها وأحببتها وهى كانت تحبك ..

ولم أسأل والدى إن كانت جدتى تزوره فى المنام ..

ولكن وجدته يروى أحد الأحلام التى زارته فيها ..

ويحدث كثيرًا جدًا أن أفكر فى شـىء أو يخطر على بالى شىء ، فأجـد والدى يحكيه .. وكأنه قرأ ما فى عقلى .. أو كأنه أحس بى .. أو كأنه قريب منى لدرجة أنه يسمع أفكارى..

وفى خيام الغجـر لا أكون فى كامل وعيـى .. إنما فى حالة مـن القلق والخوف والحيرة والدهشة والرغبة فى البقاء والفزع من البقاء ..

وفجأة انفتحـت الخيمة ووجدت أختى وأمـى وراءها .. وبسرعة وجدت أختـى تلملم ملابسـى وتدفعنـى أن أخرج فورًا . ولم أستطـع أن أرفع عينـى فى وجه أمـى ، ولا أمى نظرت ناحيتـى . ولا شعوريًا مددت لها يدى . ووجـدت يدى باردة ويدها . كـأننى نائم أمشى ، أو اننى أمش نائمًا .. تشبثت بيدها .. أو كـأننى أمشى على حافة بئر .. أو كأننى غرقـان ووجدت يدها .. أو كـأننى أضغط عليهـا لعلى أنقل لها كل ما فى نفسـى . وما فى

نفسى إلا الخوف . منها ؟ لا أخاف منها .. أخاف عليها ؟ نعم .. ولكنى خائف .. ارتعش.. اختنق .. لا أمى قالت شيئًا ولا أنا .. وإنما كانت يدى تنتظر يدها . والتقت اليدان . وسرنا. وأمى لا تنطق واختى أيضًا . وأنا السبب ..

ولم تشأ أمى أن تعود إلى بيتنا وإنما قررت أن تذهب إلى بيت أحد أقاربنا .. لم أكن أعرفه . ولكن رأيت السعادة على وجه أختى . وقرصتنى فى ذراعى . ولم أفهم .. لعلها أرادت أن توقظنى أو تؤكد لى أن أمى ليست غاضبة .. وأن القصة التى حكتها أختى لم يكن لها معنى يضايق أمى ..

السلم طويل . وأمى تتنفس بصوت مرتفع . وأنا أتقدمها وأشدها .. سمعتها تقول : ربنا يعطيك القوة يا ولدى .. ربنا يكرمنى بك ويكرمك يا ابنى ..

وانحنيت على يد أمى قبلتها ..

وأشارت أن أدق الباب . وأحسست بالسعادة لأنها تطلب منى شيئًا . وإن كل شىء عادى بيننا .. فرحت أدق الباب كثيرًا وبقوة . وضحكت أمى لتقول : إنهم يجلسون وراء الباب !.

وانفتح الباب على شقة مضيئة وجدرانها خضراء والمقاعد حمراء .. وتتوسطها تربيزة كبيرة . الوجوه لا أعرفها ..

وتقدمت أمى وهى تضحك ـ والله زمان يا ماما لم أرك تضحكين هكذا .. هل تخفين الحزن فى قلبك .. إلى هذه الدرجة انتِ قادرة على إخفاء مشاعرك .. ولكنك جميلة والله ياماما .. أمى بيضاء ووجهها وردى وعيناها عسليتان .. وإذا ضحكت كأنها تخجل من ضحكها فتحنى رأسها كأنها توارى وجهها . وقد أخذت منها هذه العادة .. ثم تمسح عرقًا ظهر على جبينها وبعد ذلك تلمس ضفيرتها الطويلة على كتفيها ـــ وتقول لصاحبة البيت . والله يا ست أم إلهام نفسى أزورك من زمان .. وأنا أتيت معى ابنى وبنتى ..

وفجأة ظهرت ثلاث بنات وولد هم كل أولاد الست أم إلهام ..

ولما شعرت بالاضطراب وجدت أمى تقول لى . أقعد يا حبيبى .. أقعد مع أخواتك ..

وقالت الست أم إلهام : إلهام الكبيرة .. وثريا .. ونوال .. وأصغر أولادى حمادة ..

لم أتابع ما يقال حولى .. ولكن كنت سعيدًا أن أجد أمى سعيدة .. وإنها لم تعاقبنى ..

أو إنها أرادت ألا أعود إلى البيت حزينًا .. وألا تجعلها حكاية كما كان والدى يقول لها : إنت كل حبة تجعلينها قبة .. كل شىء تافه يصبح عندك حكاية ورواية .. إن الولد لا يقصد كل هذه المعانى .. إنه صغير .. ولكنك انت التى تدبرين الحكايات فى دماغك وتجعلينها مصائب كبرى .. إنها أشياء تافهه ! .

* * *

وكان يومًا سعيدًا كله .. فى الليل جاء والدى وملأ البيت حيوية وحكايات .. وقدم لنا الحلوى والملابس الجديدة .. والجزمة التى وعدنى بها .. والكتب قد وضعتها تحت مخدتى حتى لا تراها أمى ..

وكان قد أحضر معه العشاء .. الأرز بالفرن والحمام والسمك المقلى والفاكهة واللب والسودانى .. وعلبة حلاوة .. والشاى الكثير والنعناع . وأعطانى مجموعة من أقلام الرصاص الشديدة السواد ..

وكما هى عادة والدتى قبل أن تنام فإنها تتأكد من اننى نمت .. فراحت تنادى .. فتظاهرت بالنوم . وجاءت لتتأكد بنفسها . فلم تشك انى نائم . وإذا بها تقول لوالدى : هل تعرف ماذا حدث .. إننى عملت بنصيحتك ولم أكلم الولد ولا كلمة .. وإن شاء الله كل شىء سوف ينتهى .. ذهب إلى الغجر مرة أخرى .. ولم يقل لى . وإنما كذب وقال إنه ذاهب إلى واحد صاحبه .. هل تعرف ماذا حدث .. والله أنا لا أعرف أين أخفى وجهى من وجوه الناس .. تصور ان الغجرية أم البنت التى تحبه .. طلبت منه أن يمشى وراءها فى الشوارع ويحمل القفة على رأسه .. وكلما نادى عليها أحد لكى ترى له البخت .. أنزل هو القفة ليخرج منها كيس الرمل وتضرب الودع .. ثم تتركه إلى جوار القفة وتذهب إلى البيوت وتسرق وتخطف وتطلب إليه أن يحمل القفة .. وإذا سألها الناس من هذا الولد تقول لهم زوج بنتى .. أنا لم أر ذلك وإلا كنت سقطت ميتة .. أخته هى التى قالت لى ذلك.. ولم تجرؤ أن تقول له حتى لا يغضب منها .. ولما سألت أخته عن السبب وهى موضع سره قال لها . أريد أن أترك مصر وأسافر معهم إلى ألمانيا وفرنسا والهند .. وإنه يريد أن تكون له عائلة من الغجر .. وتكون له خيمة ويكون هو كبير العائلة ويكون هو

الطبيب والعمدة .. هـو الذى قال لها كل هذه الحكـايات .. ولما قالت لـه وهل تترك أمى .. قال لها : ماما سـوف تكون معى .. أنا لن أعمل ذلك إلا عنـدما أكبر .. ولكن الآن أريد أن أذاكر وأن أنجـح وأن أكون وزيـرًا ، كما تريد مـاما .. وبعـد أن أكون وزيـرًا أترك مصر وأعيش فى جبال الهند وسط مملكة الغجر .. الكلام ده من أيـن يأتى به .. هل هو موجود فى الكتب ..

قال والدى وهو يضحك أبدًا .. أنا عمرى ما قرأت ولا سمعت عن هؤلاء الغجر ..

وقالت له أمى · لماذا لا تأخذه إلى أحد الأطباء ..

ـ الولد ليس مريضًا .. إنه صغير يتخيـل .. ويريد أن يعرف .. أن يكون شيئًا .. ولكن ظروفه لا تساعده .. إنه مختلف عـن بقية الأولاد .. الفرق بينه وبين الأولاد الذين فى مثل سنه .. إنهم مثـل الفراخ وهو مثـل الحمام .. هو يطير ولكنهم لا يطيرون .. هـم يمشون تحت وهو يمشـى فـوق . ونحن لا نقول إن الحمام مريـض لأنه لا يمشى على الأرض .. ولا نقول عن الفراخ إنها مريضة لأنها لا تطير فوق الشجر .. إنها مختلفة .. وكذلك ابننا مختلف .. إنـه يحفظ القرآن الكريـم وهو طفل .. وهـو يحفظ مئات أبيات الشعـر .. إنه مختلف .. وهو طيب .. فاضل .. خجول . مؤدب .. ترفقى به .. لا تخافى عليه ..

وارتفع صوت أمى فى فزع وهى تقول لوالدى : ومنذ أيام كان وهو نائم ينادى البنت مقصوفة الرقبة .

ـ من هى ..

ـ الغجرية التى تحبه وتريد أن تتزوجه ..

ـ اسمها زؤيه .

ـ وهو نائم ؟

ـ نعم ..

ـ كان مريضًا ؟

ـ كان مجنونًا ..

ـ طبيعى أن يهلـوس أى إنسان وهو نائم .. ومـن الممكن أن يذكر أى اسـم .. ينادى

أقرب الناس إليه . والـده .. أمه .. حتى الكلب إذا كان عنده كلب . سـوف آتى له بكلب .. وسوف أعلمه كيف يهتم به وينظف مكانه .. اتـركيه يعمل ما يحب .. إنه فى عزله شديدة إنه لا يجد أحدًا له نفس الاهتمامات من زملائه أو جيرانه أو أقاربه .. لا تخافى عليه .. أنا شخصيًا لست خائفًا ..

وصمت طويـل .. واستدرت لكى أنام . عنـدما وجدت والدى يضحـك ويسأل وأين وجدت هذا ؟

ـ وجدته فى ملابسه ..

ـ إنه خطاب كتبه إلى جده ! إنه يعتقد أن الموتـى ينهضـون من نومهم ليلاً ويتحدثون إلى الناس ويقرأون الخطابات ..

ـ ماذا يقول ؟

ـ إنه يسـأله رأيه فى زؤيه وهـل يتزوجها .. ويقول لـه إنه يحبها . ولكنها تـريده أن يسرق .. وأن يتعلم قراءة الفنجان والكف والودع .. وانه لا يريد ذلك ولا يحب إلا القراءة.. وانه لا يستطيع أن يكذب لأنـه قد حفظ القرآن .. وانه لا يسرق لأن هذا حـرام .. ثم إنه لا يريد أن يتزوجها وإنما فقط أن يعيش معها وأن يسافر بعيدًا .. ويطلب إلى جده ويرجوه أن يظهر لك فى المنام لكى يقنعك أنت إنه لا يستطيع أن يكلمك فى هذا الموضوع .. ثم يقول لجده وإذا أنت لم تظهر لى فى أى منام هذا الأسبوع ، فمعنى ذلك انك ترفض زواجى من زؤيه والحياة معها .. وإنك لم تستطع أن تقنع ماما ..

ـ سلامتك يا ابنى يا حبيبى .. يا أحب إخواتك وأطيبهم .. كله حنية .. ربنا يحل عقدته وينتشله من الضيق الذى يعانيه . يارب يا كريم ..

ـ لا تخافى .

ـ ربنا كبير .

ـ . . .

ـ . . .

.. وأنا بعد ذلك نمت ! .

٢٧

امتلأت حياتى بالأشياء المخيفة . أو العلاقات المخيفة .. أو الأوهام المخيفة ..

فأكبر الكلمات انتشارًا فى حياتى واستقرارا فى نفسى هى كلمة · الخوف ..

فالليل مخيف . ويبدأ الخوف قبل الغروب مباشرة .. ولذلك يجب ألا أمشى فى الشارع.. فإذا جاء الليل واجهناه بالأبواب المغلقة والنوافذ المحكمة .. ثم حشرنا الورق أو القماش أو القطن فى الفتحات الصغيرة بالنوافذ .. أو الانصات الشديد لكل صوت يجىء من أى مكان .. صوت صرصار يمشى على الورق .. يكون له دوى .. وصوت وراء النافذة وصوت فوق السطوح ..

وأحيانًا أسأل أمى : ما هذا ؟

فتقول لى · غط وجهك .. نم ! .

وأحيانًا تقول لى . إنه ثعلب يطارد عرسة . أو انها بعض الفئران ..

وتكون هذه إجابات قاطعة واضحة ولكنها ليست مريحة ..

وفى إحدى المرات سمعت شيئًا وقع أو انكسر أو خناقة .. وصراخًا واحدًا يضرب ابنه الصغير . فأسأل أمى :

ماذا فعل حتى ضربوه ؟

ـ من هم الذين ضربوه ..

ـ إنه يبكى ..

ـ لا أحد يبكى يا حبيبى ..

ـ ولكنى سمعت صوت طفل يبكى لابد أن أحـدًا قد ضربه .. ماذا فعل .. لكى يضربوه فى هذه الساعة من الليل ؟

ـ لا أحد .. انت تحلم !

ـ ولكنى متأكد ..

ـ لا أحد .. أنت تحلم ! .

ولكن لا أجد تفسيراً لهذه الأصوات القـوية الواضحة التى أسمعها فى الليلـة الواحدة عدة مرات ..

وفى إحدى الليـالى ولم يكن ذلـك وهماً . وإنما كل شـىء واضح تمامـاً . فأنـا لم أنم وفجأة سمعنا شيئاً يسقط من فوق السطوح .. واضح تماماً .. وبعد ذلك تعالت أصوات الدجاج .. ثم سكت .. وبعد ذلك تعالت أصوات الدجاج وسمعت أحداً يتكلم .. ونظرت إلى أمى فوجـدتها تنصت هى الأخرى . وسمعـت أحداً يتكلم .. وأصواتـا أخرى لا أتبينها . وأنظـر إلى أمـــى إنها هــى الأ خـرى تسمـــع ولا تقـول شيئـاً . وظهـــر الضيـق على وجهها.والحزن وطلبت منى أن أنام .. وسألتها ما هذا ؟

قالت : إنه فكرى ؟

ـ من هو فكرى .

ـ زميلك فى المدرسة ..

ـ وماذا يعمل عندنا ..

ـ يسرق الدجاج ..

ـ لماذا ؟

ـ ضـع الغطـاء على رأسك يا ولدى .. الصبح لـع عينان .. سوف أحدثك عـن كل ذلك فيما بعد .. لم أفهم . ولا سألت أمى . وإن كنت قد حاولت أن أعرف معنى ذلك بنفسى ..

أما فى ليالى الشتاء فهى العذاب نفسه . فالهواء له صوت تحت الباب وتحت النافذة فى أغصان الشجر .. وللكلاب والذئاب صوت فى الـوحل والطين .. وللناس أيضاً .. وفى ليالى الشتاء تتساقط الأشياء فى البيت وخارج البيت .. وكل ذلك يحدث أصواتاً متداخلة مفزعة غامضة ..

فلا يكـاد يظهر ضوء الشمـس حتى تستقبله بفتح النـوافذ .. أو إطفاء المصـابيح فى البيت .. ومـع الشمس يتبدد الظـلام الذى هـو الخوف .. وتختفى الأصوات الغـريبة .. وتغرق الدنيا فى حشد من أصوات الحياة اليومية .. الطيور وأصوات العربات والسيارات والراديـو والنداءات .. وبكـاء الأطفال وزعيق الآبـاء والأمهات .. وأصـوات بوابير الجاز والحنفيات . مع ظهور الشمس تمتلئ الدنيا أضواء وضوضاء وشعوراً بالأمان ..

وهناك الخوف مـن الناس . كل الناس مخيفـون .. كل الناس يعطلون عـن القراءة . والدراسة والتفوق والنجاح . كل الامهات تحسد الأولاد الطيبين المنشغلين بكتبهم فقط ..

والتى عندهـا بنات تحسد من عنـدها أولاد .. والتى عندهـا أولاد كثيرون تحسد من لديها اثنان فقـط .. والذى أولادها مهملون تحسد كل تلميـذ مجتهد مثلى .. وهذا تفسير مرضى أو إصابتى بالسخونة بعد كل زيارة من جارة من جاراتنا .

والكتب التى فيها صـور ضارة جداً إنها تشغل عن الكتب المدرسيـة . ومادامت فيها صور ففيها حكايات وكلام فارغ . ولكن مـا هو الكلام الفارغ أنه أى كلام ليس مفيداً .. أى ليس نوراً .. أما الكتب التى تظهر عليهـا وجوه أو صور بنات فهى المصيبة الكبرى .. وهى وحـدها التـى سوف تضيع مستقبلى .. وأمـى لا تمل من ذكر هـذه القصة بـألف طريقة .. فقد تضايق والدى من أن واحداً من إخوتى الأكبر سناً كان لا ينجح فى دراسته . مع إنه إنسان ذكى وطيب . وقد سمع من المدرسين وخصوصاً ناظر المدرسة أن أخى هذ يلعب كثيراً . ومادام هكذا يهتم بمظهره الخارجى إذن فهو يضيع وقته مع البنات ـ طبعاً لم أفهم أن يضيع وقته مع البنات .. يعنى ما الذى يعملـه مع البنات سألت أمى . فاكفهر وجهها وزغدتنى ولم تشأ أن تقول شيئاً . وفى يوم من الأيام راح والدى يفتش فى ملابس أخى الأكبر ثم يشمها .. ويفتش فى كتبه ثم يشمهـا .. وعندما فتش بين المراتب وجد عدداً كبيراً من صور البنات وخطـابات كتبها للبنات وكتبتها البنات لـه .. ولم أفلح فى أن أفهم معنى هـذا الذى رأيـت . ولا جرؤت أن أسـأل أمى . ولا حتـى أن أسأل والـدى .. صور لبنات.. وخطابات لبنـات ومن بنات وتؤدى كلها إلى سقوطـه فى المدرسة .. ويفكر والدى فى أن يمنعه من الذهاب إلى المدرسة ويبحث لـه عن عمل . مادام بليداً هكذا فى المدرسة ..

وانظر إلى أخى فلا أفهم .. وإلى والدى فهو غاضب وإلى والدتى فهى شديدة الفزع .. وفى كل مرة تحكى هذه الحكاية تضع يدها على أذنى كأنها لا تريدنى أن أسمعها .. هى التى تحكى لى الحكاية وهى التى تريدنى ألا أسمعها وهى فى نفس الوقت لا تتوقف عن حكايتها .. كأنها تطلق قنابل ، وتريد أن أسمع جانباً منها .. لا كل هذه الحكاية .. أو كأنها تخشى على أذنى أو على عقلى أن يصاب بالارتجاج .. ولكنها لا تكف عن هذه الحكاية .

لا كل البنات .. لأنها تطلب منى أن أجلس مع فلانة وأن اتعلم منها .. ولابد أن تكون فلانة هذه مسيحية .. أو أكبر منى فى السن .. أو فى مثل سن أمى . ولا أعرف معنى ذلك ولا عندى وقت لكى أفكر حتى لو رغبت فى ذلك ..

سألتنى أمى : ماذا كانت تقول لك فكتوريا ؟

ـ فكتوريا أخت ميشيل ؟

ـ نعم .؟

ـ إنها تقول إنها عندما تكبر وتتزوج سوف يكون لها ابن اسمه أنيس .. وسوف تجعله مطيعاً مثلى محباً للقراءة مؤدباً ..

ـ هى تتكلم عن الزواج ..

ـ وتقول إنها تتزوج واحداً مسلماً ..

ـ وهى قالت ذلك .. كيف .. وما الذى جعلها تقول لك ذلك . لا تجلس معها بعد اليوم!! قليلة الأدب ؟

إن أمى كانت تمتدح أدبها ورقتها وجمالها .. وفجأة أصبحت كالعقرب يجب ألا أكلمها وألا أذكراسمها ..

وفى يوم قالت لى : يا ابنى اسأل عن فكتوريا .. انت عارف إنها طيبة ومؤدبة وتحبك اسأل عليها وقل لها ماما سوف تجىء لزيارتك اليوم !.

وقبل أن أتساءل وأستوضح عن هذا التغيير ـ وإن كنت أحب أن أراها وأن أجلس إليها .. قالت لى أمى ويمكن تلاقى هناك خطيبها إنه شاب جميل وغنى جداً .. وسوف

يتزوجان قريباً ..

حتى صديقى عزيز الذى كان يجىء إلى البيت وتدعوه أمى إلى أن يبقى وأن يبيت عندنا لكى نتحدث ونتسلى .. هو الآخر حذرتنى أمى منه هكذا :

ـ انت تعرف اننى أحبك .

ـ نعم .

ـ وأنا ليس لى فى الدنيا غيرك .

ـ نعم .

ـ وأنا أعرف أكثر منك ..

ـ نعم ..

ـ وكل حاجة قلت لك عليها إنها غلط .. ثبت بعد ذلك انها غلط .

ـ صحيح .

ـ وأنا لما قلت لك إن عزيز طيب وابن حلال ومؤدب . وزى البنت فى كلامه وقعوده .. وقلت لك إنه أحسن من كل زملائك ..

ـ نعم .

ـ لكن عزيز يا ابنى لانه مدلل غنى جداً .. لا أعرف من الذى علمه السجائر .. هناك اناس كثيرون رأوه وهو يدخن .. بل إنه يذهب إلى المقاهى .. وهناك اناس يقسمون بالله العظيم إنهم وجدوه فى السينما مع تلميذة .. ولما رآه أقاربه هرب من السينما .. وفى مرة من المرات جاء أقارب التلميذة وضربوها علقة .. وطاردوا عزيز .. وضربوه على دماغه .. حتى سال دمه .. أنا يا حبيبى أريدك أن تبعد عن عزيز .

ـ حاضر يا ماما .. يعنى أعمل إيه .. لا أكلمه ؟.

ـ نعم .

ـ ولا كلمة ؟

ـ يعنى إذا قال لك : إزيك قل له : كويس ..

ـ وإذا حاول أن يسألنى عنك ؟

ـ قل له كويسة .

ـ وإذا قال لماذا لا أكلمه ولماذا لا أحب أن أمشى معه فى طريقنا إلى المدرسة أو إلى البيت فماذا أقول له ..

ـ قل له إنك مستعجل ..

ـ وإذا أصر انه يمشى معى ؟

ـ اتركه وامش لوحدك .

ولكن أمى تعود فتقول لى : يعنى تكلم معه ولكن ليس كثيراً . وإذا قال لك إنه سوف يذهب إلى المقهى وانه يدعوك إلى هناك فارفض تماماً .. إلا المقهى يا ولدى !.

ولا أذكر أن أمى طلبت منى فى يوم من الأيام أن أتوضأ أو أصلى ولا حتى أن أصوم.. فقد كانت تندهش كيف اننى حريص على الصلاة وعلى الصوم .. إنها تخشى أن أكون مثل عمى الذى هو أستاذ فى الأزهر .. أو أن أكون شيخاً فى مسجد .. إن فى رأسها صورة لمستقبلى .. هذه الصورة تعلقها فى خيالها على قصور وعلى حدائق وكأنها تحمل هذه الصورة فى يديها ليلاً ونهاراً .. وتنظر إليها ثم تنظر إلىّ .. وكلما وجدتنى أبعد عن هذه الصورة ، فإنها تنزعج .. وكأن هذه الصورة فى برواز ثمين جداً ولها غطاء زجاجى تخاف أن ينكسر ..

ولم أجد أمى تشجعنى على قراءة الكتب .. فقط الكتب المدرسية ..

وتخاف من اهتمامى بالشعر .. الذى ترى انه السبب الحقيقى فى أن والدى يضيع وقته مع الناس يحكي لهم ويلتفون حوله .. ثم إنه رغم إنه محبوب من كل الناس ليس أغنى الناس .. فالشعر والأدب والكتب لا فائدة منها وهى سبب الفقر .. بل الناس جميعاً هم سبب الفقر .. والبعد عن الناس هو المكسب الحقيقى !.

وفى كل مرة يجىء عمى إلى البيت وهو رجل لطيف رقيق .. كلامه حلو .. وتمنياته سخيه .. وهو يرى اننى سوف أكون شيئاً هاماً إننى مستقيم ولأنى جاد وأحب القراءة.. فى كل مرة يجىء فإن والدتى تخترع شيئاً يبعدنى عن البيت .. حتى لا أجلس إليه .. وحتى لا أسمع إلى ما يقول وحتى لا يقنعنى بأن أكون شيخاً أزهرياً .. وفى إحدى المرات

جاء عمى فوجدنى نائماً فى الفراش . هو جاء مبكراً .. دق بابنا بعد صلاة الفجر لانه كان على سفر .. وسمعته يقول لوالدتى . أين هو ؟

ـ نائم ..

ودار همس وكلام بين والـدى ووالدتى .. وإذا بها تجىء وتهمـس فى أذنى . تظـاهر بالمرض .. لا تترك الفراش .. إياك !.

وظللت فى الفراش .. وجاء عمى ليسـأل عن صـحتى . وكـانت أمى هى التى تقول إننى غير قادر على الكلام فعنـدى التهاب حاد فى حلقى .. والدكـاترة منعونى مـن النزول من السرير والكلام والذهاب إلى المدرسة .. وإننى لم أنم طول الليل .. وكنت على وشك النوم.

ومعنى ذلك إنه مـن الواجب أن يتركنى لكى أنام .. ويخرج فوراً مـن الغرفة .. وخرج الرجل وهو لا يعرف الحقيقة !.

ومن أهم الأحداث التى أفزعت حياتـى كلها .. وجعلت أمى تلزم الفراش بلا طعام ولا دواء فقد جاء بمحض الصدفة ، وعن غير قصد منى .. ولم أتنبه إلى معنى ما حدث .. ولا أمـى قالـت لى شيئا . ولأنها أرسلـت خطابـاً لـوالدى لأول مـرة .. وتطلب إليـه ضرورة الحضـور فـوراً . وأن يترك كـل شـىء ليرى مـاذا حـدث لى ومـاذا سـوف يحدث لى فى المستقبل.

ولم أكن أتصور أن أمى لديها هذه المقدرة الفائقة على استدعاء الناس وحشدهم معها فى صف واحـد .. فقد جاءت جدتـى .. وجاءت خالتـى وخالى .. وجاء أحد أقـاربها وكان وكيلاً للوزارة . وجاء ابن خالتها وكان ناظـراً للمدرسة .. وجاء طبيب كان يعالـجها وهو من أقاربها أيضاً ..

ثم جاء والدى فى حالة من الفزع ..

أما الفزع الأكبر فهو الذى أصـابنى فأمى مرضت فجأة . وهى تنظـر لى فى حالة من الخوف .. كأننى سوف أمـوت حالاً .. أو كأنى ميت .. فهى تقترب منـى وتضع يدها على وجهى .. وعلى رقبتى ولا تقول شيئاً وتبكى ..

وكل واحد يدخـل البيت الذى ضاق عن كل الناس يتعمـد أن يقترب منى ويبتسم ثم

يضع يده على رأسى ولا يقول شيئاً...

وأمام الجميع طلبت منى أمى أن أقول لهم ماذا حدث . وكيف حدث ، وكان والدى هو أول من تكلم .

ـ ماذا حدث ؟ يا ولدى .

ـ لا شىء .. إنهم قالوا لى تعالى معنا .. وذهبت معهم .

أمى تصرخ . كم مرة ؟

ـ كثيراً جداً ..

ـ ولم يقل لى .. تصور لم يقل لى ولا مرة واحدة ..

ـ وماذا حدث يا ولدى ؟

ـ لا شىء .. إنهم اناس كثيرون رجال ونساء .

ـ وأنت كنت تصلى مثلهم .

ـ لا .

ـ ماذا كنت تفعل ؟

ـ فقط أجلس فى آخر الصف وأتفرج فقط ..

ـ ولا أحد طلب إليك أن تصلى فى الكنيسة .

ـ لا .

ـ إذن لماذا كنت تذهب معهم ؟

ـ إنهم أصحابى .. وبدلاً من أن أقف أمام الكنيسة فإننى أدخل وأجلس فى آخر صف فى انتظارهم .

ـ لم يطلب إليك أحد أن تصلى مثلهم .

ـ أبداً ..

ـ ومنذ متى وأنت تذهب إلى كنيسة المسيحيين ..

ـ من زمان ..

ـ ولماذا لم تقل لماما ؟

ـ نسيت .

وخرجت والدتى وهى تقول : هناك ما هو أفظع .. قل له .. قل له .

سألنى والدى : ماذا فعلت ؟

ـ لم أفعل شيئاً

والدتى تقول . إنه ذهب إلى كنيسة اليهود .. يا مصيبتى .. يا مصيبتى !

والدى يسألنى : وذهبت إلى كنيسة اليهود ؟

ـ نعم .

ـ وهناك ماذا فعلت ؟

ـ وقفت فى آخر الكنيسة وتفرجت عليهم وهم يصلون .

ـ ولم يطلب إليك أحد أن تصلى مثلهم ؟

ـ لا .

ـ لا أحد ..

ـ ومنذ متى ؟

ـ من زمان .

ـ ولم تقل لماما ؟

ـ لا ..

ـ ولكن أنت متأكد أن أحداً من رجال الدين قد تكلم معك .. أو قدم لك هدية .. أو أعطاك كتباً ..

ـ نعم أعطونى بعض الكتب .. بلغة لا أعرفها ..

أمى : وهذه الكتب موجودة هنا فى البيت .. أرمها فى الشارع !.

ـ ارمى الكتب ؟

ـ نعم .. وتحرقها أيضاً . قبل أن تحرق البيت !

وأمى تبكى وتنظر إلى كل الحاضرين · قالوا لى اعمل إيه كيف أعيش بعد اليوم .. والولد اللى حيلتى عاوزين يكفروه .. عاوزين يغيروا دينه ..

ويحاول والدى أن يقنعها أو يفهمها . ولكن أمى لا تريد أن تقتنع . . ووجدتنى خارج الغرفة .. خارج البيت . وأخذنى خالى من يدى .. وذهبنا إلى المطاعم وراح يحكى لى حكايات ويسألنى : ألم تكذب على بابا وماما ؟

ـ أنا لا أكذب .

ـ إذا كان فيه حاجة قل لى أنا ..

ـ لا شىء !.

ـ انت عارف ان ماما خايفة يكون النصارى واليهود قد غيروا دينك . انت تعرف شوقى سليمان .. فقد اقنعوه بأن يترك دينه .. فما كان من أهله إلا أن قتلوه ..

ـ شوقى قتلوه ؟

ـ نعم .

ـ شوقى سليمان قتلوه ..؟

ـ نعم .

ـ أبداً . شوقى لم يقتلوه إنه حى .. لقد رأيته بالأمس فى المكتبة .. وتحدثت إليه .. لقد أدخلوه الأزهر ..

ـ ولكن ماما تقول إنهم قتلوه ..

ـ أبداً .. إنه لم يغير دينه .. لا أحد قد غير دينه . لقد رأيته وقد ارتدى الجبة والقفطان وشكله ظريف .. وأصبح إنساناً مختلفاً تماماً ..

ـ إياك أن تذكر لوالدتك شيئاً من ذلك .. إنها تقصد أنهم قتلوه .. يمكن لأنها لا تريدك أن تراه فهى تخاف أن تذهب إلى الأزهر .. ولذلك فهى تؤكد انه مات .. أو يجب أن يموت.. أنا أصدق كل كلمة أنت تقولها .. وأنا أعرف انك لا تكذب .. هل طلب منك أحدا أن تغير دينك ؟

ـ أبداً ..

ـ أبداً؟

ـ أبداً

ـ خلاص .. أنا مصدقك . وأنا سوف أتولى إقناع والدتك هيا بنا ..

وبهذه الحادثة دخلت فى دوامة .. دوخة .. استمرت سنوات ولا أعرف كيف أخرج منها .. وأصبح موقف أمى صعباً جداً .. فالناس الذين أحبهم تريدنى أن أبعد عنهم .. ولكن الناس لا يبعدون . إنهم لا يفهمون . وكلما حاولوا أن يعودوا إلينا ، ازداد شكها وخوفها وفزعها .

ولكن أمى استراحت عندما جاءتها مدام بركات تقول لها : فى الدين اليهودى .. لابد أن يكون الأب والأم يهوديين .. إن أحداً لا يدخل ديننا .. ونحن لا نحب أى واحد من الأديان الأخرى يدخل ديننا .. فديننا لنا نحن فقط !.

وبسرعة أشرق وجه أمى فقد كانت تصدق مدام بركات .. وأيقنت أن مدام بركات وابنها وغيرها من اليهود لا يحاولون أن يدخلوا أحدًا دينهم ! .

وفى عيد ميلادى الذى أصرت الست أم جورج على إحيائه فى بيتنا ولأول مرة .. فقد أصر أولادها جميعًا على ذلك .. على إصلاح ما بيننا .. أو ظنًا منهم اننى أتمنى أن يكون لى عيد ميلاد .. ولكنى لا أستطيع .. أو أن أمى لا تريد ذلك . لأن والدى ليس هناك .. أو لأى سبب آخر لا أعرفه ..

وكان كل شىء جديداً .. التورتة .. وبعض السندوتشات الصغيرة .. والشموع والترابيزة والوقوف حولها .. وكلمات · هابى برثداى .. كل ذلك لم أره من قبل ..

وأعجب من كل ذلك .. ان الجميع جاءوا وقبلونى .. ولم أعرف ما الذى أفعله ردا على ذلك .. حتى البنات . وأحمر وجهى .. وجاء العرق من كل مكان .. وراح قلبى يدق .. يكاد يخرج من ضلوعى .. ودارت الأرض بى .. واعتقد اننى غرقت فى ضباب .. واعتقد اننى تساندت على الست أم جورج فقبلتنى مرة أخرى .. ودخت .. ودارت الأرض من اليمين إلى الشمال ثم عادت تدور من فوق إلى تحت .. الأرض والسقف ..

كم مضى من الوقت كى أفيق .. لا أعرف ..

ولكنى وجدتنى جالساً . وفى يدى طبق وشوكة وسكينة . وسمعت .. وكان الصوت مثل الضباب غامضاً .. وكان الصوت مرتجفاً .. كأنه صوت لواحد فوق السطوح ينادى واحداً فى الشارع .. أو كأن اثنين يطلان من نافذتين .. وكل واحد يزعق بأعلى صوته

يحاول أن يكون واضحاً .. ولكن أحدهما يقول للآخر : مش سامع .. وواحد ثان يقول له· قطعت نفسى . إن شاء الله ما سمعت ..

كم مضى من الوقت لينقشع الضباب .. وتظهر الصور واضحة .. والوجوه .. والابتسامات والملابس .. وسمعت الست أم أم جورج تقول لى : الولد ضعيف جداً ياست أم صلاح (والدتى) يظهر انه يذاكر كثيراً ويأكل قليلاً ..

ويبدو أن هناك حكاية كانت ترويها الست أم جورج لوالدتى .. ولم تكملها .. ثم قالت لها : دايماً الشخص الذى يغير دينه يكون قليل الذمة . ونحن لا نحترم من يغير دينه .. المسلم إذا غير دينه .. والمسيحى إذا غير دينه .. وننظر إليه باحتقار .. لأن الذى يغير دينه يغير ذمته .. ويكذب ويخون ولا أمان له ..

كانت هذه الكلمات وحدها إفراجًا عامًا .. فقد سعدت أمى بها تمامًا .. فلا أحد دعانى أو أقنعنى أو حاول أن يغير دينى ..

وكان ذلك اليوم عيد ميلاد حقيقياً لى وللعلاقة الجديدة بينى وبين أمى ..

وكان من عاداتها بعد ذلك أن تقول : أنا متأكدة انك لاتكذب .. وانك لم تكذب فى كل الذى قلته عن ذهابك للكنيسة مع أصحابك .. أنا متأكدة .. طول عمرك ياولدى لم تكذب.. ولن تكذب .

– حاضر ياماما ..

– ربنا يفتح عليك ياولدى .. وربنا يكرمك .. ويكرمنى بك ..

ولم تكن صدمة كبيرة لوالدتى عندما وجدت قسيسا يدق الباب يسأل عن صحتى .. ولم تعرف أمى ما الذى يمكن أن تفعله .. هل تكلمه من وراء الباب .. هل تدعوه إلى الدخول ..

ولكنه أدرك ذلك بسرعة فقال لها : إنما أردت أن أطمئن عليه .. فهو منذ فترة طويلة لم يتردد على المدرسة ليكمل دراسته للغة الإيطالية ..

إننى أدرس اللغة الإيطالية والألمانية واليونانية والعبرية .. وكل الذين يعلموننا هذه اللغات من رجال الدين . وهم اناس طيبون وفى غاية الصفاء والنقاء ..

وقالت أمى : إننى أصدقك ياولدى .. ربنا يفتح عليك .. ويثبت إيمانك ويحميك بدينك وفى القرآن الذى حفظته .. إننى أصدقك ياولدى ..

٣٨

اندهش جدًا عندما يقول زملائى . بيتنا .. شارعنا .. بلدنا ..

وألاحظ أننى أقول دائماً : فى البيت .. فى الشارع .. هنا فى هذا البلد ..

واندهش وأتعجب عندما أسمع الواحد منهم يقول : سريرى .. كتبى .. أفكارى .. حمامى .. مصروفى .. مستقبلى ..

وأنا أقول . السرير .. الكتب .. الحمام ..

ولا أعرف معنى المصروف ولا أى معنى للمستقبل ..

ولا أفهم لماذا يندفع بعض الشبان يهاجمون شبابًا آخرين لأنهم يعاكسون فتاة . يصفونها بأنها من شارعنا .. أو بنت الحتة .. فقط لأنها من الشارع الذى يسكنون فيه .. أو هى تسكن فى نفس البيت أو البيت المجاور له ..

فعندى هذا الإحساس : أننى لا أملك شيئًا .. وأنه لا يوجد لى شىء خاص ..

فلأننا ننتقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد .. فإننى لم أستطع أن أصف مكانًا بأنه مكانى .. أو بلدى .. أو بيتى .. أو جارى .. أو أهلى . أو عائلتى ..

ولا قلت ما يقوله زملائى : فلان أوحشنى فذهبت إليه .. أو فلان من مدة لم نره فلابد أن نسأل عنه .. أو أنه مريض يجب أن نحمل له هدية .. أو باقة ورد ..

أو أسمع أحدًا يقول : كيف تحتفلون ولا تدعوننا ..

أو من يقول . كيف تذهب بالقميص والبنطلون .. وكيف تكون الكرافتة قاتمة وأنت تعرف انهم فى حالة حداد ..

فما هذا الذى يقولون .. وما هذه العلاقات بين الناس .. أو بين الناس والأشياء .. الأكل والشرب والسرير والحمام والشارع ..

لقد استمعت إلى الست أم جورج وهى تقول لوالدتى : بعد أن أخذت حمامى وشربت قهوتى ..

ما معنى حمامها وما معنى قهوتها ..

وفى إحدى المرات عندما زرت الست أم جورج ووجدتها تشرب القهوة سألتها : وهذه قهوتك ..

فأجابت : نعم .. إنها لرابع مرة ..

ـ وهل هى من نفس البن الذى تقدمينه للضيوف .

ـ طبعًا .. أحسن بن .. الله يضحكك .. وهل أقدم للضيوف غير الذى أشربه أنا ..

لم أفهم معنى أن تكون لها قهوة خاصة .

ولكنه تأكيد لكل ما هو شخصى ..

تأكيد للامتلاك .. وتأكيد للذات ..

وعندما سمعت من أحد زملائى أنه عادة يدخل غرفة والده ويختار أحسن قميص وأحسن جورب وأحسن منديل .. أى أنه يرتدى قمصان والده وجواربه .. ووالده يعلم ذلك .. ووالدته أيضاً .. ولكن أحداً لا يضربه .. أو يحرمه من الطعام أو يحبسه فى البيت .. أو يعاقبه بعدم الذهاب إلى المدرسة أو يقطع عنه المصروف ..

وقد ذهبت هذه المعانى الغريبة إلى جوانب شتى من نفسى .. واستقرت أو حاولت.. ولكن لا شىء من ذلك يمكن أن أفعله أو أقلده ..

مرة واحدة .. ذهبت إلى المدرسة وقد وضعت فى قدمى حذاء لواحد من إخوتى الكبار .. وكان الحذاء كبيراً جدًا .. ولفت نظر زملائى فى المدرسة .. وكانوا يتضاحكون سرًا وعلنًا .. ولاحظت فعلاً أن قدمى لا تستقر فى الحذاء .. وأننى لا أعرف كيف أمشى.. وهم الذين نبهونى إلى ذلك !.

ولاحظت أنى قد كتبت اسمى على كل الكتب التى فى البيت .. كل الكتب .. ولكن عندما

أشير إلى هذه الكتب فأنني أقول الكتب.. الكتب التى فى البيت .. ولا أقول كتبى التى فى بيتنا .. أو فى بيتى ..

فكأننى قد وضعت اسمى عليها تأكيداً سريًّا لملكيتها .. تأكيدًا سريًّا لى أنا .. وأننى فعلت ذلك لا شعوريًّا ..

ولاحظت أن الكتب التى استعيرها من زملائى ومن المكتبة العامة لبضعة أيام ، فإننى أكتب اسمى عليها ؟!.

ونبهنى أحد إلى أن خطى جميل .. وكنت أكتب بالنسخ .. وكان والدى يكتب بالخط الفارسى البديع .. وكان ذلك اكتشافاً . فكنت استخدم القلم الرصاص .. وبعد ذلك استخدم الموس فى تفريغ الخطوط على الورق .. ثم وضع الورق المفضض تحت الخط .. وكنت أتطوع بإعطاء هذه اللافتات لمحلات البقالة .. أكتب اسم المحل واسم صاحبه..

ثم اخترعت لنفسى شيئاً جديدًا ..

كنت أكتب اسمى على الورق الكرتون .. وأفرغه .. ثم آخذ الكرتون بعد ذلك .. وأضعه على الحائط أو على الباب .. واملأ الفراغ بالبوية .. وكان اسمى مكتوباً على الجدران والأبواب لماذا ؟ لا سبب ..

ويبدو إننى وجدت عذرًا لكتابة هذا الاسم فكنت أكتب اللافتات على الشوارع هكذا : اطلبوا صلاح الخطاط .

أى إننى خطاط ومطلوب من الناس أن يجيئوا لكى أ كتب لهم هذه اللافتات ..

وفى يوم زارنا أحد أقاربنا ووجد لافتة كبيرة على باب البيت وسأل . من صلاح الخطاط ..

فقيل له : إنه أنا ..

ـ وهل أنت خطاط ؟

ـ لا .

ـ إذن ؟

ـ إننى أكتب اسمى والسلام .

فضحك الرجل ولم يقل شيئاً . وكان ذلك الصمت معناه أن الـذى أعمله لا معنى له . فلا أنا خطاط ولا أعرف ما الذى يمكن عمله إذا جاءنى أحد يطلب لافتة من القماش أو من الخشب على الدكان أو عربة فول أو ترمس ..

ولكن المعنى هو اننى أعلن عن نفسى وعن امتيازى عن الآخرين .. وانني لم أكن أملك شيئًا ، فأملك اسمى بهذه الصورة الجميلة .. وحتى لا يكون اسمى لا مبرر لوجوده على الجدران ، فقد توهمت اننى خطاط محترف .. واننى أدعو الناس لأن يستفيدوا من خدماتى ..

ولا شعوريًّا أصبح خطى رديئًا جدًا .. سريعًا ملتويًا منكسرًا ومن الصعب قراءته.. وأحيانًا لا أعرف كيف أقرأ خطى ! .

ولم أفهم ما الـذى كان يقصده مدرس اللغة العربية الشيخ الدخميس وكان معمماً طويلاً عريضاً وبكرش عندما قال لى : العظمة لله ياصاحب الجلالة .. انت فاكر نفسك إيه.. اقعد .. اترزع ! .

وتضاحك زملائى فى الفصل ..

فقد لاحظ المدرس أن قلمى تدحرج من تحت المكتب إلى بعيد .. وسأل : قلم من هذا فقلت : إنه قلمنا .

- قلمنا ؟ ماذا تقصد ؟

فقلت : قلمنا .

- لا أفهم .. هل هو قلمك ؟

- نعم .

- ولماذا لا تقول · قلمى .. سبحان الله .. ما هذه العظمة .. فاكر نفسك ملكاً .. قلمنا؟! وهذه كراستنا !.

ونظر إلى الطلبة فقالوا له : إنه عادة يقول ذلك ..

ثم التفت ناحيتى وقال . قل قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

ووقفت أقول وراءه : قلمى .. كراستى .. جزمتى .. بدلتى ..

ـ ابن من أنت ؟

ـ ابن عم محمد منصور ؟

ـ نعم ؟.

ـ ولماذا تقول ابن عم محمد منصور ؟

ـ الناس هكذا ينادون والدى ..

ـ انت أمرك غريب .. أمرك غريب ياابنى !.

والتلامذة يضحكون ..

ثم التفت وقال لى . قل لوالدك إننى أريد أن أراه .. غداً .

قلت · غداً ؟ إنه ليس هنا .

ـ إذن بعد غد .

ـ ولا بعد غد ..

ـ مات ؟

وبكيت ولم أرد .. وضحك التلامذة . ولا أعرف كيف انتهت الحصة .. ولكن وجدت نفسى وحدى .. وقد خرج التلامذة من الفصل ومن المدرسة ..

وجاء الساعى ينظف الفصل فوجدنى نائماً ، وأيقظنى وهو يقول : ياابنى انت لا تنام فى بيتكم .. مالك ؟ مريض ؟

وكان التلامذة قد انصرفوا من حوالى الساعة ..

ولم تلاحظ أمى اننى تأخرت .. ووجدت والدى فى البيت . ولم أكد أراه حتى عدت إلى البكاء . وظن والدى أن بكائى من شدة التأثر عندما رأيته .. وكان قد غاب فترة أطول .. واحتضنى وهو يقول · انت رجل .. والرجال لا يبكون .. ولا يخافون .. لا يخافون انت رأيتنى كيف أقتل الذئب وأمسك الثعبان .. وأمشى فى الظلام وحدى .. وأنت رجل ! لقد أتيت لك بعدد كبير من الكتب .. وكلها سوف تقرؤها لأنها سهلة وجميلة .. أنا قرأتها كلها.. أتيت لك بكتاب (أدب الدنيا والدين) و (مقامات الحريرى) .. وديوان (البهاء زهير) وبعض أجزاء من (الأغانى) وبعض كتب الجاحظ وروايات الجيب وقصص

بوليسية التى تقول إنـك تحبها .. وعدد من أقلام الرصـاص والكراريـس لكى تكتب فيها مذكـراتك . وبمناسبة المذكـرات التى تكتبها .. أنـا قرأت بعضـها .. حاول أن تكتـب عن الناس .. عن غيرك .. لا تكتب طول الوقت عن نفسك .. وعن الذى تحس به أنت مع نفسك .. ولكن مـع غيرك من الناس .. وإذا كتبـت عن النـاس لا تكتب وأنت زعـلان منهم .. أو خائف منهم .. أكتب عن الصداقة وعن الحب الذى تكنه لهم ..

ثم سكت لحظة وقال لى : قل لى من الذى تحبه أكثر من أصدقائك ؟

وسكت . ثم عاد يسألنى . أى واحد منهم تفضله على الآخرين ..

وسكت ولم أجد ما أقوله . فلم أفكر لحظة واحدة أن لى صديقاً أو أن واحداً منهم أحبه أكثر من الآخرين ..

فقلت له : أختى ..

وضحك والدى . ثم عاد يسألنى . طبعاً لابد أن تحب أختك .. وأن تحب إخوتك أيضاً.. ولكن أسألك عن الصديق .. أنت لك أصدقاء كثيرون تخرج معهم وتتكلمون وتزورهم فى بيوتهم ويزورونك .. لابد أن واحداً منهم أقـرب إلى قلبك ,.. واحد تحب أن تراه كل يوم .. وإذا غاب عنك ذهبت إليه . وإذا مرض سألت عنه .. هل انت تحبهم جميعاً ؟

وسكت . ولم أقل شيئاً ..

وضحك والدى : فهمت انت تحبهـم جميعاً . لا تستطيع أن تفرق بين هذا وذاك .. الله يبارك فيك يـاولدى .. فاعظم شىء فى الـدنيا أن يكون للإنسان أصـدقاء كثيرون .. هذا تزوره وهذا يزورك . وهذا تستريح إلى الجلوس معه .. وهذا تقرأ معه .. إن الأصدقاء أهم من الأشقاء .. وسوف تعرف عندما تكبر ياولدى ؟

ولكن الحقيقة غير ذلك . فأنا لا أعرف لى صديقاً . إننى أشعر بالخوف من الأصدقاء ، فلا أكاد أرتبط بواحد .. حتى انفصل عنه بالسفر إلى بلد آخر .. فكأننى دون شعور منى، لا أحرص على أن ارتبط بأحد ، حتى لا أتضايق عندمـا أبعد عنه .. ولذلك فكل الأصدقاء زملاء .. وأسماؤهم وصفاتهم كلها لا تعلق فى رأسـى .. ولا أحب .. وإذا أحببت فاننى لا أستطيع .. وإذا مرض أحـد فإننى لا أذهب إليـه إلا إذا طلبت أمى ذلك .. ولـو جاء واحد

منهم لـزيارتى فإننـى أندهش لذلـك .. ولا أفهم لماذا يحرص الناس على هذه العـلاقة .. ولماذا يتصور الواحد منهم اننى سوف أغضب إذا لم يأت . أو سوف أفرح إذا جاء ..

ولا أعرف الفرق بين الأخ الشقيـق والأخ غير الشقيق وبين الصديق والـزميل والـجار والقريب .. وأبناء البيت الواحد والشارع الواحد والمدينة الواحدة . ما هذه المعانى ؟

وقد كان أقاربى يضحكون عندما كانـت أمى تحكى لهم اننى فى يوم من الأيام عندما كنت صغيراً سألتها . لماذا لا أتزوج أختى ؟

ولم أفهم معنى ذلك .. وإنما كـانوا يضحكون وأنا أندهش لذلك .. وليـس عندهم ما يقولونـه . ولكن والدى هو الذى تـلا من القرآن آيات تحرم زواج الأخـت والخالة والعمة ويحرم زواجى من بنت أخى ومن بنت أختى ومـن أمى طبعاً . وهذا هو الذى حرمه الله . انتهى الموضـوع . وأغلق البـاب تمامًا وتحول حبى لأختـى إلى معنى مختلـف .. كيمياء وتفاعلات غـريبة وعميقة وفوريـة فى أعماقى وضعت أختى فى مكـانها الطبيعى المعقول دون أن أدرى كيف حدث ذلك ..

أعجب شىء حدث هزنى وبهرنى وأذهلنى فى ذلك الوقت عندما مرض والدى . لم أره مريضاً . ولكن وجدته ممدًا فى السرير . شاحب الوجه ، يتصبب عرقاً . وكان والدى يؤكد لى كلما رآنى . إنه مـن الطبيعى أن يمرض الإنسـان .. وأن النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـ مرض . ومات وهو مريض . وكما لابد أن يمرض الإنسان لابد أن يموت أيضا .. ولما رأى أبى الفزع على وجهى قال . إن هذا المرض لن يجعلنى أموت .. إنها وعكة سوف تذهب إن شاء الله !

وقررت ألا أذهب إلى المدرسة . ولكى يثبت لى إنـه فى صحة جيدة .. نهض من الفراش وأعـد لنا الشـاى .. وعلـق صوراً على الحائط .. ونقـل المائدة مـن مكانها . والمائدة مـن الخشب الغليظ .. كل ذلك ليؤكد انه قوى وانه لا خوف عليه ..

وعندما فتحـت الباب وجدت مدام بركات تحمـل باقة من الورد .. ومـن ورائها ابنها يحمل علبـة بها حلويـات ومن ورائهما الخادمـة تحمل طعـامًا .. عـرفت فيما بعـد انها دجاجة مسلوقة وأرز وسبانخ وبرتقالاً . كل ذلك لوالدى لأنه مريض .

ونهض والدى لتحيتها وشكرها وكذلك والدتى . وحاول إقناعها بأن تتفضل بالجلوس معنا . ولكنها اعتذرت . وطلبت منى أن أجىء إلى الغذاء عندها وأن ابنها سامى فى انتظارى . وحذرتنى أن أنسى ..

وبدأ الحزن الشديد على وجهى فسألت أمى . كم ثمن كل ذلك ؟

قالت . مجاناً ..

قلت . مجانًا .. يعنى لن تدفعى ثمناً لذلك .

ـ لن ندفع .

ـ ولكن لماذا ياماما ؟

ـ لأن بابا مريض .. وهذه عادة عند الخواجات .

ـ يعنى إذا مرضت هى فسوف نشترى لها ورداً وفراخاً وحلويات .

ـ نعم .

ـ يارب لا يجعلها تمرض أبداً !.

وضحك والدى ووالدتى ..

وكلما جاء ضيف حكوا له هذه النكتة ! .

وفى المدرسة حكيت ما حدث فى بيتنا . وفوجئت بأن هذا الذى حدث لنا ، يحدث عند اناس كثيرين .. وأن هذا ليس غريباً ولا شيئاً كبيراً . وأحد الطلبة قال لى إنه عندما مرض اشترت له والدته جزمة جديدة .. ومرة بنطلوناً ومرة أعطوه فلوساً ليضعها فى (الحصالة).. ومرة اشتروا له ساعة .. وزجاجة كولونيا ..

وفى ذلك اليوم دق الباب وجاءت سيدة تبكى ، لم أرها قبل ذلك . وطلبت أن ترى والدى فوراً . وتعالى صوتها وبكاؤها أيضاً . ووجدت والدى قد قفز من السرير ليلتقى بها ..

قالت السيدة : هل يرضيك ؟ هل هذا يرضى ربنا ؟

ثم حكت كيف كان جارها قد قطع الشجرة الموجودة أمام بيتها .. وقالت كلاماً كثيراً لم أفهمه .. ولكن معناه انها أرملة . وأنها وحدها . وأن أطفالها صغار .. وأن الناس كان

من الواجب أن يقفوا معها .. وأن يعوضوها عن زوجها الذى كان محبوباً من الجميع وصاحب فضل عليهم كلهم .. ولكنهم استضعفوها . وقطعوا شجرتها .. وأن أولادها الصغار الذين كانوا يلعبون تحت الشجرة وينامون فى ظلها يبكون .

ووجدت والدى متأثراً جداً . ودخل وارتدى البدلة . وخرج مع هذه السيدة . ووجدتنى وراءه لكى أرى هذه الشجرة التى يملكها الأطفال وأمهم .. وذهب والدى إلى الرجل الذى قطع الشجرة . وما كان من الرجل إلا أن اعترف له بأن أولادها قد صعدوا الشجرة التى أمام بيته .. وتعلقوا من أحد أغصانها . . وسقط بهم الغصن وانكسر . وأنه قد نهاهم عن ذلك كثيراً . ولكن أم هؤلاء الأطفال لم تحذرهم .. فانتقم هو بقطع شجرتها.. وكانت الشجرة صغيرة . ولكنها استحالت إلى جثة على الأرض . وأطفالها الصغار يبكون .. فعلاً وجدتهم يبكون ..

وتذكرت اننى شاركت عمال الرى والترع فى إزالة عدد من الأشجار أمام البيت الذى كنا نعيش فيه .. دون أن أشعر لحظة واحدة أن هناك أية علاقة بينى وبين هذه الأشجار.. ولا قلت إنها أشجارنا .. أو أشجار أمام بيتنا .. أو فى طريقنا فى شارعنا . لقد رأوا إزالتها .. ورأيت أن أشغل وقتى مثل كل الأطفال ، فاشتركنا فى إزالتها .

وتذكرت أيضاً إننا كنا فى زيارة لبيت جدى ، ان دخل كلب كبير .. واتجه مباشرة إلى حلل كبيرة قد وضعوا فيها اللحم .. ودخل ثان وثالث .. وكل واحد حمل جانباً كبيراً من اللحم . ونبهتنى والدتى إلى ذلك . ولكنى لم أتحرك . وقالت : انت إيه .. ألا ترى الكلاب تأكل اللحم .. إنه اللحم الذى أعدته جدتك ليوم العيد ..

ووجدت كل الذى تقوله والدتى بلا معنى جدتى .. لحم جدتى .. العيد . منع الكلاب من أخذ اللحم .

وغضبت والدتى .. وكان غضب جدتى أعنف .. فقد انهالت علىّ ضرباً .. ولم أسألها لماذا فعلت ذلك .. وإنما وقفت كأننى أتفرج على واحد غيرى .. وكنت أنظر إلى وجه جدتى وأقارن بين وجهها وبعض الحيوانات .. ولا أعرف من أين أتيت بهذه العادة أو كيف اكتسبتها..

وقد أعطانى والدى درساً طويلاً وكانت لهجته تتراوح بين اللين والشدة . وذلك عندما طلب منى أن أشترى بعض الفاكهة من السوق . فاعترضنى شحاذ . وطلب منى شيئاً من الذى أحمله ، فأعطيته كل ما معى . وعدت إلى البيت لأقول : قابلنى رجل غلبان . فأعطيته الفاكهة !.

ـ كل الفاكهة ؟

ـ نعم ..

وقال لى والدى . نفرض أن هذه الفاكهة لم تكن لنا .. كانت لاناس آخرين . فما الذى تفعله أو تقوله لهم .. فى هذه الحالة لابد أن ندفع لهم ثمن الفاكهة .. ومن الممكن ألا يصدقوك .. ويتهموك بأنك أخذت الفلوس .. وبدلاً من أن تكون الولد الطيب الأمين ، تصبح الولد الكذاب النصاب .. ولنفرض أن شحاذاً عريانا طلب إليك جلبابك فهل تخلعه وتعطيه له .. هل لو طلب حذاءك .. هل لو طلب كتبك .. هل لو طلب منك أن تسرق له . فهل تفعل .. ثم إن هناك بعض الشحاذين الأغنياء . وكثير منهم نصاب كذاب .. ألم تسمع عن الشحاذة العجوز التى وجدوا عندها بلاصاً قد امتلأ بالفلوس.. ومع ذلك لم تكف عن التسول .. لأن التسول عادة وجمع الفلوس عادة .. ولكن إنفاق الفلوس ليس عادة .. هل لو قال لك شحاذ إنه يريد أن يضربك على قفاك .. هل لو قال لك ذلك وهو يبكى .. أو كذب عليك وقال إنه رأى فى المنام انه يضربك .. وأن الذى أوصاه بذلك أحد الأولياء أو الملائكة .. وأن فى ذلك شفاء ليده وشفاء لعنقك هل تقبل؟ ألا ترى أن هذا الشحاذ قد خدعك .. قد رآك ساذجاً .. إن هذه إهانة لك .. ولعقلك ولكل الكتب إلى قرأت والشعر الذى حفظت ..

وجاءت أمى تسأله : ماذا فعلت ؟ هل ضربته : هل أدبته ؟

وأجاب والدى · هذه آخر مرة .. إنه بحسن نية قد فعل ذلك . انت تعرفين إنه طيب ورقيق ويتأثر بحال الناس المساكين والفقراء والمرضى ..

ـ لا أفهم .. هل علمته ألا يفعل ذلك مرة أخرى .. إنه يستاهل الضرب .. ولكنك تفسده بالكلام والحكايات التى ترددها على أذنه .. حتى صار لا يرى وإنما يسمع فقط .. ولذلك

يضحكون عليه .. إذا أتى واحد قال له كلامًا حلـوًا .. لن أترك لك مهمة تعليمه أبدًا .. وأنا أعرف كيف أجعله يضع عقله فى رأسه ! .

وكـانت أمـى تـرى أن عقلى ليس فى رأسـى .. وأن الكثير ممـا أفعلـه يدل على اننـى سرحان.. أو اننى لا أبـالى .. ولذلك فهى تنبهنـى بشدة ، وتحذرنى بالحاح شـديد .. فكل شيء تقوله فإنها تكرره كثيراً ظناً منها اننى نائم على روحى أو لايهمنى ما تقوله أمى ..

مثلاً تقول لى : خذ بالك من الذى أقـول لك .. افتح أذنيك .. أنت الآن تذهب إلى الست أم عزيز .. أم ايه .. أم عزيز وتقول لها : إن ماما فى إنتظار ضيوف .. وإذا سـألتك من هم الضيوف قل لها إنهم جماعة أقارب وأن هؤلاء الأقارب سوف يبيتون عندنا .. وإنها لولا الضيوف لجاءت لزيارتها ..

ـ هل أقول لها أن تجيء هى لزيارتنا ..

ـ لا .. ياأخـى لا .. أنا مشغولة والبيـت مليء بالضيوف .. فإذا جـاءت هى وأولادها فليس لهم مكـان .. تقول لها إيه .. إن غـداً إن شاء الله بعد أن ينصرف الضيـوف سوف أزورها ..

ـ متى ينصرف الضيوف ؟

ـ إنت مالك .. انت تقول لها هكذا والسـلام .. لا تقول كم عدد الضيوف ولا من هم .. ولا متى ينصرفـون .. وإياك تقول لها : لا داعى لأن تجيئـوا فليس فى بيتنا مكـان .. خد بالك .. سامعنى .. يعنى اننى مشغولة لأن عندنا ضيوفاً وأن الضيوف سوف يبيتون .. ونحن لا نعرف متى تنتهى الزيارة .. فاهم ..

ـ نعم ..

ـ قل لى ماذا ستفعل ..

ـ ياماما أنا فهمت .

ـ خلاص .. قل لى قبل أن تخرج ..

ـ سوف أقول لها . ماما كان فى نيتها أن تـزورك لولا ضيوف من أقاربنا جاءوا فجأة وسوف يبيتون فى البيت ..

ـ ياأخى لا .. إنهم سوف يبيتون وغداً يسافرون .. ولكن ماما لا تعرف موعد انتهاء الزيارة .. وبعد ان تنتهى الزيارة سوف أزورهم .. وجعت قلبى !.

ـ حاضر .. فهمت ..

ـ لا تنس الطبق الكبير الذى كانت به الحلوى ..

ـ ياماما انت قلت لى أن أترك الطبق هناك ..

ـ نعم .. تركته أمس ولكن تطلبه اليوم ..

ـ أنا لا أفهم .. المرة الماضية أتيت بالطبق ، فأنت غضبت منى وهذه المرة تستعجلين الطبق..

ـ يا أخى المرة الماضية انت ذهبت بالطبق وطلبت أن يفرغوه من الحلوى ويعطوه لك فوراً .. هذا عيب .. يجب أن تتركه عندهم يوماً أو يومين .. وبعد ذلك تطلبه .. ولا تطلبه فى نفس اليوم .. أو فى نفس اللحظة ..

ومن ضمن الألغاز فى ذلك الوقت اننا عندما نلعب أمام البيت .. أجد الأطفال يتشاجرون . أما السبب الذى لا أفهمه فهو أن كل واحد يقول · أنا ألعب أمام بيتنا .. وأنت مالك ..

وأنظر فأجد أن حارة ضيقة تفصل بين البيتين .. فكل واحد يرى أن (أمام) بيته هو شبر .. وشبر آخر أمام البيت المواجه له .. وأن هذه هى الحدود .. حدود حرية كل طفل .. فإذا تعداها طفل آخر فهو عدوان على بيته وعلى المساحة التى يتحرك فيها .. ولم أفهم .. وعندما يتشاجر الأطفال ويردد الآباء أن الطفل كان يلعب (أمام) بيته .. لم يكن أحد يحدد المساحة التى يحق له أن يلعب فيها وألا يضايقه أحد .. وانظر إلى الأرض التى لا تزيد عن مترين .. واندهش كيف يحدد الأطفال هذه المساحة فيقول واحد · هذا بيتى .. وهذا أمام بيتى .. وهذا بيتك وهذا أمام بيتك ..

وكان الأطفال لا يستخدمون كلمة أمام البيت إلا عندما يتشاجرون فقط .. أما إذا كانوا على وفاق فإن الحدود تختلط وتدخل الكرة من هذا الباب ومن الباب المقابل له .. ولا أحد يشكو .. ولا أحد يقول : هذا بيتى .. هذا بيتك .. هذا أمام بيتك وهذا أمام بيتى..

وكنت أتعجب للأطفال الصغار الذين اتفقوا على معانى هذه الكلمات · بيتى .. بيتك .. أمام وخلف بيتى ووراء بيتك .. كيف تعلموها . وكيف لم أتعلمها .. أو كيف لم أسمعها من أحد .. أو لم أقرأها فى أى كتاب - وإن كنت قد سمعت من والدى وهو يحكى عن الخناقات الدامية بين الفلاحين على الماء وعلى الرى .. وعلى أن أحد الفلاحين سرق جاموسة فلان وأن فلاناً سرق الخضروات من أرض فلان .. وعلى الرغم من أن المسروقات كانت تافهة ، فإن الدماء قد سالت .. وإن أحداً قتل ابن أحد .. أو أحرق قمح أحد .. أو وضع السم لجاموسة أحد .. والسبب هو أن أحداً اعتدى على (ملك) أحد .. على أرضه .. على خضرواته .. على نصيبه من الماء .. على كوم السماد الذى وضعه فى أرضه .. فالاعتداء فى حد ذاته هو المرفوض .. وليس الشىء الذى اعتدى عليه .. يعنى ليست الخضروات التى لا تساوى قرشاً ، ولكن حادث الاعتداء .. الذى هو إهانة واستخفاف واستضعاف .. هو الذى يجب ألا يقع .. وإذا وقع فسرقة بطيخة تساوى سرقة ألف بطيخة .. وسرقة دجاجة يساوى جاموسة .. ووضع قدم فلاح فى أرض فلاح آخر دون إذن ، مثل وضع يده على صدر زوجة فلاح آخر ..

يعنى إيه ؟

لم أفهم بوضوح كل ذلك ؟

كان مدرس اللغة العربية رجلاً مخيفاً . فهو طويل عريض وله كرش . وصوته قوى غليظ مرتفع . وإذا اقترب منه التلميذ فإنه يمسكه من رقبته وأحياناً يهزه من كتفيه .. فإذا خاف التلميذ وحاول أن ينظر إلى الأرض بعيداً عن نظراته النافذة كان يقول له : إرفع رأسك . انظر لى .. لكى أرى إن كنت كاذباً .. انظر لى ..

وكان الخوف يتولانا جميعاً .. ولا نريد أن نراه .. وإذا تغيب عن الحصة لأى سبب ، فتلك سعادة لا نستطيع أن نخفيها .. وكان الساعى إذا جاء وقال إن الشيخ الدخميس لن يأتى اليوم كنا نصرخ من الفرحة ونقول : هيه .. إن شاء الله دائماً !.

وكنا نخشى أن يبلغه ذلك .. ويوم قال لنا أحد التلامذة إن الشيخ يعرف مدى كراهيتنا له كان يوماً أسود .. فلم يستطع أحد أن ينظر إليه .. وبعضنا ادعى المرض ولم

يحضر .. وبعضنا ادعى الإسهال والإغماء فى الفصل لكى يخرج ..

وفى يوم قال لنا : أنا لا أفهم لماذا أنتم خائفون .. ما دام الواحد قد ذاكر فما الخوف .. وهل أنا أبتلع الأطفال .. إن عندى أولاداً مثلكم وأحبهم .. وأنا أريدكم أن تكونوا رجالاً .. أريدكم أن تكونوا ماذا .. رد .. قلت لك رد ..

ويشير إلى أحد التلامذة ..

فيقف ويقول : أن نكون رجالاً .

ويشير إلى واحد آخر ويقول له : وأنت ياولد ! .

فيقف وهو يرتجف : أن نكون رجالاً !.

ثم ينظر إلى واحد فى آخر الفصل وهو نحيف مريض ويقول له · أريدكم أن تكونوا ماذا؟

فيقول : رجالاً .

ـ هل أنت رجل ؟

ـ لا .. أنا طفل !.

ـ لا .. أنت رجل .. جامد .. قوى .. خشن .. ابن أبيك وليس ابن أمك .. ابن من ؟

ـ ابن أبى .

ـ وأنت ؟

ويشير إلى أطول تلميذ فى الفصل وهو أقوى تلميذ أيضاً .. ونحن نخاف منه .. فيقف وبصوت غليظ يقول . أن أكون رجلاً .

ويسأله · وأنت الآن رجل ؟

ـ طبعاً .

ويصفعه على خده بمنتهى القوة .. وينتظر حتى يبكى . ويضحك ويقول له : رجل؟ انت رجل ؟ وهل الرجل يبكى .. إنت عيل . انت ماذا ؟

لا يرد . ويعود يسأله . انت ماذا .. عيل أو رجل ؟

ـ رجل .

ـ إذن امسح دموعك . الرجل لا يبكى !.

ـ حاضر .

وإذا نظرت إلى الفصل فكل الوجوه فى الأرض . والعيون تنظر إليه من تحت لتحت ونتمنى جميعاً أن يدق الجرس لكى يغور هذا الرجل فى ستين ألف داهية تأخذه ولا تعيده الينا !.

وكنا نلعب فى حوش المدرسة عندما جاء الساعى يقول : الشيخ الدخميس يريدك فوراً!.

وأكذب لو قلت إننى فهمت أو استوعبت أو فكرت فى أى شىء .. وإنما أصابنى نوع من القشعريرة جعلت كل أفكارى تتبخر وجعل ثوباً من الخوف يعتصرنى بشدة ودرجات الحرارة ترتفع فى دماغى .. وتنخفض فى كل جسمى .. وتصببت عرقاً . ولا أعرف ما الذى قاله زملائى ولا ادعى اننى سمعت بوضوح كل ما يقولون ولا حتى بعضه .. وسبقنى الساعى إلى غرفة المدرسين .. ولكنه بادرنى بقوله : لا شىء ياولدى .. أنا فقط أردت أن أعرفك .. أنا قرأت موضوع الإنشاء الذى كتبته .. هل انت الذى كتبت ذلك .. أو إن أحداً ساعدك ..

فقلت : أنا ..

ولا أعرف من الذى قال : أنا .. هل أنا .. أو أصوات فى داخلى .. أو جاءت « أنا » من واحد غيرى ..

وقال لى : وأنت تحفظ كل هذا الشعر ..

قلت : وأكثر .. وأحفظ القرآن الكريم ووالدى يقول الشعر ..

قال . سمعت عن والدك .. إنه رجل طيب . كلهم يقولون ذلك . وأنا أحب أن التقى به .. قل له ذلك ..

ونادانى أن اقترب وقال لى : مد يديك...

ولم أفهم . ومددت يدى .. فأمسكها وخبطها فى المكتب فصرخت وقلت : آه ! .

قال : يد من هذه ؟

قلت : يدى ..

قال . إياك أن تبكى . يد من هذه ؟

قلت : يدى ..

قال . من أجل هذا أتيت بك إلى هنا وأريد أن أراك . هذه يدك .. وهذه ذراعك .. وعينك .. وهذا ينطلونك .. وحذاؤك وكراريسك .. وهذا أبوك .. وكما أن يدك توجعك إذا أحد خبطها فى الحائط فكذلك رأسك .. وكذلك من يشتم والدك .. لأنه يشتم والدك أنت .. يشتم شخصاً انت تحبه وتعتز به .. فالذى يشتمك كالذى يحرق ملابسك .. يكسر ذراعك .. يعتدى على شىء تمتلكه .. ولأنك تمتلكه يجب أن تحرص عليه .. فاهم ياابنى .. قل لى : يد من التى خبطتها فى الحائط .

ـ يدى .

ـ نعم . يدك .. وعندما أوجعتك فقد أوجعت من ؟

ـ أوجعتنى .

ـ قل أوجعتنى أنا !.

ـ أوجعتنى أنا ..

ـ ولم توجع أخاك ..

ـ أوجعتنى أنا ..

ـ وإذا أمك بلغها اننى ضربتك فسوف تتألم لأنك قطعة منها .. فكأننى ضربت يدها .. وإذا أمك مرضت ألا تحزن ؟

ـ أحزن جداً .

ـ لماذا .. لأن أمك قطعة منك .. أو إنك قطعة منها .. فأنت تحزن على نفسك وتتألم للذى يصيبك .. وأمك هى نفسك وأبوك واخوتك وكل الذين تحبهم .. وكل شىء تملكه.. فهمت ؟

ـ نعم .

ـ فهمت ماذا ؟

ـ فهمت .

ـ هل البيت الذى تسكنه ملك لكم .

ـ لا .

ـ هل هذه المدرسة ملك لكم ؟

ـ لا .

ـ ومع ذلك تقول هذه مدرستى وهذا فصلى .. وكذلك تستطيع أن تقول : بيتنا .. وبيتى .. هل فهمت ؟ ماذا تقول عن النيل ؟

ـ إنه نيلى !.

ـ لا .. انه نيلنا .. إنه النهر الذى نعيش منه جميعاً .. فهو نيل مصر .. وهذه السماء .. سماؤنا .. وهذه الأرض أرضنا .. وهذا الهواء هواؤنا .. فهمت ؟

ـ نعم .

ـ هل فريد صديقك ؟

ـ نعم ..

ـ هل سمعته يقول بيتنا ؟

ـ نعم ..

ـ هل سمعته يقول والدى ؟

ـ نعم .

ـ إن فريد لا يملك هذا البيت .. إنه مثلك يسكن فيه هو وأسرته .. ووالده هذا ليس والده .. إن والده قد مات .. ولكن هذا الرجل قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه .. فكأنه والده تمامًا .. وهو يحبه كأنه والده .. والرجل يحبه كأنه ابنه تماماً ! .

ـ وأنا لى أخت غير شقيقة وأحبها كأنها أختى تمامًا .. بل هى أختى .

ـ كلام عظيم .. لا تخف منى ياولدى .. وإذا سألك زملاؤك قل لهم إننى سألت عنك لكى أعرفك فقد أعجبنى موضوع الإنشاء الذى كتبته .. مع السلامة ياولدى !.

* * *

لقد شعرت بالراحة فى ذلك اليوم .. ولحسن حظى كان يوم خميس .. وشعرت بالاسترخاء الشديد والرغبة فى النوم .. وصحوت من النوم متأخراً على صوت أمى تقول : اصح .. انت مريض .. اصح .. عندنا ضيوف .. ما هذا الذى إلى جوارك ..

ومدت يدها .. وبدت عليها الدهشة وسألتنى : ما هذا يا ولدى ! .

قلت لها : ملعقتى .. وشوكتى .. وسكينى ..

ـ لا أفهم ..

ـ إنها أشياء تخصنى ..

ـ ولماذا تضعها معك فى الفراش .. ومن الذى سوف يأخذها منك .

ـ ياماما .. كل واحد له كوب وطبق ..

ـ نعم . ولكن ما سبب خوفك عليها ؟

ـ لا أحب أن يستخدمها أحد غيرى .

ـ أحد غيرك مثل من ؟ أنا .. أخوك ؟ أبوك ؟

ـ أى أحد !

ـ منذ متى ؟

ـ من اليوم !

ـ ولماذا ؟ ماذا حدث اليوم ؟

ـ الأستاذ قال لى ذلك ..

ـ قال لك ماذا ؟

ـ كل واحد لابد أن تكون له أشياء تخصه ويحرص عليها ..

ـ ليكن . ولماذا تنام وهى فى حضنك ؟

وأحسست بسخافة أفكارى كيف اننى قبل أن أنام أخفيت طبقاً وكوباً ووضعتهما فى فراشى دون تفكير .. ولكن السخرية على وجه أمى قد مسحت كل الأفكار التى دارت فى رأسى .. أو التطبيق الساذج لهذه الأفكار .. ونهضت وأعطيتها الطبق والكوب .. واعتذرت لها .. وقلت لها كاذباً . اننى فعلت ذلك دون أن أدرى وأنه كان فى نيتى أن أضعها فى مكان آخر ولكن غلبنى النوم .

وصدقتنى أمى ..

ولم تقل هذه الحادثة لأى أحد ، مع أن من عادتها أن تقول كثيراً إذا وجدت شيئاً غريباً ، اما على سبيل التظاهر أو على سبيل الشكوى وأخذ المشورة ..

٢٩

كان يومًا غريبـًا .. أو أيامًا عجيبة أو دهرًا طويلاً لا أول له ولا آخـر .. فنحن فى حالة صمت. لا أحد يتكلـم .. أمى تذهب وتـدخل وتخرج ولا كلمة .. وتعد الطعـام فى صمت .. وإذا سألتها هزت رأسها أو أشارت بيدها .. فلم يعد عندها كلام أو رغبة فى ذلك ..

وظننت أن شيئًا ما أصابها فى حلقها أو فى لسانها .. أو هـى أسنانها التى توجعها من حين إلى حين .. وأنظر إلى عينيها فلا أجد دموعًا . ولم تلف شيئًا حول رقبتها . ولا أخذت دواء .. ولا وجهها شاحب .. ولكن الصمت شامل .

وسكت أنا أيضًا ..

وشىء غريب جدًا أن الباب لا يدق .. وتمنيـت أن يدق وأن يجىء أحد ويتكلم فأسمع صوت أمى .. أو يقال لى شىء فأسألها .. أين القطـط التى كانت تقفز من فوق السطوح إلى حيث الدجاج .. ولا قطة . أين الكلاب التى تغافلنى وتدخل البيت بحثًا عن شىء . ولا كلب.

وكانت تجربـة فريدة أن نكون فى حالـة صمت . وكل شىء حولى بـلا صوت . حتى الهواء الذى كان يدفع الشباك وأحيانًا يسقط بسبب ذلك أى شىء ، لم يتحرك . وتعمدت أن أدفع إحدى المناضـد وأوقعها على الأرض . ولم تلتفت أمى . وكانت قبـل ذلك بيوم أو يومين تسأل : ولماذا ؟ وجـرى لك إيه ؟ المذاكرة أرهقـت عينيك حتى لم تعد تـرى .. ضع قطرة ..

وذهبت إلى أبعد من ذلك فى الرغبة فى أن أعرف فأسقطت كوبًا زجاجيًا على البلاط .. لم

ينكسر .. ثم أعدت إسقاطه فانكسر . والتفتت أمى وأشارت بأن أجمع شظايا الزجاج .. وكانت تروح وتجىء وتنظر فى كل اتجاه ثم لا تتكلم . ولم أطق صبرًا . وسألتها . مالك يا ماما ؟

قالت : ولا حاجة .

ـ مريضة ؟

ـ لا .

ـ سلامتك .

ـ الله يسلمك .

ولم تقل فى نهاية كل إجابة : يا ولدى .. ياابنى .. يا حبيبى ! .

ومعنى ذلك انها تريد أن يكون الكلام مختصرًا . وعدت أسألها : وهل يجىء والدى ؟

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ اليوم .

ـ صحيح ؟

ـ نعم .

ـ هل هو مريض ؟

ـ لا .

ـ ولكنه كان هنا بالأمس ..

ـ نعم .

ـ هل يجىء مرتين فى يومين ..

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا مسافرون ! .

أظلمت الدنيا .. ابتعدت الدنيا .. انتهى كل شىء .. لم يعد هناك شىء أمامى أو

خلفى.. ولم يعد لى أنا وجود .. ولا أمى .. ولا البيت .. كأننى سقطت فى بئر مظلمة .. وكان السقوط طويلاً هادئًا .. ولم يعد لشىء صوت أو لون .. أو لم تعد لى إذن أو عين ولسان..

هل جلست على الأرض .. هل أسندت ظهرى للحائط .. هل تزحلقت على الحائط .. على الأرض وتمددت .. ونمت ثم مت بعد ذلك ؟ هل الحائط الذى كنت أسند ظهرى إليه هو الذى خاننى وتساقط ترابًا أو قطعًا من الظلام .. أو ما لا نهاية له من الصمت والبرودة .. هل كان يحدث لى كل ذلك ولكن تماسكت وتساندت .. فهذا الذى فى يدى هو الباب .. أو اكرة الباب .. هل هى يد أمى .. عندما رأتنى أنهار أمسكت بى وأسندتنى إلى صدرها .. هل انفتح الباب الخارجى فجأة ودخل شبح أبيض .. وفى وجه الشبح رأيت عينى والدى.. هل كل الذى أرى ليس إلا وهمًا .. أو اننى مت منذ زمن طويل ، وإننى أزال أتقلب فى قبرى .. إلى جوار جدى .. واننى سعيد بذلك .. أو اننى فى حالة من عدم الشعور بالتعب والراحة .. لا شىء يوجعنى .. لا شىء ثقيل على يدى على ذراعى على رأسى .. لا شىء يضغط على أى شىء .. لا شىء له وجود من اللون او الصوت أو الرائحة ..

وفجأة بدأ النور يدخل من بعيد .. والنور يزداد ويقترب والهواء أيضًا .. وكل شىء له طول المواسير الكبيرة .. فكل ما حولى عبارة عن ماسورة دائرية فى ناحية منها نور .. والظلام يلف الضوء ويقاومه .. واتسعت دائرة النور .. واتسعت فرأيت البيت .. بيتًا من جديد .. ورأيت أمى جالسة إلى جوارى على الأرض .. رأيت وجهها والدموع .. فعلاً فى عينيها .. ولما رأتنى أفتح عينى مدت يدها إلى وجهى ومسحته .. وإلى عنقى .. وإلى شعرى وإلى صدرى وهى تقول : جرى لك إيه يا ابنى ؟ انت كل مرة تموت نفسك بالشكل ده .. سوف تجد اناسًا وسوف يكون لك أصدقاء .. ومدرسة .. لن ينقصك شىء يا ابنى .. وسوف أكون معك وأخوك وأختك .. وكتبك سوف تكون معك .. لا تخف يا ولدى .. لا تخف لن ينقص منا أحد يا ولدى .. إن شاء الله لن ينقص أحد .. قم يا ابنى .. نشفت دمى .. يا ابنى أنا مريضة أنا لم أعد قادرة على تحمل هذه الصدمات .. انت عارف إن أمك ضعيفة ووحيدة فى الدنيا .. وليس لها إلا أنت فإذا كنت أيضًا ضعيفًا فعلى من تستند أمك .. قم يا ابنى .. قم يا حبيبى ساعدنى .. لم يعد لدينا وقت طويل .. ساعدنى ياحبيبى !.

ولما سمعت أمــى تقول إنها مريضـة ضعيفــة .. وكنت قد نسيت كـل ذلك .. وإنها لا تستطيع أن تجمع حاجاتنا وحدها نهضت بسرعة . فأنا أعرف بالضبط ما الذى يجب أن أعمله . وكنت قد نسيت اننى فعلت ذلك من قبل عدة مرات ..

أعرف ما الذى يجب أن أعمله .. انقل الأطبــاق والشوك والسكاكين والأكواب ثم ألفها فى ورق وأضعها فى صندوق وأحاول أن أجعل هذا الصندوق يتسع لكل أدوات الطعام .. سمعت ذلك من أمى عدة مرات .. وبعد ذلـك يجب أن ألف الكتب بالدوبارة . وأن اجعلها مجموعات صغيرة حتــى يمكن حملها .. وكنت أختار أحب الكتــب وأضعها إلى جوارى .. وأحاول أن أجعل هذه الكتب عشرة أو عشرين على الأكثر .. وبعـد ذلك أضع بقايا الطعام والخضروات والفاكهة فى صندوق ... ثم أغسل الحلل .. وفى نفس الوقت لا أترك شيئًا على الأرض .. فلابد مــن تنظيف البيت .. لابد أن نتركـه نظيفًا كما تسلمناه نظيفًا ـــ أمى هى التى تقول ذلك ـ مع اننا يوم تسلمنــاه لم يكن نظيفًا . فقد كان مليئًا بالصراصير والنمل والفئران الصغيرة والذباب والبعوض أيضًـا . وخصوصًـا فى دورة المياه والسقف ..

وعندمـا نظرت فى الغرف اكتشفـت أن أمى قـد ربطت المراتب والمخـدات والألحفة .. وجميع الملابس .. وأن كل شــىء جاهز تمامًا لأن تجىء سيارة وتنقله ثـم سمعت دقات على الباب ورأيت عددًا من الرجال . واحد سألنى . ماما هنا ؟

ـ انت مين ؟

ـ هى تعرفنى .

ـ هى لا تعرفك . انت مين ؟

ـ يا سيدى إنها تعرفنى . قل لى ادخل .. الله يهديك.

سمعت ماما تقول له : إتفضل يا حاج ! .

ونظر الرجل ناحيتى وهو يقول لى : مش قلت لك .

تضايقت من هذا الرجل .. ووجدت ثلاثــة آخرين قد دخلوا وراءه أيضًـا . وكانت أمى تتوقعهم . ولذلك لاحظت انها قد غيرت ملابسـها .. فكل شىء يتم بسرعة وفى صمت ..

وفتحت لهم أمــى باب غرفــة الدجاج .. فهـم الذيـن سوف يشترون الدجـاج والبط

والأوز والأرانب .. وبسرعة امتدت أيديهم إلى الأقفاص التى احتبست فيها الطيور .. وبسرعة حملوها وبسرعة خرجوا .. وكان لابد أن نقوم معًا بعملية تنظيف لهذا المكان الذى تخرج منه رائحة الدجاج ومخلفاته .. ووجدت مقشة كبيرة ومقشة صغيرة وعدة مقاطف .. وبسرعة امتلأت المقاطف .. وحملتها إلى خارج البيت .. وألقيتها بعيدًا .. ثم طلبت منى أمى أن آتى بتراب جاف .. وأن أنشر هذا التراب فى مكان التراب الذى نقلناه..وكنت اندهش كيف يعيش هذا العدد الهائل من النمل والصراصير .. وكيف أن الفئران قد اتلفت بعض الكتب .. وحطمت بعض الأقلام .. وكيف أن إحدى القطط قد قفزت من أعلى الشجرة وخرجت بسرعة وفى فمها ثعبان صغير .

ولأول مرة تشير أمى إلى آثار الثعالب والذئاب التى كانت تتسلق الجدران وتهبط وفى مخالبها صغار الدجاج والبط .. وكانت آثارها غائرة على الجدران ..

وسألتنى : هل تخاف لو رأيت ثعبانًا ؟

قلت : لقد رأيت أبى يقتله بيده ..

قالت : انظر إلى الركن البعيد إنه ثعبان قد ابتلع فأرًا .. وهذا الانتفاخ فى بطنه هو الفأر الذى ابتلعه .. إن الثعبان لا يخيف إذا ابتلع فأرًا .. إنه يكون نائمًا . ولذلك من السهل قتله..

قلت : لا تقتليه .

قالت : لن أفعل .. إننا مسافرون ..

ولا أكاد أسمع كلمة « مسافرون » هذه حتى يهتز جسمى كله .. وتلاحظ أمى ذلك فتقول لى بسرعة : شد حيلك لا تدعنى وحدى .. أريدك أن تكون قد فرغت من كل شىء قبل مجىء والدك ..

ـ متى يحضر ؟

ـ بعد ساعة .. ساعتين .. إن شاء الله لابد أن يحضر ..

ـ إلى أين يا ماما ؟

ـ بلد أحسن من هذه البلد .

ـ أين ؟

ـ مصر .

ـ ولن نعود هنا أبدًا ؟

ـ لن نعود ..

ـ أبدًا ؟

ـ أبدًا ..

ـ ولماذا ؟

ـ الظروف يا ابنى ..

ـ ولماذا لا يسافر الناس مثلنا ؟

ـ كل واحد له ظروف ..

ـ ولماذا ظروفنا نحن فقط هى التى تجعلنا نسافر من حين إلى حين ..

ـ هناك اناس كثيرون مثلنا يا ابنى .

ـ مثل من ؟

ـ اناس كثيرون انت لا تعرفهم .

ـ بل أعرفهم .

ـ انت لا تعرفهم ! .

ـ أعرفهم وأحبهم أيضًا . وأنا كأنى واحد منهم !

ـ من هم ؟

ـ الغجر ! .

ـ عيب لا تقل ذلك وإلا غضب منك أبوك .. هل أبوك مثل الغجر .. هؤلاء اللصوص .. إن والدك رجل محترم .. والناس كلهم يحترمونه .. ويحبونه .. وأنت تحبه .. ونحن لا نعيش فى خيمة .. وأنا لا أضرب الودع وأسرق الدجاج .. ولا أبوك قاعد أمام الخيمة يربى الكتاكيت .. عيب اياك أن تقول الحكاية دى مرة أخرى .. أوع .. إذا والدك سمعها فلن ينساها أبدًا . إياك ! .

ولم يدق أحد بابنا .. كأن الناس جميعًا قد عرفوا اننا مسافرون أو اننا سافرنا .. فلم يأت أحد .. لا بائع اللبن .. ولا جارة واحدة جاءت تسأل أو تطلب شيئًا أو تأتى بشىء .. كل الناس يعرفون أننا مسافرون إلا أنا .. لابد أن أمى لم تشأ أن تقول لى ذلك حتى لا أصاب بالدوخة أو الانهيار الذى يصيبنى فى كل مرة .. ولا والدى قال لى .. وكان من المفروض أن يجىء بعض إخوتى اليوم صباحًا . ولكن أحدً لم يظهر .. وأهم من ذلك اننى اتفقت مع أختى على أن نذهب معًا إلى السوق وسألت أمى : أختى لن تحضر اليوم ؟

قالت . لن تحضر .

ـ وهل عرفت عنواننا فى مصر .

ـ ليس بعد ..

ـ وأين نسكن فى مصر ؟

ضحكت أمى وهى تقول : وهل أنا أعرف مصر .. فى مصر والسلام ! .

وتمنيت لو اننى وجدت شيئًا يجعلها تضحك .. فوجهها يضىء .. كل وجهها .. فهى تضحك من كل قلبها .. ولأن ضحكتها نادرة فهى جميلة جذابة ..

وعدت أقول لها : هل نسكن فى الدور العاشر ؟

ـ العاشر ؟! .

وضحكت وضحكت وعادت تقول · ولماذا العاشر .. والأول عيبه ايه ؟

ـ يا ماما زهقت من الدور الأرضى .. لم أصعد سلمًا فى حياتى . لم أنظر من بلكونة .. لم أر الناس من فوق . كلهم ينظرون لى من فوق .. فى الدور الأرضى يشاركنا الكلاب والقطط .. وتدخل الكرة من الشارع والناس يخبطون علينا الباب ذهابًا وإيابًا .. ونحن لا نرى الناس قبل مجيئهم .. ولكن عندما نكون فوق فنحن نرى الناس من فوق ونعرفهم . ونكلمهم .. ويمكن السلالم تجعلهم لا يجيئون ولا يوجعون دماغك .. ومن البلكونة يمكنك أن تشترى الخضروات بدلاً من أن تذهبى إلى السوق ..

وضحكت وهى تقول . ولو كنا فى الدور العاشر فكيف أشترى الخضار ؟

ـ أنا الذى أذهب إلى السوق .

ـ ألم تكن تريد كلبًا صغيرًا .

ـ بل أريده فورًا .

ـ لو سكنا فى العاشر فإن الكلب سوف يقع من البلكونة ويموت ! .

ـ لا داعى للكلب ! .

وضحكت أمى كثيرًا حتى جاءت الدموع فى عينيها ..

يا حبيبتى يا أمــى .. لو كنت أعرف كيف أجعلك تضحكين . ولكنى لســت مثل عزيز الذى يــزغزغ أمــه حتى تضحك .. وتصرخ وتطلــب من إخوتــه أن ينقذوهــا لأنها سوف تموت من الضحك .. وتجىء أخواته يضربنه .. لو كنت أعرف ذلك .. مع الأسف لن أرى عزيز من اليوم .. لا عزيز ولا أخواتــه البنات .. ولا سامى .. ولا فاتيما .. ولا نبيلة ـ نبيلة هذه تلميذة فى المدرســة الثانوية رأيتهــا مرة واحدة وفى هذه المرة وجــدت فى عينيها ما لا نهايــة له مــن الكلام .. لقــد ضبطتها تتــابعنى .. فتلخبطــت فى السير .. ولما رأيتها مــرة أخرى.. كــانت تــريدنــى أن أقترب أكثر وأن أتحدث إليهــا .. ولكنى لم أفعــل .. ولن أرى فيكى.. فيكتوريــا كانت تلميذة ولكــن فضلت أن تبقى فى البيت .. لأنها ســوف تتزوج .. وهى قريبة عزيز من بعيد . وهى فى غايــة الحيوية . دائمة الابتسام . وفى كل مرة ترانى تقول لى : هالو .. انت فين ؟

وأضحك وأقول لها . هالو ..

وأمضى فى طريقى فتنادينى وتقول لى : عاوزة أكلمك .. مستعجل على إيه ؟ .

وأعــود إليها لتســألنــى عن أشيــاء كثيرة لا تخطر لى على بــال . مثــلاً · هل كنــت فى السوق.. هل رأيــت الرجل الذى يبيع الكتــب الفرنسية .. وهل محل الساعــاتى مفتوح .. وهل أعرف إدوارد الذى يجلس فى المحل .. هل رأيته أمس ..

وحكايات عنــدها كثيرة جدًا .. فإن وجــدتنى لا أرد عن الأسئلة تــروى هى القصص والحكايات .. وهــى لطيفة .. فى مثل طولى وأكبر منــى قليلاً .. وهى إذا قعدت لفــت ساقًا حــول ساق .. وإذا تكلمــت فإنها تقترب منــى أكثر وأكثــر .. هذه طــريقتها فى الكــلام .. وإخواتها يــروننا ويبتسمون ولا يقــولون شيئًا . ولاحظت إنها ظــريفة مع كــل الناس .

وكنت قد أعددت لها حوارًا قلته لنفسى عدة مرات .. وكان فى نيتى أن أدعوها إلى المكتبة العامة لتقرأ وتتكلم هناك .. ذهابًا وإيابًا .. ولم أجد الشجاعة .. هى الأخرى لن أراها ..

لم أودع أحدًا ..

ولا أعرف ما الذى يقال . ولماذا ؟

فلست مربوطًا ولا مرتبطًا بأحد .. كأنهم جميعًا عصافير على شجرة .. رأوا شيئًا متحركًا .. فطاروا جميعًا .. ذهبوا .. اختفوا .. ماتوا وماتت الشجرة ..

كأنهم تراب عالق بملابسى .. نفضت الملابس .. تباعدت ذرات التراب . كأنهم مسامير ودبابيس جذبهم مغناطيس وفجأة انعدمت الجاذبية .. تساقطوا متباعدين ..

كأنهم ريش فى جناحى طائر كبير .. هذا الريش لم ينبت فى جناحيه .. وانما ريش ألصقوه بالصمغ .. وظل الطائر يرتفع حتى اقترب من الشمس .. فذاب الصمغ وتطاير الريش وسقط الطائر ..

كأنهم ثمار على شجرة . نضجت الثمار فجأة وفى وقت واحد . فسقطت كلها على الأرض .. وليس بعد النضج التام إلا العفونة .. فسقطت الثمار قبل أن تتعفن .. أو كأنها ثمار قطفتها قبل نضجها سكين خفية .. قطعت رقابها .. فسقطت قتلى ..

كأنهم جميعًا حبات من الأرز أو القمح فى جيب .. والجيب انقطع فجأة وسقطت حبات القمح كلها على الأرض .. فلا نظرت إلى جيبى ولا مددت يدى .. ولا فكرت فى أن أسمع سقوطها ولا رأيت جثتها .. اعتدت على ذلك .. اعتدت على تساقط الأشياء والناس بعيدًا .. اعتدت أن أكون بعيدًا .. وأن يصير القريب بعيدًا .. بل لم يكن القريب قريبًا أبدًا .. ولذلك فلا شعرت بأنه قريب ، ولا ندمت على انه صار بعيدًا .. إننى مثل عسكرى المرور تقترب منه السيارات لكى تبتعد .. وتقترب البعيدة لكى تبتعد مرة أخرى .. وهو يرقب ويرصد ويسجل أرقامها .. اعتدت على ذلك فلا البعد له معنى ولا القرب ولا القرابة ..

* * *

وجاء الليل بسرعة ..

أو اننا دخلنا الليل .. أو تسللنا إليه .. أو كان الليل ثوب أسود فضفاض سقط على الدنيا..

ودق الباب .. وكان والدى .. هل كان أنحف أقصر .. كيف أراه كذلك . كيف أحسست به كذلك .. وبسرعة نظرت إلى يدى .. إنها أصغر .. إلى ذراعى إنه أقصر . إلى وجهى فى المرآة إنه شاحب .. نظرت إلى أمى .. فوجدتها هى الأخرى مختلفة الطول والعرض .. ما الذى جعل كل شىء يبدو أصغر . أبعد .. نظرت إلى السقف وجدته أقرب .. تلمست وجهى .. لست محمومًا .. اقتربت بسرعة من والدتى : هل أنا محموم ؟

ـ لا .

ـ ولكن أشعر بسخونة فى رأسى .. ورعشة فى جسمى .. ورغبة فى القىء ..

ـ قل لوالدك ..

وكان والدى قد سمعنى .. فقال لى : كل مرة تسافر يكون هذا شعورك .. لست مريضًا يا ولدى . ولكنه الخوف والقلق وإحساسك بأنك سوف تبعد عن أحبابك وأصدقائك .

ولم يكن ذلك صحيحًا .. فلا عندى أصدقاء ولا عندى أحباب .. وإنما هم زملاء فى المدرسة أتردد عليهم .. وأتذكرهم وتدفعنى أمى إلى أن ألتقى بهم وأتحدث وأظل على صلة بهم .. وإذا لم تدفعنى أمى إليهم فلن أدق باب أحد .. وأندهش جدًا كيف يدقون بابنا .. وكيف يعتذرون إذا لم يفعلوا ذلك . لماذا ؟ لم أفهم . ولاأمى قالت لى معنى ذلك ولا والدى.. ولا اهتديت إلى ذلك بنفسى ..

ونادتنى أمى بصوت غاضب · تعال .. انت الذى ألقيت بهذه الصورة فى الزبالة ؟

واقتربت وأرتنى صورة لى مع زملائى فى المدرسة .. بمناسبة نهاية العام الدراسى .

فهززت رأسى إنى فعلت ذلك لأننى لا أعرف لماذا أحتفظ بها وأين أضعها . وما معناها ..

واقترب والدى وقال لى : عندما تكبر وتتحدث عن أيام الطفولة والشباب سوف تجد ان لهذه الصورة معنى .. وسوف تحدث بها زملاءك وبعد ذلك أولادك وأحفادك .. انت تحتفظ بصورة فى كتبك .. انها صورتك .. وصورة اخوتك وصورتى بينكم . لماذا ؟

ـ لأنها صورتك ..

ـ ولأنها صورتـك أنت أيضًا . فإذا نظـرت إليها سوف تقول إنـك كنت صغيرًا وكنت مكلبظـًا مكشرًا دائمًا . وانني على عكـس ذلك بـاسـم الثغر .. وسـوف تنظر إلى وجهـك ووجوه إخوتـك وتقارن وتقول .. فالصورة لها حكايـة كل مرة تراها سـوف تجد كلامًا جديدًا .. هذه الصورة هى انت نفسك فى ظروف قـديمة .. وكل ما له علاقة بك انت يجب أن تكون له قيمة عندك .. فأنا لى قيمة عندك ؟

ـ طبعًا ..

ـ وأنت لك قيمة عندى وعند أمك .. وأهم من كل ذلك إن لك قيمة عند نفسك .. يجب أن تهتمم بصحتك .. وبدروسك ونجاحك وتفوقك ومستقبلك .. انت ماذا تريد أن تكون ؟

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى عندما تصبح رجلاً ماذا تريد أن تعمل ؟

ـ لا أعرف .

ـ لم تفكر .. وزملاؤك هل كانوا يحدثونك عن مستقبلهم ..

ـ نعم ؟

ـ ماذا قالوا لك ؟

ـ واحـد سوف يكـون طبيبًا وآخر سـوف يكون مهنـدسًا .. أو محاميـًا أو شيخًا فى الأزهر أو قسيسًا .. وواحد يريد أن يتزوج فورًا ويكون له كثير من الأولاد .. وواحد يريد أن يهاجر وواحد يـريد أن يتزوج واحدة أوروبيـة . وواحد يريد أن يكـون غنيًا فى أسرع وقت .. وواحد يريد أن يكون شاعرًا .

ـ وأنت ماذا تريد ؟

ـ .....

ويعود يقـول لى : أنا أعرف مـاما لا تريدك إن تكـون مثلى .. ولا تريد أن تكـون مثل عمك.. ولا تريدك أن تكون ضابطًا فماذا تريد ؟

ـ لا أعرف .

ـ تريد أن تقرأ وتقرأ ؟

ـ نعم .

ـ وأن تكتب ؟

ـ لا أعرف ..

ـ ولكنك حاولت الكتابة .. قرأت لك بعض مذكراتك .. جميلة . وأنا أعتقد انك سوف تكتب .. أنا متأكد من ذلك .. فأنا أيضًا كنت أحب أن أكتب .. فقط أكتب ..

ـ ولماذا لا تكتب ؟

ـ أحيانًا .

ـ تكتب ماذا ؟

ـ شعرًا .

ـ وتصبح غنيًا ..

ـ هاها .. فهمت الآن .. ماما لا تريدك أن تكون شاعرًا حتى لا تكون رجلا طيبًا مثلى ولست غنيًا ..

ـ هل كل الشعراء فقراء ؟

ـ بل هناك شعراء ملوك وأمراء ووزراء .. إمرؤ القيس أمير .. والبارودى وزير وهناك ملوك وخلفاء كلهم شعراء .

ـ لماذا تقول لى ماما ذلك دائماً ؟

ـ إنها تخاف عليك أن تنشغل عن دروسك .. وعن نجاحك .. انت تعرف ان ماما كان لها أخ يحب الطرب والموسيقى والشعر ومات فى سن صغيرة .. انت تعرف .. أريد أن أقول لك شيئاً بينى وبينك .. هل تعرف بينى وبينك أى لا تقول لأى إنسان .. لا ماما ولا أختك ..

ـ أختى ؟

ـ نعم .. هل تعرف لماذا تحاول ماما إبعادك عن أختك ..

ـ لا .

ـ لأن صوتها جميل جدًا ..

ـ ولكنى لم أسمعها تغنى مطلقاً ..

ـ لأن ماما منعتها من ذلك .. فالناس يقولون إن أختك هذه من الممكن أن تكون مثل أم كلثوم .. وانـاس يقولون بل صـوتها أجمل وصورتها أجمل أيضاً .. ولابد أن مـاما لأنها رأتنى أنا أيضـاً أقول الشعر وأرتل القرآن وصـوتى جميل وأغنى أيضـاً .. فهى تخشى عليك ياولدى .. إن أمك معذورة . ولكنها لا تستطيع أن تقول لك كل ذلك .. حتى لا تخاف من كل الناس .. وحتى لا تكره كل الناس .. هل فهمت ؟

ـ نعـم .. ولكن لم أسمـع أختى تغنى أبـدًا . أنا طلبـت من أختـك أن تجىء معنا إلى مصر . وأن تغنى لنا فى السيارة ..

ـ سيارة ؟

ـ نحـن سوف نسـافر بـالسيارة .. ولكن بسرعـة مامـا إتصلت بها وطلبـت إليها ألا تجىء..

ـ فعلاً .. لم أفهم لماذا عدلت عن السفر معنا .. الآن فهمت .

ـ ماذا قلت لك ؟ إن هذا سر بيننا نحن الرجال ..

نحن الرجال ـــ قالها والدى وهو يعنى كل حرف فى هذه الكلمـة . ثم ضغط على يدى وعلى ذراعى وعلى كتفى ..

وجاء صوت والدتـى من الداخل تقول إنها جاهزة وإنه لم يبـق شـىء فى البيت . لقد حملوا كل شىء إلى سيارة لورى .. ومـن الغريب اننى استرحت فى الاستماع إلى والدى ، فلم أر أحداً من الشيالين .. ولا لاحظت ان صاحبـة البيت تجلس بيننا وفى يدها المفتاح .. وأن سيارة وقفـت بعيداً .. وبسرعة كل شـىء تم .. السيارة تحولت إلى صنـدوق دخلناه وأغلقت علينـا الأبواب . المقـاعد جلديـة .. أمى بينـى وبينها بعض الكتـب .. أما سـاعة الحائط فقد حملتها على ساقى ووالدى فى المقعد الأمامى .. ودار موتور السيارة .. وكأنها قطعة من الظلام تشق الظلام . أو تزحف على الظلام أو تخوض فى الليل .. نظرت ورائى وجدت تراباً يتطاير .. شظايا الظلام .. فتـات الليل .. تراب كأنه ينهال على أيام مضت .. أو كأنـه سـاتـر ترابـى حتى لا أرى ما كـان .. وأمامنـا أضواء تـروح وتجىء .. وبيوت

مضاءة .. وكأننا واقفون وهى التى تجرى .. تهرب .. تتوارى .. تتراجع .. تتلاشى .. مشاعرى لا أعرف كيف أصفها .. هادئ .. إلى جوار أمى وأبى .. لست إلى جوارهما تمامًا.. بينى وبين والدى لوح زجاجى .. دائماً هناك مسافة ..هناك حائل .. عائق .. فاصل .. دائماً والدى هناك بعيداً .. لا أرى إلا جانباً منه .. من وجهه .. من جسمه .. من صوته .. هؤ الآخر ظل .. ظلال .. ضباب .. قطعة من الليل لها شكل قريب جداً من ملامح والدى .. وأنقل عينى إلى والدتى .. ملابسها سوداء .. المنديل على رأسها أسود .. وجهها شديد البياض .. الحزن على وجهها .. الصمت .. الصبر .. الأسى.. اليأس .. الخوف الذى استقر واستكن . ومن حين إلى حين ترمقنى أمى بنظرة .. وإلى الساعة الكبيرة التى حملتها على ساقى .. الساعة كالسيارة كل شىء فيها يموت . ففى الساعة يموت الزمان . وفى السيارة يموت المكان .. وكل شىء فى علب وصناديق .. السيارة صندوق والساعة صندوق وملابسنا فى صناديق .. والبيوت واقفة على حيلها كأنها صناديق .. الدنيا كلها معلبات .. والعلاقات بين الناس أيضاً .. جافة .. أو مسلوقة . بلا طعم .. لا تفسد . لا تضر .. ولا تنفع ولا مذاق لها ..

كنت أنام واصحو .. هكذا أتخيل .. ولكن من المؤكد أن أمى قد نامت .. تراجعت إلى الوراء واستغرقت فى النوم .. مرهقة .. حياتها شاقة .. لا أعرف كيف تعيش . من النادر أن أراها سعيدة أو أسمعها تقول ذلك .. مسكينة تقف أمام الوابور بالساعات تحاول أن تصنع طعاماً .. أحسن طعام . ولكن المسكينة لا تكاد تضعه فى بطنها ، حتى تعيده .. ويكون لذلك صوت وصراخ .. لا تأكل ما تصنع يدها .. فلا يبقى فى معدتها إلا القليل من كل شىء .. وعلى هذا القليل تعيش .. فإذا غضبت فإن الذى ينزل من بطنها يكون له لون الدم .. أو هو الدم .. وهى لا تفرح بأى طعام مهماً كان شهيًّا .. فالنتيجة معروفة .. وجاء الدكاترة وذهبوا وهم يقولون كلاماً متشابهاً معدتها عصبية .. مصرانها عصبى .. كلها عصبية .. هذه حالها ، وليس لها علاج ! .

ولكنها الآن نائمة .. ونظرت عبر الزجاج إلى والدى يبدو انه نام أيضاً . فوالدى يتباهى بأنه أسرع الناس فى النوم . وكان يطلب إلينا أن نعد من واحد لعشرة إذا دخل السرير ..

فلا يكاد نصل إلى خمسة حتى يكون استغرق فى النوم تماماً ..

عندى فرصة نادرة أن أرى أبى وأمى معاً .. فليس إلا قليلاً جدًا أن أجدهما معاً .. وأن أجدهما صامتين . لا أحد يقول ولا أحد يرد .. ولا شكوى منى .. ولا من أى أحد ..

لابد أن هذا هو القرف .. فأنا فى حالة من الصمت .. وفى حالة من الضيق .. وفى حالة من العجز .. ولا أقول الخوف .. فلا شىء أخاف منه .. فأنا لا أعرف أى شىء عن هذه الرحلة .. ولا عرفت قبل ذلك عن أية رحلة .. أو مغامرة أو مخاطرة ، وإنما أسمع هذه العبارة دائماً : أعمل حسابك .. سوف نلملم متاعنا ونسافر إلى بلدة أخرى .. بعد غدٍ ..

لماذا ؟ لا أسباب ! إلى أين ؟ لا أعرف ! ومعنى ذلك أن مثل هذه الأسئلة لا معنى لها . وإذا كان لها معنى فعند والدى .. وعند أمى .. وليس من المفروض أن أعرف .. لأننى إذا عرفت فلن يغير ذلك من خط السير .. أو الظروف أو القدر .

أمى قالت مصر .. ووالدى قال مصر . إذن هى مصر . فما هى مصر .. لابد أن تكون مدينة أكبر من المنصورة عشرات المرات وعماراتها أعلى وأضخم .. واناسها مختلفون .. ولابد أن بها مكتبات أكبر .. وزملاء أكثر .. وإذا سكنا فى دور أعلى فهذه هى المعجزة .. أنا قلت معجزة ؟.. نعم أنا الذى قلت ذلك لأن سكنى الدور الأرضى قطعة من العذاب .. الجدران متقاربة باردة .. والجير يتساقط من السقف .. كأن السقف يريد أن ينطبق على الأرض وتتحول الغرفة إلى مدفن .. وكم حاولت أن أتقى البرد .. فكنت أضع مكتبى فى وسط الحجرة . ولكن الغرفة باردة . وكنت أرتدى البالطو والروب وكل ما عندى من ملابس .. وتظل الغرفة باردة .. ثم اهتديت إلى أن وضعت حصيرة بينى وبين الجدار .. وظلت الغرفة باردة .. فلففت الحصيرة حولى .. وظلت الغرفة باردة .. وارتديت الجورب الصوف والطاقية الصوف .. ولم أعرف طعم الدفء .. وكأن البرودة فى البيت قد انتقلت إلى الدنيا كلها .. فكل شىء بارد جامد .. حتى أيدى الناس عندما أصافحها أجدها باردة.. ويجدون يدى أكثر برودة .. إلا يد أختى .. فهى دافئة . وكثيراً ما وضعتها على خدى .. وأحياناً فوق قلبى .. وهى عندما تضع يدى على خدها تشكو من البرودة..

ومددت يدى إلى يد أمى ولمستها برفق حتى لا تصحو .. ووجدتها دافئة .. وصحت

أمى من نومها وظهرت على وجهها ابتسامة اختفت بسرعة .. ثم فتحت عينيها لتقول : انت تفعل ذلك دائماً .. حتى وأنت نائم .. تمد يدك إلى يدى .. نم ياولدى .. حاول أن تنام.. أمامنا مشوار طويل ..

انظر يميناً وشمالاً . كأننا فى زورق يهتز بشدة .. مع سماع أصوات الصيادين .. ويخيل لى أننى سمعت أصوات الدجاج .. فسألت أمى إن كان معنا دجاج .

فهزت رأسها بما معناه نعم . إذن فالدجاج فوق السيارة .. وهو آمن من الثعالب والذئاب ..

ونمت ..

وتوقفت السيارة مرة واحدة .. ومن النافذة نظرت .. إنه مكان غريب .. البيوت لها لون خاص .. عالية .. كبيرة .. ولها أبواب من حديد .. وأسوار من حديد .. والكلاب لها نباح مختلف . والناس أكثرهم بالملابس البيضاء .. وعرفت فيما بعد انهم الخدم والسفرجية .. وهناك سيارات تروح وتجيء ولا تتوقف .. السيارات نظيفة لامعة .. والناس لا ينظرون ناحيتك إذا نظرت إليهم .. ونزلت .

وكان لابد أن أحرك قدمى .. حتى ينقلوا الصناديق من السيارة .. هناك اناس انتظرونا .. انتظروا والدى .. فعندما نزل انحنوا على يده يقبلونها .. وسوى والدى ملابسه .. وأمى أيضاً .. وأشار والدى أن أتمشى وأتفرج بعض الوقت .. لكى أعرف المكان .. الأرض مرصوفة نظيفة .. كل بيت له حديقة .. وأصحاب الملابس البيضاء كثيرون ..

وقعت فى مشكلة كبيرة جداً ..

أريد اجابة سريعة عن معنى وجود هؤلاء الناس ذوى الملابس البيضاء .. لماذا هم كثيرون وماذا يفعلون فى البيوت .. وأين أصحاب هذه البيوت .. لا أحد فى الشباك لا أحد فى البلكونة لا أحد أمام الباب .. أين الناس .. هذه مشكلة .

والمشكلة الأصعب هى : هذه الرائحة التى تنبعث من البيوت .. ما هذه الرائحة .. من أى شيء تكون .. طعام ؟ حلوى ؟ عطور؟ أدوية ؟ هل هى رائحة الناس .. فلا أكاد أمر

أمام بيت إلا تخرج منه هذه الرائحة الغريبة .. وعلى الرغم من أن البيوت كلها ذات روائح.. إلا أن هذه الرائحة أقوى فى بعض البيوت . فما هى ؟

الشوارع واسعة جداً .. والدنيا هادئة جداً.. هذه إذن الزمالك.. لا أعرف عنها أى شىء.. ولكن ربما سمعت الاسم مرة أو مرتين .. ولكن الاسم فخم ضخم له موسيقى غريبة.. ووقع ساحر.. ولم أعرف ذلك إلا فيما بعد عندما كنت أقول: اننى أسكن الزمالك..

فلا أكاد افرغ من هذه الكلمة حتى أرى النظرات تفحصنى من فوق لتحت فلابد أن سكان الزمالك لهم مواصفات خاصة لا يجدونها فى هيئتى .. ما الذى يجدونه .. وما الذى لا يجدونه .. ولكنى صادق عندما أقول إننى أسكن الزمالك .. وكنت أستعين بواحد تعرفت عليه وأصحبه فى كل مكان ليؤكد إننى أسكن الزمالك .. كأننى محتاج إلى من يقسم على صدق ما أقول .. فما الذى يجعل الناس لا يصدقون .. ربما إننى لا أتنقل بسيارة .. أو أن ليس لى مصروف كبير .. أو إنهم لم يروا بيتنا ولا والدى ولا والدتى .. ولكننى أسكن فى الزمالك .. أو أسكن الزمالك .. محتاج لأن أقسم بالله العظيم إننى أسكنها ..

ومشكلة جديدة . لماذا وجوه الناس لامعة ؟ أى نوع من الماء ؟ أى نوع من الصابون ؟ أى نوع من الطعام ؟ هل هم من جنس آخر   لابد إنهم من جنس آخر وإلا ما سكنوا الزمالك .. وكانت لبيوتهم هذه الرائحة الغريبة .. وإلا ما كانت لهم سيارات وحدائق ونوافذ لا ينظرون منها وبلكونات لا يشترون منها الخضار .. ثم لا يوجد بائع خضار ..

ومشكلة أخرى : ما الذى يعمله هؤلاء الناس لتكون لهم مثل هذه الحياة ..

وكانت هذه الأسئلة تلتف حول رقبتى .. تلتف حولى كلى .. ولذلك فأنا لا أمشى فى الشارع وإنما أنا أدور حول نفسى .. لعلى أفلت من هذه التساؤلات التى هاجمتنى .. وهذه سيدة .. شكلها مختلف .. جسمها .. وجهها .. ذراعاها .. ساقاها .. شعرها .. أهم من كل ذلك مشيتها .. فلم أر أحداً يمشى هكذا .. مشية موسيقية لها وقع على الأرض مع اهتزازات غريبة .. لأول مرة أرى شيئاً كهذا .. وواحدة ثانية .. وثالثة .. وأطفال صغار ..

بيض .. شعـورهم ذهبيـة والعيون زرقاء .. والخادمـات سمراوات ويـرتديـن فساتين بيضاء أيضاً ..

ولا يوجد أطفال فى مثل سنى .. فالناس امـا صغار جداً أو آباء .. أما الشبان الصغار فلم أر واحداً .. لابد أن الأطفال هنا .. والشبان فى مكان آخر . أنا الذى أقول لنفسى . ولا توجد عبارة لا تنتهى بكلمة · افندم ..

اتفضل افندم .. افندم ماذا تقول . افندم ياأفندم ..

ووجـدت مقعداً عنـد مـدخل أحـد القصـور . وجلست . وجـاء واحـد من أصحـاب الجلاليب البيضاء والعمامات البيضـاء وجلس إلى جوارى .. وسـألنى فقلت لـه من أنا .. وكان هو البواب ..

وسـألنى . جنابك ابن مين ياافندم ؟

قلت له : هل يوجد هنا أطفال فى مثل سنى ؟

ـ افندم موجود ..

ـ أين هم الآن ؟

ـ فى المدرسة .. أو فى النادى ..

ـ متى يعودون ؟

ـ قبل الغداء .

ـ متى الغداء .

ـ فى الثانية ..

ـ كل الناس هنا يتناولون الغداء فى الساعة الثانية .. فى وقت واحد .

ـ نعم يا افندم .

ـ ألا يوجد أحد يتغدى قبل ذلك .

ـ يوجد .

ـ أو بعد ذلك .

ـ طبعاً .

ـ إذن كل إنسان حر يتغدى فى الوقت الذى يحب ..

ـ ولكن هـذه فوضـى .. لابد من النظام يـاأفندم .. الطباخ له مواعيـد .. والسفرجى .. والسواق والبواب .. لأنـه لابد من الاستعداد للعشـاء .. والعشاء له مواعيـد .. كل شـىء بنظام ..

ـ والناس الذين يرتدون الجلاليب البيضاء بالضبط ماذا يصنعون ؟

ـ أفندم ؟

ـ إننى أراهم دائماً فى الشارع أليس لهم عمل ؟

ـ طبعاً لهم عمل .. إنهم الذين ينظفون ويكنسون ويغسلون ويرتبون البيت .. ومنهم الطهاة .. والسفرجية .. طبعاً الطباخ لا يمكن أن يكون سفرجيًّا فى نفس الوقت ..

ـ لا أفهم .

ـ ليس معقولاً أن الطباخ يطبخ الطعام وهـو الذى يضعه فى الأطباق وينقلها بعد ذلك إلى السفـرة ويرتـب الفـوط والشوك والسكـاكين والأكواب .. هـذا شـغـل السفرجيـة .. والسفرجى لا يكنـس ولا يغسل لأن هذا شغل الخادم أو الخادمـة .. وهو لا يستطيع أن يقوم بفسحة الأطفال .. فهذا شغل الدادة ..

ـ الخادم والسفرجى والطباخ والدادة والبواب .

ـ آه والشوفير كمان .. السواق ..

ـ السواق !.

لكننى لم أر السائق الذى نقلنا إلى الزمالك .. كل هذه المسافة .. كل هذه الساعات وأنا أنقل عينى بين أمى وأبى وكتبى والساعة على ساقى .. ولم ألاحظ أن للسيارة سائقاً ..

ـ أمال جنابك عندك ايه ؟

ـ يعنى ايه ؟

ـ طبعاً .. فيه سواق وسفرجى وطباخ وداده .. وبواب ..

ـ هل هؤلاء هم الأولاد الذين تحدثت عنهم ؟

ـ هؤلاء خواجات ..

ـ ومتى يجىء المصريون ..

ـ حالاً .. لماذا تنهض .. هل تعرف واحداً منهم .. أين تسكن .. ومن هو الذى تسأل عنه . وأنا أعطيه عنوانك أو تليفون جنابك لكى يطلبك .. تحت أمرك ياافندم ..

افندم . وجنابك .. وتحت أمرى .. تليفونى .. وعنوانى .. وما جدوى أن أعرف أحداً منهم أو من غيرهم .. فكلها كم يوم ويجىء الليل بسرعة وندخل تابوتًا له عجلات يغوص فى الظلام .. ونصبح قطعة سوداء فى ليلة سوداء فى عربة سوداء والناس نيام ونحن أيضاً.. لعلى فى الليل أنسى النهار ومن عرفت وما عرفت استعداداً لاناس جدد .. جدد بعض الوقت أعرفهم لكى أنساهم .. أو من الضرورى أن أفعل ذلك .. يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ... بعد سنوات من تابوت إلى تابوت امتدت حياتى كل ليالى الطفولة .. ومن المؤكد كانت ألوف الليالى ، ولم تكن هناك طفولة واحدة ..

من أنا : إحدى مقذوفات من الماضى إلى المجهول .. زجاجة ألقاها بعض البحارة من سفينة تغرق .. وفى الزجاجة استغاثة .. لعل أحداً يدركهم ـــ كل الزجاجات قد أدركها الناس بعد أن غرقت السفينة وأصحاب الزجاجة .. وبقيت الرسالة دليلاً على ماض أليم.. وعلى أن هناك أملاً غير معقول فى النجاة .. وهناك اناس يفضلون أن يكونوا الزجاجة وأن يكونوا هم الرسالة التى لا يدركها أحد ..

ومن كل هذه الأنواع من الغرق كانت طفولتى ..

ومن كل الذين أوشكوا على الغرق .. والذين أعدوا الزجاجة .. ومن الذين وضعوا فيها رسالة إلى المستقبل .. ومن الذين ألقوها ومعها كل آمالهم فى النجاة .. فأنا خوف أمى ورضا أبى .. وقلقى .. فى سجن زجاجى .. صوت زجاجى .. صدى زجاجى !.

٣٠

لم اتصور لحظة واحدة أن اجد نفسى وحدى فى البيت ـ أى فى غياب أمى ولم أتصور ان تغيب أمى لاى سبب .. حتى اذا مرضت فهى تبقى فى البيت .. وحتى عندما تذهب إلى المستشفى أو إلى الطبيب فبعض الوقت . وقبل أن تذهب إلى عيادة الطبيب تكون قد أعدت كل شىء قبل ذلك بيوم .. الطعام أعرف مكانه .. وإذا سألت عنها احدى صديقاتها فماذا أقول .. واذا لم تسأل فمن الواجب أن أذهب إليها .. ولا أقول إن ماما مريضة .. وانما أقول إنها ذهبت للعزاء . وفى إحدى المرات قلت ذلك فسألوها عن الذى ذهبت للعزاء فيها . فكان ردها : أنه لم يكن عزاء وربنا لا يأتى بسوء لاحد ـ وإنما هو الذى أخطأ ـ أى أنا الذى أخطأت .

فأمى لا تريد أن يقال إنها مريضة أو يسأل احد عن مرضها .. أو يلاحقها بالسؤال عن صحتها وارسال الأطعمة أو الشاى والسكر الذى يجب أن ترده بنفس الكمية أو أكثر منها ..

وحتى عندما مات خالى لم تتركنى وحدى . وإنما طلبت منى أن أذهب معها وإلا آتى بكتب .. لا داعى لذلك . وهى تعرف مدى حبى للكتب ثم أنها هى حريصة على ألا أضيع وقتى . ولما سألتها قالت إنها تخاف من الحسد ..

وكانت تقول لا تأكل مع أحد .. أنا سوف آتى لك بالطعام .

ولكن هذه المرة سافرت أمى لان احدى أخواتها مريضة جدا .. وأنها تريد أن تراها قبل أن تموت .. ووجدت أمى قد ارتدت فستانا أسود .. ومنديلا أسود .. حتى المناديل

التـى فى جيبها لها أطـراف سوداء .. ثـم أنها نزلـت إلى السوق واشترت سكـرا وشايـا وصابونا .. وجاءت سيارة وأخذت أمى إلى حيـث أختها .. وقبل سفر أمى كان والدى قد حضر .. هو الذى سوف يبقى معى فى البيت فى غياب أمى . مفاجأة أخرى ! فهذه هى المرة الأولى التى اكون مع والـدى .. صباحا ومساء . وكنت فى غايـة الاضطراب .. كأننى اراه لأول مرة .. ولا أعرف كيف ابدأ الكلام معه .. ولا أعرف هل أذهب إلى المدرسة .. هل ابقى فى البيت .. ما الذى يجب أن أفعله .. كأنه رجل غريب .. ورحت أرقب والدى بمنتهى الدقة والعناية .. أنه مختلف تماما عن ماما .. أنـه اهدأ .. وحركته أبطأ .. ثم أنه ليس مستعجلا على أى شىء .. وظللت انتظر ما الذى سوف يفعله فى الافطار وفى الغداء . وكيف نمضى الوقت معا ..

إذا دق البـاب كان هـو الذى يسبقنـى إليه .. ويجىء انـاس يسألـون عن أشيـاء لا أفهمها.. ثم يتركـون خبزا ساخنا وبيضا .. ويجىء من يحضر الفطير المشلتت الساخن والقشدة وعسل النحل .. ثـم يتهامسون . ويقوم والذى باعـداد الطعام .. ويضع الفطير المشلتت فى طبق كبير .. ويضع القشدة فى طبق . والعسل فى طبق ويطلب أن نجلس معا .. وفى نفس الوقت يكون قد أعد الشاى بالنعناع ..

وقلت . أحب أن أكون معك ..

- ممكن أن أكون معك وزملاؤك معنا أيضا .. على كيفك .

- ولكن لماذا ؟

- أريدك أن تكون مبسوطا .. وحتى لا تشعر بأنك وحدك ..

- ولكن أنا مبسوط وأنا معك ..

ولم يكن هذا شعورى بالضبط .. فانا أشعر بأننى غريب عن والدى .. وأنه هو أيضا غريب .. وكنـت أنظر إليه وهو يأكـل .. وأنظر إلى أصابعه .. إلى وجهـه .. أنه أبيض أحمر وعيناه خضراوان . وله منظار أبيض .. وله شارب وشعرات بيضاء هنا وهناك فى رأسه .. وعيناه صافيتان .. ونظراته ثابته هادئة .. وليس فى عينه أى نوع من القلق .. وقال لى : أنا سوف آكل معك رغم أننى مصاب بمرض السكر ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أعرف أن والدى عنده سكر .. وشرح لى معنى الاصابة بالسكر .. وقال ضاحكا : لن تصاب بهذا المرض .. وإنما بعض أولادك فهذا المرض يصيب الاجداد والاحفاد .. فقد كان جدى مصابا بالسكر .. وهذا المرض يجىء من الاسراف فى تناول السكريات . أو يجىء من الحزن الشديد أو يجىء بالوراثة .. وأنا لا أعرف أى هذه الاسباب قد أدت إلى اصابتى بالمرض .. ولكن اعتقد أنه الهم والحزن يا ولدى ..

يقول : الهم والحزن ..

إذن فهذا الهدوء على وجه والدى وهذه الخفة والمرح ليست إلا شيئا ظاهريا .. أو ليست إلا محاولة لنسيان مرضه .. أو هو نوع من السلوك التعويضى ليخفف عنه السكر أو حتى لا يصاب بما هو أكثر من السكر ..

وسألته : وهل ماما عندها سكر

قال : لا . الحمد لله ..

سألته · ولن تصاب بالسكر ..

قال . إن شاء الله لن تصاب يا ولدى

قلت: إن جدى كان قويا .. ولم يكن مصابا بهذا المرض ..

قال . الحمد لله أن السكر لن يصيبك إن شاء الله .. هل تحب الفطير .

ـ جدا .

ـ سوف آتى به كثيرا ..

ـ وأذا بعثت إليك فاعط زملاءك الذين تحبهم .. لانهم لا يعرفون كيف يصنعونه فى المدن .. فى الريف فقط ..

ـ حاضر .. ومتى ستبعث ذلك ؟

ـ عندما اسافر

ـ اليوم ؟

ـ لا .. بعد ثلاثة أيام عندما تعود ماما ..

وأسعدنى أن يبقى والدى ثلاثة أيام .. أريد أن أقول له كثيرا وأن اسمع منه .. ولكن لا اجد شيئا أقـوله .. أننى فى غاية الاضطراب .. مـع أن والدى عندما يكون مسـافرا اتخيل حوارات طـويلة معه .. واتخيل نفسـى على صدره .. وفجأة سـألت والدى : بابـا .. هل الانتحار حرام ؟

ـ الانتحار ما هذا الذى تقول يا ولدى . ما الذى جعلك تسأل عن هذا الشىء الفظيع .. طبعا حرام .. ولكن لماذا هذا السؤال يا ابنى . أزعجتنى !

ـ مجرد سؤال ..

ـ ولكن لماذا .. طبعا حـرام جدا .. ومن يفعل ذلك يدخـل جهنم وبئس المصير .. اعوذ بالله .. تعال اقترب منى يا ولدى ..

والقيت نفسـى على صدره وجعل يضع يـده على رأسى ويقول : سلام قـولا من رب رحيم .. سلام قولا مـن رب رحيم .. ونجيناه من الغم وكذلـك ننجى المؤمنين .. ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. والله خير حافظا وهو ارحم الراحمين .. ورجعناك إلى امك كـى تقر عينها ولا تحزن .. وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين فاستجبنا له وكشفنا ما به من ضر . وكشفنا مابه من ضر وكشفنا ما به من ضر.. ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فنجيناه وأهلـه من الكرب ونجيناه وأهله من الكـرب العظيم .. تعرف هذه السورة ..

ـ نعم .. سورة (الأنبياء) ..

ـ الله يفتح عليك .. قل معى .. بسم الله الـرحمن الرحيم .. اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون .. ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون .

وقلت . لا هية قلوبهم ..

قال : لاهية بالفتح وليس بالضم ..

قال مرة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم ..

قلت : لاهية قلـوبهم وأسروا النجوى الذين ظلمـوا . هل هذا الا بشر مثلكم افتـأتون

السحر وأنتم تبصرون .. قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ..

ولاحظت أن والدى ظل منزعجا طوال اليوم . وفجأة قرر أن نتناول غذاءنا فى بيت احد أصدقائه .. ثم طلب منى أن أغير ملابسى لأننا سوف نخرج ونقوم بعدد من الزيارات .. وكلما نظرت إلى وجه والدى وجدت شحوبا وقلقا فى عينيه ..

حتى الكلام الذى بينه وبين أصدقائه طوال اليوم كان موجها لى .. والكلام كله عن وسوسة الشيطان الذى يهمس فى أذن الإنسان ليعصى ربه .. وإنه فى كل مرة يشعر الإنسان إن همس الشيطان قد ارتفع يجب أن يستغفر الله من كل ذلك.. وأن يقرأ سورة « الأنبياء » ففيها كل ما أصاب الأنبياء من عذاب .. ثم كيف نجاهم الله من كل ذلك ..

ثم حدث شىء فظيع غير متوقع ونحن نتناول طعاما فى بيت الحاج عبد اللطيف وهو من تجار الغلال ومن أحب الناس إلى والدى جاءت زوجته بعد أن بدأنا الطعام وسلمت واخفت جانبا من وجهها وسألها الحاج عن سبب غيابها فقالت : والله يا حاج مصيبه كبرى !

ـ خير إن شاء الله .

ـ خير يا حاج .. الحمد لله على كل شىء .. انه فريد ابن الدكتور شوقى .. الولد شرب زجاجة يود .. وكان سيموت فيها .. ولكن ادركوه على آخر لحظة ..

ـ لماذا ؟

ـ يا سيدى إنه يحب بنت الجيران ويريد أن يتزوجها ولكن والدته رفضت لأنها تريد أن يتزوج بنت أختها ..

ـ والله بنت أختها أجمل .. ويتمناها أى إنسان .. ثم إنها كانت زميلته فى الجامعة .. وغنية وفى غاية الكمال ..

قال والدى . والله حرام ..

وقالت هى . يمكن الانتحار ليس حراما عند الاقباط ..

قال والدى : حرام فى كل دين ونهايته جهنم وبئس القرار .. ما رأيك يا حاج .

قال الحاج حرام والعياذ بالله . والله أن لا أفهم يا سى محمد لماذا ينتحر هؤلاء

الشبان .. هـذه هى المرة الثانية التـى اسمع فيها عـن شاب حاول الانتحار .. قبـل ذلك سمعت عن ابن المأمور جودت .. قالوا إنـه مريض .. وأنه دخل المستشفى وذهبنا نسأل عن ذلك .. ولكن احدا لم يقل لنا ماذا جرى له .. واحد قال . معدته . وواحد قال: ضيق فى التنفس .. وواحد قال : أصـابة فى دماغه بعد أن سقط من البسكلـت .. والحقيقة أن الولد المسكين انتحر .. لقد امسـك سكينا وقطع عرقا مـن يده .. وظل ينزف حتـى أغمى عليه وادركوه فى آخر لحظـة .. والسبب تافه جدا فقـد ضربه أبوه قلمين أمام زمـلائه لانه بليد ولا يذاكر .. فأسرع الولد واتى بسكين وأغلـق على نفسه باب حجرته .. وبعد ذلك كسروا الباب .. وانقذوه فى آخر لحظة ..

اما الاضطـراب الذى أصاب والدى ففظيـع .. وقد رأيت اللقمة تـرتجف فى يده . ولا يعرف ما الـذى يفعله وهو يحاول أن يتفادى النظـر ناحيتى .. ولكننى وجـدت الرعب فى عينيه .. ويبدو أن والدى تأكد من أننـى لم أكن أقصد الا مجرد السؤال .. ولم تساورنى أية فكرة من هذا القبيل .. وهذا واضح فى هدوئى وصمتى .. واستمرارى فى تناول الطعام دون أن ارفع عينى .

وفى الطريق إلى البيت سألنى والدى . ما الذى اقرأ هذه الأيام ..

فقلت : قصة بوليسية ..

فضحك والدى هو يقول : لابد أن البوليس اطلق النار على القاتل ..

فقلت : قبل أن يدركه البوليس فقد انتحر .. وعلق نفسه بحبل من السلم ..

واستراح والدى وقـال : إنه رجل مغفل .. لم يكـن هناك سبب لان يقتل نفسـه .. ولو سلم نفسه لدخـل السجن بضع سنوات وخرج يستأنف حياتـه بصورة أفضل .. ولكن مادام قـاتلا فهـو يستحق الإعـدام .. ولكنه استعجـل إلا إذا كان فى حـالة جنـون .. لقد أصابة الجنون فقتل نفسه .. فله العذاب فى الدنيا والآخرة .

وكان والـدى يحاول أن يطرد الموضوع تماما مـن دماغى.. يريـد أن يطمئن على أن هذه الفكـرة قد قرأتها وإنها لم تخطر على بـالى .. بعد أن تحدث والدى عـن الحزن الذى أصابه بمرض السكر .. ولم يصب والدتى بعد .. ولعله حاول أن يعرف بالضبط ما الذى

جعلنى اتحدث عـن الانتحار .. هـل أنا أيضـا قد ضـقـت بهموم الحيـاة .. بمتاعـب أمى ومتـاعب والـدى .. الحياة الشـاقة الحزينـة التى نعيشـهـا جميعا .. أو هـل هى الكتـب الفلسـفية التى بدأت اقرأ فيها رغم أننى لسـت فاهما تماما لكل ماتقع عليه عينى .. أو أن هذه الفكرة قد تولدت فى الوحدة والعـزلة والانطواء والبعد عن الناس .. والقلق والشعور الدائم بـالغربة .. وبأن لا شـىء يمسكنى .. لا ارض تحتى .. ولا البيت ولا هـو يشغلنى بحوارات طويلـة بينى وبينه .. لقد ظل يستعين بـأصدقائه جميعًا على قتـل هذه الفكرة وإبادتها نهائيًا ..

فهو دائم التلاوة للقرآن .. وصـوته جميل .. والآيات التى يختارهـا من سور مختلفة الدلالـة . وتدعـو إلى الصبر والإيمان .. واقتراب الفرج .. ثـم أنه كـان يغنى أيضـا وهو يصنع الشاى .. وصوته جميل أيضا ..

وفى الليل عندما أنام مبكرا يجىء ويغطينـى .. وكلما وجدنى قد تمددت تحت اللحاف والبطانية رغم حرارة الجو يضحك . ثم ينحنى يقبلنى على جبهتى ويتلو آيات من القرآن الكريم .. ثم يخرج ..

وفى الصباح يفتح كل النوافذ والباب .. ولاول مرة أنظر من النافذة واكتشف أن البيت يقع عند طرف احدى الحدائق .. شىء عجيـب أننى لم أفكر فى دخول هذه الحديقة .. ولا خطر لى أن افتح النافـذة .. ولما انفتح الباب .. وباب آخر مواجه لـه ، كان الهواء مندفعا . وقـد أدى فتح النـوافذ والابـواب إلى أن تغيرت رائحة البيـت .. أن الهواء ينعش .. فهـذه الابواب والنوافـذ المفتوحة تجعل البيـت أوسـع ..وتجعل السقف أعلى .. فـالافق والسماء والحقول كلها اضيفت إلى البيت .. وجاءت الاصوات والنداءات ورائحة البرسيم والزهور. ورائحة الـدخان ثـم رائحة الطعام مـن بيوت مجاورة .. هنـاك أكثر من عـلاقة تـربطنا بالآخريـن : الاصوات والروائح .. والذيـن يدقون الباب رغـم أنه مفتوح ويسـألـون عن ماما.. ويسلمـون على بابا ثم إذا وجـدونى سـألونـى عن حالى فى المدرسة .. أو مـا الذى اقرؤه اليوم .. أو أن كنت زرت زميلى فلانا لانه مريض .. أو لانه عاد من السفر .. أو لان أخته تزوجت .. الدنيا كلها تدخل من الباب والشباك !

٣١

توقعت شيئا غريبا أن يحدث .. لا أعرف ما هـو .. مع أن حياتنا ليست فيها أحداث .. فهى تمشى وليس لوقع أقدامنا صوت على الأرض ، ولا لأصواتنا صدى .. ولو أغمضت عينى فى الطـريق فلن اصطـدم بأحد .. لاننى شبـح .. أو ظل .. أو اننى وهـم .. أو اننى جلباب ملىء هواء .. ملىء فراغا .. وفى بعض الاحيان كنت أدق بطنى بيدى .. فقد توهمت فى بعض الاحيان اننى بـلا بطن .. بلا معدة .. بلا قلب .. بلا أحشـاء .. ولا أعرف من أين جاء هذا الشعور ولا حتى ما معناه . وكنت دائم النظر إلى جسمى وإلى أجسام الناس .. وأذكر أننى نهضـت من نومى فى حالـة من الفزع لان احد الاطفال ضرب الكـرة ناحيتى فدخلت بطنى وخرجت من الناحية الأخرى .. حتى الجلباب نفذت منه دون مشقة .. كأن جلبابى من نسيج العنكبوت .. شىء غريب هذا الشعور وهذه المعانى ..

ولكن النظرات التى لم آلفها من أبى وأمـى تدل على أن هناك شيئا ما يقولانه دون أن اسمعه .. حتى لا اسمعه ..

واقترب منى والدى وقال تعال نخرج .. فأنا أريد أن أجلس معك ..

ـ الله .. تجلس معى ؟

ـ تعال ..

وتعلقت بـذراعى والدى .. وتركـت الباب مفتوحـا ونظرت إلى الباب الذى لم أتـركه مفتوحا قط .. ولكن هذه المرة تركته دون أن أبـالى بغضب أمى .. أو كأننى لا ابالى بالبيت كله مادمت مع أبى ..

ولا اعرف كم طال الطريق .. ولكن والدى اتجه إلى احد المطاعم وقال · هنا سوف نجلس ونتناول غذاءنا ، فماما لا تستطيع اليوم أن تعد لنا طعاما .. وأنا اتفقت معها على أن نجلس معا ثم نعود إليها ..

أول مرة أذهب إلى مطعم .. أول مرة اسمع من والدى أنه يريد أن يجلس معى .. ويريد أن يكلمنى وأن يكون ذلك فى مطعم بعيدا عن البيت .. ويكون الكلام أثناء الطعام وهو الذى يريد أن يتكلم .. وكنت سعيدا أن أجلس إلى والدى وأن أراه وأن استمع إليه وحدى وجها لوجه .. فلم اجلس إليه وجها لوجه .. وإنما دائما أراه على السرير .. أو أراه يرتدى ملابسه أو أراه داخلا أو خارجا .. ولكن جالسا معه وفترة طويلة شىء جديد .. مثير ..

وسألنى : ماذا تريد أن تأكل ؟

ـ لا أعرف

ـ هنا كل شىء .. لحمه وفراخ وسمك وأرز ومكرونه .

ـ كل هذا

وضحك والدى وهو يقول اختر أحسن هذه الاشياء

ـ ما ستأكله أنت .

ـ اذن اختار لك مكرونه وسمكا مقليا وصلصة وبطاطس بالدمعة . موافق ؟

ـ نعم .

ورحت املأ عينى من والدى .. أن والدى وجهه أبيض احمر مشرق .. وله عينان خضراوان هادئتان تماما وشعره أسود .. وجبهته متوسطة .. وشفتاه ممتلئتان .. وعنقه طويل .. ويضع عطورا جميلة هادئة .. ويداه ناعمتان .. واصابعه أيضا .. وله قميص بزراير ذهبية فى الاكمام . وله ساعة ذهبية بسلسلة تتدلى على الصديرى .. وله طربوش أحمر غامق ..

قلت : يا بابا هل نحن فقراء

ـ لا ..

ـ لماذا عندى هذا الشعور ؟

ـ من الذى تراه غنياً من أصدقائك ؟

ـ لم أفكر فى ذلك ..

ـ هل لا تجد الطعام فى البيت ؟

ـ أجد الطعام ..

ـ إذن لسنا فقراء !

ـ ولكن البقال يطلب منى فلوسًا .. وصاحب الأجزخانة .. لماذا لا تدفع لهم فلوسهم ..

ـ لأن ماما هى التى تدفع .

ـ ولماذا لا أدفع أنا ؟

ـ لأن ماما أعطتك الفلوس فى إحدى المرات فجاءك شحاذ فاعطيتها كلها له .. أنت نسيت؟

ـ هذا حدث ..

ـ وحدث مرة أخرى .. أن جاءك شحاذ وكانت تمشى وراءه زوجته وأولاده وانتظروك عند باب المدرسة .. لانهم يعرفون أن قلبك طيب .. وبكى الرجل وراح يقبل يديك .. فأعطيته المصاريف المدرسية .

ـ هذا صحيح .

ـ ولذلك فوالدتك لا تعطيك أى مبلغ من المال حتى لا يخدعك هؤلاء الشحاذون النصابون..

ـ لماذا ماما مريضة دائما ؟

ـ أنها ترهق نفسها فى شغل البيت .. وترفض أن يقيم معكم فى البيت أى خادم أو خادمة .. أنا حاولت كثيرا ولكن ماما ترفض ذلك .. حتى خالتك مرة أتت معها بخادمة . ولكن ماما طردتها ..

ـ لماذا ماما تخشى أن أكون فقيرا؟

ـ هى تحبك وقلقة عليك ..

ـ يعنى لن أكون فقيرا ؟

ـ لا .. إن شاء الله .

ـ من هو الفقير يا بابا ؟

ـ هـو الإنسان الـذى لا يجد طعامـا ولا ملابـس ولا بيتا ولا يستطيـع أن يذهـب إلى المدرسة ولا يقدر على شراء الكتب والادوية ..

ـ إذن نحن لسنا فقراء ولكن لماذا أنت تقول كلاما وماما تقول كلاما آخر .. أيكما على حق.

ـ ماما على حق .. وأنا على حق أيضـا ..

ـ ولكن ماما لا تقرأ الكتب التى تأتى بها أنت .. وقد طلبت إليها أكثر من مرة أن تقلب فيها وسوف نجدها جميلة ومسلية .. ولكنها رفضت ..

ـ ماما تخاف أن تنشغل بها عن الدراسة .. فمامـا ترى أن أخوتك الذين انشغلوا عن الدراسة لم يكملوا تعليمهم .. وهى لا تريد لك هذا المستقبل ..

ـ لماذا لا تقنع ماما برأيك هذا ؟

ـ حاولت ولكنها مصرة على موقفها ..

ـ اذا أنا قـرأت هذه الكتب ، ارضيتك وأغضبتها .. فكيف أكـون أبنا لكما أنتما الاثنان وأكون هكذا مختلفا ..

ـ انظـر إلى أية شجـرة يا ولـدى .. هذه الشجـرة خرجـت من بـذرة وضعت فى أرض سـوداء .. وهذه البـذرة عاشـت على الطين وعلى الهواء وعلى الماء .. ومع ذلـك فالشجـرة مختلفة تماماً عـن الماء والهواء والطين .. هذا طبيعى يا ولدى .. ولكن عنـدما تكبر سوف يتسع وقتـك لكى تفكر ويكون لـك رأى خاص .. أنا عنـدما كنت صغيرا كنت احـب أبى واحب أمى .. وكانا يتشاجران ويختلفـان واجد نفسى حائرا بينهما .. وكان والدى يقول لى . أنت عاوز إية .. فـأقول عاوز العب فى الشارع .. فيقول . العـب .. وكانت أمى تخاف من الخناقات المستمرة مع أخوتى وأولاد عمى ..

ـ ماذا أكون فى المستقبل ؟

ـ ليس الآن يا ولدى .. عندما تحصل على الابتدائية .. سوف تفكر أين تذهب ..

ـ ماما تريدنى وزيرا .. يعنى ايه ؟

ـ ماما لها ابن خال وزير وهى ترى أنه أعظم إنسان فى الدنيا .. وهى تريدك أن تكون أعظم منه .. أنها أم .. وتحب لابنها كل شىء ..

ـ أخى الاصغر هل أنت تحبه !

ـ طبعا

ـ وماما أيضا ..

ـ ولكن لماذا لا يخرج معى .. ويلعب معى .. ؟

ـ أنه مختلف عنك .. ويجب أن يبقى دائما إلى جوار أمه .. وهى تحب ذلك ..

ـ ولماذا ماما تحبنى فقط .. وأنت أيضا لا تحب أخوتى .. وتحبنى أنا أكثر من الجميع..

ـ بل احب كل أخوتك .. وأنت أكثر .

ـ لماذا ؟

ـ والله يا ابنى لانك أطيب . لانك مجتهد .. لانك ذكى .. لانك على خلق .. لان عندنا احساسا بأنك سوف تعوضنا عن كل أخوتك .

ـ يعنى اعمل ماذا ؟

ـ يعنى تكون بالضبط كل ما نتمناه ، لكل الاولاد ..هذا عشمى فى الله سبحانه وتعالى.. يالله بنا .. لقد تأخرنا .. ولابد أن نسافر حالا ..

ـ نسافر ؟!

ـ نعم .. هات يدك .. هات .. سوف نذهب إلى بلد احسن .. سوف يكون لك بيت أوسع.. واصدقاء أكثر .. بلدة جميلة .. وفيها مكتبة كبيرة .. وبالقرب من البيت رجل يبيع كل أنواع الكتب .. وقد عرفت أن صديقك سامى سوف يسكن فى البيت المجاور لنا ..

* * *

ولم اعد استمع إلى ما يقوله والدى ..

ولا أعرف كيف وصلنا بهذه السرعة إلى البيت . ووجدنا الباب مفتوحا . ووجدنا والدتى قد ارتدت ملابسها السوداء وجلست على احد المقاعد .. والمنديل على رأسها أسود.. ووجهها ازداد بياضا وهدوءا .. ونظرت والدتى إلى أبى ثم اعادت النظر واقتربت منها واحتضنتى وراحت تقبلنى .. وتقول كلاما لا أعرفه .. ولعلها أرادت أن تطمئننى ..

وتلاحقت الاحداث بسرعة .. وجاءت سيارة وقفت أمام الباب .. وجاء السائق وفتح الباب فدخلت أمى وأنا من بعدها ثم والدى . واستقرت ساعة الحائط على ركبتى .. كأنها تابوت سوف ادخله .. أو كنت فيه وخرجت منه .. أو أنه الحوت الذى سوف يبتلعنى تماماً كالنبى يونس عليه السلام .. رحت أرى البيوت والأشجار .. فكل شىء أبعد وكل شىء يتحرك بعيدا .. يمشى فى عكس السيارة .. واضع رأسى على كتف والدتى . ثم على كتف والدى .. وأرى البيوت سحابا يعلو ويهبط .. أو موجا يحيط بالسيارة من كل جهة.. كأن السيارة قذيفة محشوة بشرا .. وكنت وأنا فى السيارة كأننى الذى أجرها وأنا فى داخلها .. أو كأنها تمشى فوقى ..

وانظر إلى أمى لقد نامت ..

وإلى أبى لقد نام هو أيضا ..

وإلى الساعة التى على ركبتى إنها هى الأخرى قد نامت ..

وفجأة وقفت السيارة أمام بيت جديد ..

اذن لقد نمت أنا أيضا .. وصحونا على شوارع خالية من الناس .. وبيوت خالية من الناس .. والسماء خلت من الشمس .. والأرض خلت من التراب ورأسى خلا من أى فكر .. وقلبى من أى خوف ..

وكل شىء قد وقف هناك بعيدا فى حالة استعداد وانتظار لأى شىء ؟ وأنا وقفت كأننى باب فى بيت .. كأننى بيت فى شارع .. كأننى شارع واقف على حيله .. كأننى ظل لانا .. كأننى صداى .. كأننى واحد بين أنا وهى وهو والآخرين .. أو كأننا جميعا .. فى انتظار أمر بالتحرك من المجهول إلى المجهول !